كلمة العدد

بقلم : الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

الأرشيفات العربية

بين ابداع الأجداد واهمال الأحفاد

اذا كان التاريخ هو ذاكرة الشعوب فان الأرشيفات هي خزانات التاريخ . وقد كانت الأرشيفات ومازالت أحد أهم مصادر المعرفة . وهي الينابيع الدافقة التي يستقى منها الباحثون والدارسون المادة الأساسية لأبحاثهم ودراساتهم التي يسهمون بها في دفع عجلة الحياة وفي تحقيق غد أفضل للانسان أينما يكون الانسان . وقد حفظت لنا الأرشيفات كميات ضخمة من المعلومات حول مختلف ابداعات العقل البشري ، كما حفظت لنا كميات أضخم من الوثائق والوقائع والمادة الخام لكثير من الأحداث التي واكبت خطوات الانسان على هذه الأرض منذ ابتكر هذا الفن وتطور وانتشر وحتى اليوم . واذا كانت بعض ألوان النشاط محدودة المجال أو محدودة التأثير أو محدودة الاستفادة ، فان مجال الحركة والتأثير والاستفادة للأرشيفات لا يمكن الا أن يكون عالميا . ذلك لأنها تنمو أخذا وعطاء وانها تقدم خدماتها ـ بحكم طبيعة نشاطها ـ بتجرد شديد دون توجه أو توجيه . واذا كان العصر الحاضر قد شهد قفزات أسطورية في بعض معطيات العلم فقد

نال الارشيفات منها نصيب لا بأس به . وأدي أخذها بالإساليب الحديثة فكرا ، والمنتجات الحديثة وسيلة ، الى تطور كبير سهل لها حشد أكبر كم من المادة في أصغر حيز من المكان . كما سهل لها ولروادها تقديم المعلومة أو الحصول عليها في سرعة ويسر . وأتاح لها أن تمتد بهذه الخدمات الى ساحة أوسع وعبر مسافات ابعد على ظهر هذا الكوكب .

والسؤال الذي نطرحه هنا هو أين الأرشيفات العربية من كل ذلك اليوم ؟

هذا السؤال كان المحور الرئيسي للاجتماع الذي عقد مؤخرا للجمعية العمومية للفرع الاقليمي العربي للمجلس الدولي للأرشيف بالجمهورية التونسية الشقيقة . بل كان ومازال المحور الرئيسي لأى حوار أو نقاش بين المهتمين بالأرشيف في كل مكان من عالمنا العربي ومختلف قطاعات المثقفين والباحثين .

والغريب أن التاريخ العربي يؤكد أن العرب كانوا من أوائل من عرف هذا الفن . اهتموا به ، ونظموه ، وطوروه واستحدثوا فيه الكثير . والغريب أيضاً أن مجموعة الوثائق الخاصة بالمنطقة تعتبر أحد أكبر المخزونات الأرشيفية في العالم بحكم أن المنطقة ذات تاريخ ممتد من ناحية وأنها كانت ساحة للكثير من الأحداث الهامة طوال التاريخ من ناحية أخرى وباعتبار أن الأمبراطورية العثمانية كانت احدى القوى الدولية الهامة في تاريخ المنطقة وهي دولة احتفظت في أرشيفات قصورها بمخزون هائل من الوثائق من ناحية ثالثة .

ولكن الأغرب من كل ذلك وبعد كل ذلك أن كما هائلا من الوثائق الخاصة بالمنطقة نقلت أو سرقت أو تسربت الى الأرشيفات الأجنبية . والأغرب أيضاً أن العرب الذين أبدعو في فن الأرشيف في تاريخهم الزاهر أصبحت أرشيفاتهم اليوم أو معظمها يحتاج الى تطوير كبير لتواكب الأرشيفات الأجنبية اضافة الى أن الملايين من الوثائق الهامة في بعض أرشيفات منطقة الشرق الأوسط مازالت حبيسة المخازن دون الاستفادة المرجوة منها .

هذا الواقع كان كما قلت هو محور الحديث في لقاء تونس وهو الواقع الذي كان لا بد أن تأخذ نتائجة أشكالا غير مرغوبة أو صورا تمثل تحديا قائما لكل المهتمين بهذا الفن . فقد أصبح كثير من الباحثين والدارسين في

المنطقة العربية يلجأون للارشيفات الأجبنية للاطلاع على وثائق تتعلق أصلا ببلادهم و أوطانهم و أصبح العمل في الأرشيف مهنة محوطة بكثير من الظلال الكئيبة فيكفي أن تسمع أن فلانا يعمل موظف أرشيف حتى ترتسم على الفور صورة رجل متعب مما صرف الكثر من شبابنا عن دراسة هذا الفن أو الاشتغال به .

نحن بالطبع لا نحلم بأن تتغير الصورة بين يوم وليلة ، فتغيير الصورة في قطاع مثل هذا القطاع ، يحتاج لجهد كبير وامكانيات أكبر . وان كنا نحلم بأن تحظى الأرشيفات في عالمنا العربي بدرجة من الأولوية تتيح لها أن تبدأ طريق التطور نحو مستوى أفضل وربما كان لوضع الفرع العربي الأقليمي باعتباره فرعا للاتحاد الدولي ما يبعث على محاولة الاستفادة من المعطيات الحديثة في الأرشيفات المتطورة لتكوين خبرات عربية في هذا المجال تكون قاعدة لانطلاقه جديدة تعيد الحياة للأرشيفات العربية هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فان الحاجة أصبحت ملحة لخلق نوع من التواصل بين الارشيفات العربية وبعضها البعض ، لا شك أن هناك بعض الأرشيفات الحديثة خاصة في منطقة الخليج ولا شك أيضاً أن التعاون الذي أرسيت دعائمة بين هذه الأرشيفات يعتبر صورة ناجحة بل مثالية في هذا المجال ، ولكن الأمر يكون أفضل وأجدى لو امتد هذا التعاون ليشمل كل أرشيفات المنطقة العربية فالأرشيفات كما ذكرت في مقدمة هذا الكلام انما تنمو وتتطور أخذاً وعطاء .

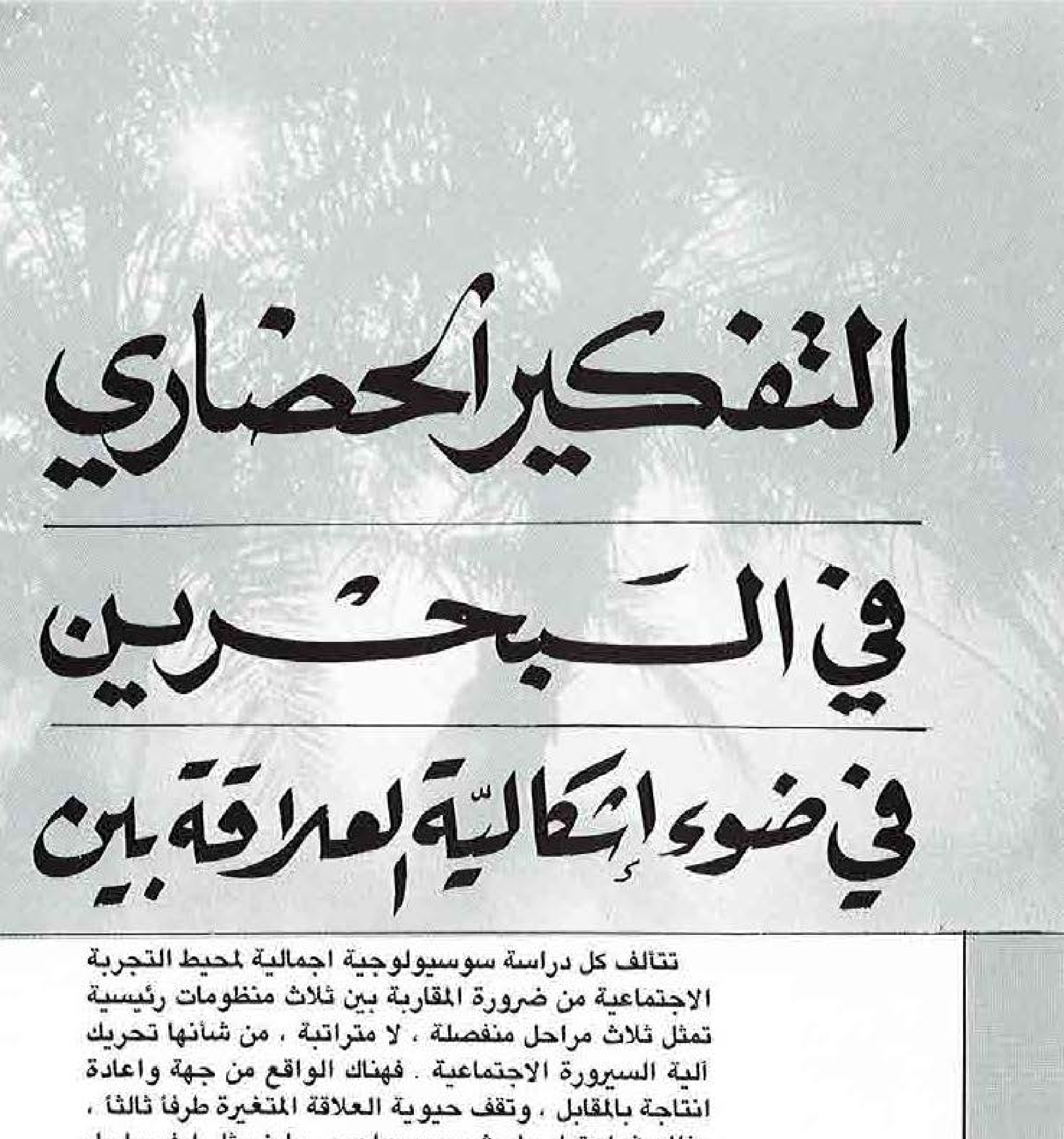
يأتي بعد ذلك أمران في غاية الأهمية يجب أن يطرحا للبحث على أكثر من مستوى .

الأول : هو البحث عن كيفية استعادة الكم الهائل من الوثائق الموجودة في الأرشيفات الأجنبية أو على الأقل الحصول على صور ميكرو فلمية لها .

والثاني : هو مواصلة الجهود التي بدأت بالفعل للاستفادة من ملايين الوثائق في الارشيفات العثمانية .

وبعد : ان الأمر هام بل هام جداً ونعتقد أن البحث عن حل يجب أن يتجاوز نطاق الحديث والكلام الى حيز العمل والتنفيذ .

عبدالله بن خالد آل خليفة



التفكير الحضاري

في البحرين

في ضوء اشكالية العلاقة بين

تتألف كل دراسة سوسيولوجية اجمالية لمحيط التجربة الاجتماعية من ضرورة المقاربة بين ثلاث منظومات رئيسية تمثل ثلاث مراحل منفصلة ، لا متراتبة ، من شأنها تحريك آلية السيرورة الاجتماعية . فهناك الواقع من جهة واعادة انتاجة بالمقابل ، وتقف حيوية العلاقة المتغيرة طرفاً ثالثاً ، وذلك في اعتبار باحث سوسيولوجي بارز مثل ايف باريل الذي يرى :

«ان فائدة مفهوم اعادة الانتاج الاجتماعي هي في اتاحة وضع عدد من الفرضيات حول طبيعة تغير المجتمعات ودوام المجتمعات النسبي وحول طبيعة التناقضات ، كما هي في الايحاء بنمط من الصياغة البنيوية للمجتمعات ، بالانطلاق من سيرورة اعادة الانتاج الرئيسية والمنظومات الاجتماعية ـ الثقافية التي تكونها» . (١)



"١"

المثال والواقع



بقلم الدكتور علوي الهاشمي

وهناك الطوباوية، والاستقبالية والايدلوجيا، كمرتكزات منظومية أو أبعاد أساسية في حركة المجتمع ، في اعتبار دارس سوسيولوجي آخر يري في الايدلوجيا «منظومة اجمالية من تفسير الحوادث التاريخية والسياسية الحاضرة والماضية والمقبلة» . (٢)

وهو يكاد ، في ربطه الجدلي بين تلك الابعاد المنظومية الثلاث ، يجنح نحو وضعها على مرتكزات الزمن في وحداته التقليدية الثلاث : الماضي والحاضر والمستقبل ، بعد حشو أطرها التجريدية بوقائع المجتمع وسيرورته

التاريخية .

كما كانت النظرية الماركسية تقوم على ما يسمي بالواقع والانعكاس عنه أي العلاقة بين الواقع والفكر أو بين «البنية التحتية والبنية الفوقية» في تصنيف لينين.

وهو ما تطور فيما بعد ليصل على يد باحث بنيوي مثل تشومسكى الى ما أطلق عليه «البنية العميقة والبنية السطحية» والعلاقة بينهما ، متخذاً من النص الأدبي حيزاً لتطبيق رؤيته لتلك الابعاد الثلاثة . ثم جاء أخيراً لوسيان غولدمان بنظرية ، ضمن نفس السياق ، عن البنيوية التكوينية أو التركيبية التي تركز على سوسيولوجية الأدب الجدلية . (٣)

ولسنانرى هنا ضرورة الحاجة الى عرض تاريخي لنشوء هذه النظرية منذ فلاسفة اليونان القدماء (نظرية المحاكاة) مروراً بالنقاد والفلاسفة العرب (المعنى والمبنى) حتى عصرنا الحديث الذي تركز البحث فيه ، بعد ان تطور في اطار النظرية السابقة نفسها ، على العلاقة بين الشكل والمضمون ، والذي تطور تطوراً نوعيا منذ فردينان دي سوسير وبحوثه اللغوية الرائدة في علم الألسنية الحديث، حيث «ميز دى سوسير بين البعد الداخلي والبعد الخارجي للألسنية . فالبعد الداخلي يحتوي على النظام الذاتي للغة . في حين ، يرتبط البعد الخارجي بتاريخ الشعب المنتفع بها وبحضارته وبأدبه وبالأبعاد الجغرافية السياسية الخاصة به» . (٤) ولذلك صارت اللغة «هي مزية الانسان» الاساسية . (٥) ان ما يعنينا حقاً من هذا العرض المبتسر ، سواء على الصعيد السوسيولوجي أو الفني أو اللغوي ، هو ترابط هذه المجالات من ناحية ، وانبناء منظومتها الإجمالية المشتركة على أبعاد رئيسية ثلاثة تؤلف في علاقتها الجدلية قوانين الحركة والسيرورة داخل اطار المنظومة ، من الناحية الثانية .

ولا بد من الاشارة هنا الى ان درجة وعي هذه العلاقة قد مرت بمراحل من التطور منذ سقراط وافلاطون وأرسطو حتى عصرنا الحاضر ، وبمراحل من التعقيد والتداخل ، امتدت بين المثالية والواقعية فالواقعية الجديدة . كما ان طبيعة التفكير وعمقة في كل مرحلة كانا معاً يرجحان درجة العلاقة ونوعها من جهة ، وميلها نحو أحد أبعادها من جهة أخرى . فالمحاكاة لدى افلاطون ، غيرها لدى ارسطو ، وهي غيرها لدى لينين (ان جاز تسمية «الانعكاس» نوعاً من المحاكاة بصورة أو بأخرى) ، (٦)
فهي مثالية طوباوية عند الأول وواقعية عند الثاني ، وجدلية عند الأخير . غير انها في المراحل جميعاً تقوم على أساس العلاقة بين الأبعاد المنظومية الثلاثة التي تعكس الواقع وصورته في الذهن وتربط بين الانسان

والطبيعة والفن . الأمر الذي يجعل «المثالية» قاعدة كل الفلسفات ، «لأن بناء المفاهيم والتطورات ، انماهو نشاط مثالي بطبيعته .(٧)

الا ان للأمم في ذلك خصوصياتها ، بين شرق وغرب ، كما يعتقد هيغل ، ففارق البيئة والتاريخ وسيرورة العلاقة بينهما يؤدي بالطبع الى فوارق بله فويرقات في التفكير والتعبير . وتتسع مسافة الاختلاف خاصة في العصور الحديثة حيث ميزت طبيعة المدينة الحديثة (خاصة جانبها التكنولوجي والفلسفي) بين الطرفين تمييزاً واضحاً في نظر هيغل حيث «اللامنقسم ، الثابت ، الواحد ، الجوهري هو ما يضطلع في الشرق بالدور الرئيسي ، وهذه النظرة الى الاشياء ، حتى وان لم تتوصل الى حرية المثال ، يمكن ويجب أن تعد أكمل النظرات ، وبالقابل يعكف الغرب ، وبخاصة في أيامنا هذه ، على تشتيت وتخصيص لا متناهيين للامتناهي ، وبنتيجة هذا الاختزال للأشياء طرأ الى نقاط منعزلة ، يتلبس المتناهي في نظر التمثل طابعاً مستقلاً ، مما لا يعفي مع ذلك من ضرورة رده الى النسبة، على حين أن لا وجود في نظر الشرقي لأي شيء مستقل ، بحصر المعنى ، وانما يتجلى له كل شيء وكأنه عرض طارىء للواحد وللمطلق ، به يندمج وفيه يلقي المبرر الأسمي لوجوده» .(٨)

ان تلك الرؤية الشمولية (الصوفية) التي يتميز بها الانسان الشرقي هي ما يجعلنا نتبني النظرة البنيوية الكلية في محاولتنا الكشف عن بنية التجربة الحضارية في البحرين ، مادام أنها جزء صميم من تجربة الشرقي ونظره . مع وعينا التام بأن عملنا هذا لا يخلو من التناقض من الناحية المنهجية كما هو ظاهر ، من حيث اننا نستخدم البنيوية وهي منهج غربي حديث ينتمي الى واقع «التشتيت والتخصيص»، كما لاحظه هيغل ، في المجتمع الغربي الحديث ، ونطبقة في دراسة تجربة تنتمي الى الواقع المقابل ، وحقيقة الأمر التي تزيل أو تخفف عن عملنا هذا صفة التناقض ، هي ان البنيوية التي أفرزها الغرب منهج نظري ووسيلة عملية في نفس الوقت ، حيث ان واقع «التشتيت والتخصيص» ، خاصة بعد ان استفحل أمره في الغرب مع تطور المجتمعات الصناعية ونمو الرأسمالية والتقدم التكنولوجي ، اقتضى من المفكرين وسيلة جديدة للنظر فيه ومعالجته علميا ، وذلك بالكشف عن منظوماته الكبرى المحركة لكل ذلك الشتات من التخصص Specialization وتقسيم العمل Devision of Labour الذي يسم بطابعه القوى مجتمعات الغرب الحديثة . أما بالنسبة الينا فالبنيوية وسيلة نظر بالدرجة الأولى تساعدنا

بقدرتها على اكتناه القوانين والمنظومات الأساسية ، في الكشف عن اشكاليات التجربة الحضارية في البحرين باعتبارها جزءا من تجربة الشرق العربي ، خاصة تلك الاشكالية الرئيسية التي أومأ اليها هيغل في نصة السابق حول المسافة بين النظرة الشمولية الى الاشياء التي «يمكن ويجب ان تعد أكمل النظرات» وبين «توصلها الى حرية المثال» . حيث يمكن لمنهج الغرب البنيوي ان يكشف في رأينا عن حقيقة هذه الاشكالية الشرقية على مستوى الوعي والواقع ، تماما كما كشفت تكنولوجيا الغرب ونظرياته العلمية عن جوانب عدة من مخزون الشرق وثرواته الاقتصادية والفكرية ، مع ضرورة الوعي هنا ، للتمييز بين أهمية الأداة وامكانية استغلالها .

ان اشكالية المثال/ الواقع المذكورة تضعنا وجها لوجه أمام الاطار الواقع الذي يمكن ان تندرج فيه صورة التجربة الحضارية في البحرين بشكل عام . فهي اشكالية نموذجية حية جامعة (من حيث شرقيتها) ومميزة لمكونات واقع شرقي عن أخر غربي . حيث تنعكس بصورة أوضح في اشكالية الروح/ الجسد التي هي وجه أخر من وجوهها . غير انه ، هنا ، ينبغي التذكير بأن غلبة الحضارة الغربية وسيطرة قوانينها المادية على العالم الحديث بأكمله ، قد جعلت تلك الاشكالية الشرقية أكثر حدة وبروزا ، خاصة وان مقتضيات الظروف الحاضرة ومجريات التاريخ المعاصر قد جعلت الشرق والغرب وجها لوجه في كثير من الاحيان ، وداخل بينهما في أكثر الأحيان ، مما انعكس أثره واضحا في فكرنا المعاصر . «واني لأعتقد أن مثل هذا الصراع بين الطرفين - بين مقتضيات العلم ومقومات الانسان - والرغبة في ايجاد الحلقة التي توفق بينهما فتزيل الصراع ، هو ما تختلج به نفوسنا نحن أبناء الأمة العربية اليوم ، وننتظر صاحب الفكر الفلسفي الأصيل النافذ ، ليغوص الى أعماقنا الثقافية ، فيستخرج لنا الصيغة المنشودة التي نقرؤها فنجد أنفسنا منعكسة فيها» . (٩)

ثم يشير الدكتور زكي نجيب محمود الى جهود أعلام الفكر ابان عصر النهضة أمثال محمد عبده والعقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم وغيرهم التي كانت تصب جميعها في مجرى هذه الاشكالية التي اتخذت لها عدة وجوه واسماء حسب طبيعة الشخصية وزاوية النظر والبحث عند كل واحد من أولئك المفكرين . فهي عند محمد عبده توفيق بين الدين والعصر ، وعند العقاد امتزاج بين الثقافتين الأوروبية والعربية دفاعا عن الاسلام ، وعند طه حسين نقد للأدب العربي القديم على ضوء الفكر الحديث (الأوربي طبعا) ، وعند الحكيم تعادلية أو «عناق» بين الروح والمادة ، وبين الأزلي والحادث . «وهكذا تستطيع ان تتعقب أعلام

الفكر في تاريخنا الحديث والمعاصر ، فنجد كل واحد منهم قد أراد بطريقته الخاصة أن يضفر ثقافة الغرب الحديث وثقافة التراث العربي في جديلة واحدة» . (١٠) ان اشكالية المثال/الواقع ، اذن ، اشكالية اساسية قديمة متجددة في تجربة الانسان العربي والشرقي بوجه عام وهي تمثل أبرز خصائص اشكالياته الوجودية المميزة كما أشار هيغل . ولأنها اشكالية ثنائية أساسية وشمولية ، فلا غرو ان تكون الجذر المولد لعدد غير متناه من الاشكاليات الثنائية التي يعبر كل منها عن وجه من وجوهها وصورة من تجلياتها اللامحدودة ، والتي يثوي جذرها الحي المولّد عميقا في النفس كالمبدأ الراسخ الذي يشير اليه في ثقة تامة الدكتور زكي نجيب بقوله «فأحسب ان لو تعمقنا ضمائرنا ، لوجدنا هناك مبدأ راسخا ، عنه انبعثت ـ وما تزال تنبعث ـ سائر أحكامنا في مختلف الميادين ، هو مبدأ ، لوعرضته على الناس في لغة واضحة صريحة ، لما وجدت منهم أحداً يحتج أو يعارض ، وأعني به مبدأ الثنائية التي تشطر الوجود شطرين ، لا يكونان من رتبة واحدة ولا وجه للمساواة بينهما ، هما الخالق والمخلوق ، الروح والمادة ، العقل والجسم ، المطلق والمتغير ، الأزلي والحادث ، أو قل هما السماء والأرض، ان جاز شذا التعبير».(١١) واما عن طبيعة العلاقة بين طرفي هذه الثنائية فيقرر الكاتب غلبة طرف على آخر وسيطرته المطلقة عليه فهي «ثنائية لا تسوي بين الشطرين ، بل تجعل للشطر الروحاني الأولوية على الشطر المادي ، فهو الذي أو جده ، وهو الذي يسيره ، وهو الذي يحدد أهدافه .»(١٢)

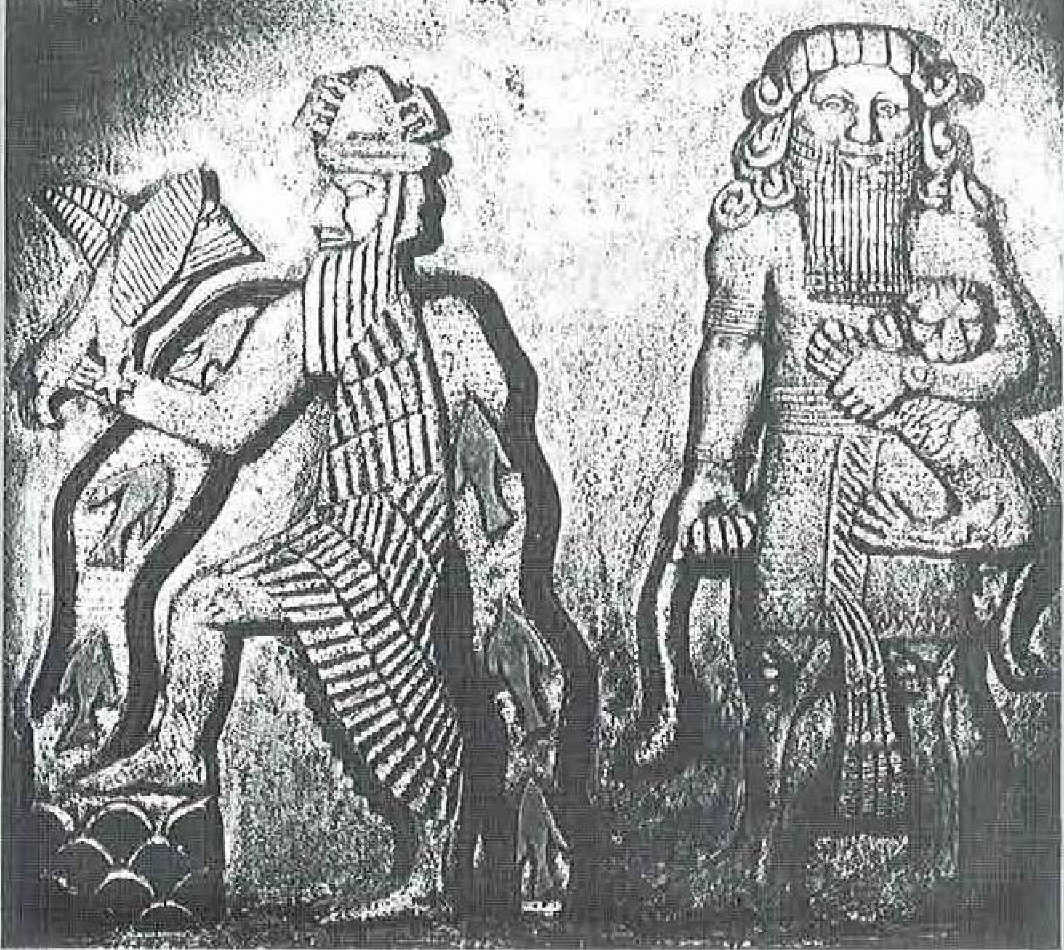
اننا وان كنا نقر مع الدكتور زكي نجيب محمود بوجود هذه الثنائية في فكر الانسان العربي ووجوده وبسيطرتها عليهما منذ أقدم العصور ، إلا اننا نرى في نفس الوقت عدم ثبات طبيعة العلاقة بينهما واقتصارها على تلك التفرقة الحادة الواضحة بين عالمين : عالم الكائنات المتناهية ـ أعني الكائنات المقيدة في وجودها بمكان وزمان معينين ، وعالم اللامتناهي ، الذي يتعالى عن أية صفة تحدد له مكاناً أو زماناً(١٣) ، وعلى «أولوية الشطر الروحاني على الشطر المادي» ، لأن طرفي الثنائية ليسا منفصلين كما يبدو بل هما متشاكلان دائما (أي ان الثنائية ذات طبيعة إشكالية أساساً) تعتمد اشكاليتهما على طبيعة العلاقة التي يفرزها الوعي (درجته ونوعه وطبيعته) في كل مرحلة من مراحل تطور المجتمعات العربية زماناً ومكانا ؛ كما انها اشكالية متفاوتة في مفهوم الفرق الاسلامية والفلاسفة والمتصوفين العرب والمسلمين ، فهي ذات طبيعة تقابلية عند المسلمين الأوائل ، وذات طبيعة عقلانية عند المعتزلة وذات طبيعة اندماجية حلولية عند المتصوفة ، وذات طبيعة اجتماعية

عند القرامطة ، وذات طبيعة باطنية عند بعض الفرق والمذاهب الاسلامية الأخرى .

ان هذه العلاقة ذات الطابع الاشكالي الحي المتغير بين طرفي الثنائية هي ما جعل المؤلف يزعم في ثقة وعمق ان مبدأ الثنائية «ضارب بجذوره الى أعماقنا الثقافية» . وهي ما جعلته يفرع عن ذلك نظرات متعددة في الاجتماع والأخلاق والدين والفلسفة والفن والمعرفة(١٤) . إضافة الى ان الاشكالية الحيوية هذه التي يمتاز بها مبدأ الثنائية ، جعلته عنصراً متطوراً متحولا في مختلف جوانب الحياة العربية الثقافية والسياسية والاجتماعية .. الخ وقادراً في الوقت نفسه ، بسبب اشكاليته لا غير ، على تجسيد مستويات الوعي التي تحكم العلاقة بين طرفيه والتي تنكشف من خلالها أيضا درجة ذلك الوعي وطبيعته الاشكالية التي ينبغي ان تكون نتاجاً طبيعياً لاشكاليات العصر المحيط وتنوعها ودرجة تأثيرها فيه وتأثرها به . من هنا يتكشف منهج المؤلف التوفيقي ونزعته المثالية التي تؤمن بأنه لا مندوحة لنا عن ان نزيل التعارض القائم اليوم في أرجاء الدنيا جميعا بين العلم الذي يتقدم بخطوات كخطوات الجبابرة ، وقيمة الانسان التي تنهار بوثبات كوثبات الشياطين(١٥) . لكون ذلك «التعارض القائم اليوم» يمثل أبرز سمات العلاقة الاشكالية بين طرفي الثنائية في هذه المرحلة بالذات من تاريخ الانسان العربي التي تتميز بحدة صراعها ، حيث يكون العلم وأدواته وفوائده حكراً على طبقة دون أخرى .

أولاً : صورة المثال

نعني بالمثال مجموع القيم العليا والخصائص النفسية والفكرية والسلوكية المستقرة ، الثابتة ، نوعا ما ، والمترسبة في قاع تجربة الانسان وذاكرته الأولى . ونحن لا نفهم هذه القيم والخصائص ، هنا ، فهما أفلاطونيا أو مثاليا ، ولا حتى فهما فرويدياً ، وان كنا لا نستبعد عن فهمنا لها منجزات علم النفس الحديث خاصة عند يونج وأدلر ؛ بل نفهم (المثال) فهما مادياً تاريخياً منتزعاً من طبيعة حركة المجتمع الانساني ونضال الانسان اليومي منذ فجر تاريخه وسعيه الدؤوب لخلق مجتمع فاضل . ومهما يكن في هذا التطلع الحلمي من بعد طوباوي واضح هو جزء لا يتجزأ من كيان الانسان وتركيبته في كل زمان ومكان ، الا ان



تفسيره ، بالنسبة الينا على الأقل ، ينبغي ان يظل مربوطا بحركة الواقع التاريخية التي تنتج خصائص (المثال) الثابتة وتتكيف في نفس الوقت بها . حيث دائماً يعدل الانسان من سلوكه ليتناسب مع صورة المثال وليضيف الى تلك الصورة بسلوكه ونزوعه الجديد ملامح اضافية تزيد من غناه وصلابته ، فليس «المثل الأعلى» عالماً سرياً أو حقيقة غامضة» ينزع نحوها الشعور الخلقي نزوعاً صوفياً أو شبه صوفي ، بل هو حقيقة اجتماعية مشتقة من صميم الواقع ، وان كانت في الوقت نفسه تعلو عليه(١٦) .

ان صورة المثال وان كانت تمثل خلاصة صافية لحركة الواقع وقوانينه «وليست مجرد تصورات عقلية

وضع ديلمون كمركز ديني..
كان الاساس في نشأتها كمركز تجاري

باردة ، أو تأملات فكرية عقيمة ، بل هي عناصر فعالة محركة ، تكمن من ورائها قوى حقيقية مؤثرة»(١٧) ، الا ان هذه الصورة نظرا لغناها واكتنازها وكثافتها الشديدة ومركزيتها في حياة الانسان وتنوع مصادر تكوينها وبعدها الثاوي في قاع الذاكرة الانسانية وتشوقها المستمر الى أفق الحلم والمستقبل ؛ نظراً لكل ذلك وغيره غدت صورة المثال عرضة لاختلافات متباينة في وجهات النظر والتفسير منذ ان غذاها الانسان الأول بتصوراته الساذجة وتأملاته الفجة إزاء الكون والطبيعة التي وجد نفسه أمامها في صرع لم يهدأ حتى اليوم والى عصرنا الحاضر؛ حيث ساهمت الفلسفة والمعارف الأخرى بصورة مستمرة وفي كل المراحل في تغذية صورة المثال ورفدها بخصائص هذا المجتمع أو ذاك دون ان يستغنى الانسان في أي مجتمع وفي أي مرحلة عن المساهمة في صياغة صورة لـ «مثال» . «وإذا كان من المستحيل على الانسان ان يستغنى عن تصور بعض المثل العليا ، فذلك لأنه في صميمه كائن اجتماعي ، ومعنى هذا ان المجتمع هو الذي يدفع الفرد دفعاً لأن يعلو على نفسه ، وهو الذي يلزمه الزاماً بأن يحقق ضرباً من التسامي الخلقي(١٨) .

وهذا نفسه ما يجعل «الفنون تمثل أحد أهم تأملات الحضارة المنتمية اليها» ، كما يجعل «الحقيقة والاعتقاد لفنون حضارة ما ينبعان في الغالب من المثاليات الفكرية لها»(١٩) .

ويرجع غنى صورة المثال وثرائه وسائر المميزات التي ذكرناها ، الى تلك البؤر المكثفة من الاشكاليات الثنائية الكامنة في ثناياها والمنطوية عليها بصورة مدهشة تجعل منها نموذجا اختزالياً فريداً لاشكاليات الواقع ، كما تجعل منها ، في نفس الوقت ، بوتقة تنصهر فيها كافة تلك الاشكاليات وفعالياتها مكونة السمة العامة ومميزات الأنا الاجتماعية المشتركة في بعديها الادراكي والشعوري . ولذا فإن الأنا الاجتماعية بدورها ليست مبنية من مادة مثالية ، بل من العواطف الحقيقية الملموسة والمطامح التي يمر الانسان بتجربتها من خلال حياته في مجتمع حقيقي ملموس(٢٠) .

وهكذا يجد الانسان نفسه ، وهو كائن اجتماعي يعيش في اطار من

التعاون بالضرورة ، محاصرا بمثاله الذي صنعه ونسجه حوله ليسجن فيه ، تماماً كدودة القز التي لا تتوقف عن صنع سجونها وهدمها . وبهذه الطريقة العملية وحدها في الهدم والبناء المتصل يمتلك الانسان بوعيه وليس بغريزتـه فحسب ، حريتـه الحقيقية . ولكن بعد ان أصبحت الأنا الاجتماعية العليا قانوناً صلباً أو شرطاً من شروط تحققها ، كما ان اكتساب هذه الحرية من خلال العمل وتحقيقها المستمر عبر الهدم والبناء هما عبارة عن تصليب مستمر لصورة المثال أو الأنا العليا . وهنا تكمن اشكالية المثال والواقع القائمة على الجدل المتصل بين طرفي الثنائية . ولذلك أخذت العلوم التطورية الحديثة ، خاصة علم النفس ، على عاتقها مهمة التصدي لصلابة (المثال) وتحجره ، وذلك بربطه دائما بحياة الفرد والمجتمع ، إذ غدا من أحد أهداف التحليل الرئيسية ان يعيد الحياة الى هذا القانون الديكتاتوري ، والمصاب بالتحجر ، الذي يعبر عن حالة متحجرة الى الأبد ، لا عن دينامية[٢١]

ويصدر هذا الموقف التحليلنفسي عن اقتناع عملي تجريبي بضرورة بقاء صورة المثال حية لا تموت ، غنية متدفقة بالحيوية والثراء لا تنضب ، وذلك لما لوجودها في حياة الانسان من خطورة وأهمية حاسمة في توازن حياته الاجتماعية وتقرير مصيره الوجودي ، ولهذا اعتبرها التحليل النفسي الحديث بمثابة الأنا العليا أو القانون أو حتى «الإله» . يقول جامون : «والحال اننا نزاعون بفضل سيرورة غريبة ، لأننا نخشى بصورة غريزية تلك المغامرة الكبيرة ، مغامرة الحياة الى أن نجعل من هذا القانون ، على نحو مستمر ، ضرباً من الوجود الغامض جداً ، الذي نجعل موقعه فوقنا ، في البعيد ، والذي ينتهي ، في آخر المطاف ، الى ان يتوحد بالإله . وعندئذ انما يبدل القانون أيضا من تصريف الفعل ، فيتخلى عن المضارع ، ويتبنى صيغة الأمر : «ينبغي عليك» . وبدلاً من ان يبقى القانون وسيلة (ضرورية) ليدخلنا في كثافة الواقعي كلها وفي متطلباته ، وبدلاً من ان يبقى دعوة لكي نتلاءم باستمرار مع هذا الواقعي الذي يتصف دائما بأنه غير متوقع وسيّال ، فإنه يصبح قاعدة الواقع عوضاً عن ان يكون تعبيراً متواضعاً عنه[٢٢] .

وتكشف هذه النظرة التحليلية لصورة المثال عن خاصية جديدة ناصعة من خصائص تلك الاشكالية بين الواقع والمثال . وهي اشكالية الثبات والتغير أو السكون والحركة التي تكمن في سياق كل منهما على حدة وفي طبيعة العلاقة الجدلية بينهما . ان «المثال» ، في إطار هذا المفهوم ، يعني ، إذن ، انه مخزن «سكوني» لمجمل حركة الواقع ، وذاكرة اختزالية لما كان فيه وما سيكون ، مكتنزة بالخبرات والتجارب والأحلام التي هي أساسا أصداء لردود فعل واقعية ، حيث «تمهد الأحلام الطريق

أمام الفعل ، فعلى الانسان ان يحلم أولاً بالممكن قبل ان يستطيع فعله(٢٣) . ان المثال ، وفقاً لذلك ، هو بمثابة نقطة الارتكاز الثابتة في وسط دائرة المحيط الواقعي ، النقطة السكونية المستقرة في مكانها ، ولكن المركزية أيضا والتي بدونها لا تكون الدائرة ولا حركة المحيط ، وكأنما هذه الحركة تنبثق منها وتتمحور حولها وتصب فيها . وذلك لأنها موجودة في كل نقطة أو حركة أو اتجاه للمحيط على الرغم من ثباتها ، كنقطة مركز ، في مكانها لا تحيد .

ورغم هذه القوة المركزية الثابتة التي يتمتع بها وجود المثال في التجربة الانسانية الحية ، فإننا لن نسمح لأنفسنا بأن نسقط في وهدة اعتبارها «تلك القوة الصرفة في الفكر أو الروح» وما لها من قيمة لا تدفع ، تلك القوى المتجلية و «العقلانية» والتي هي من تلقاء ذلك معتبرة بمثابة الينبوع الذي تشرب منه كل تسلسلات الكشف ،



الشاعر الدّيلموني القديم يتنبّأ

فلتصبح ديلمون ميناء للعالم كله

وانطلاقاً منها كل الطرائق الذاهبة الجائية بين المثال والواقع . وكذلك النتائج المترتبة على كل أولئك[٢٤] . وذلك لأن مثل هذه الرؤية «المثالية» من شأنها أن تجعل من «المثال» شيئا معبودا على المستوى الايماني الديني فتعزله من ثم عن سياق حركة الواقع التي تنتجه وتغذي وجوده باستمرار . وهي حقيقة لا مناص من الاعتراف بها حتى في ذلك الحيز الضيق من الاعتبار الايماني المحض ، حيث يفرض الواقع نفسه حتى وان كان مصعداً في صورة مثال أو إله ، إذ تعترف هذه الرؤية المثالية بذلك حين تصرح «وعلى الرغم من اننا لا نعتقد ، كما يفعل الماديون ، ان وجود كل منا يرتد الى أعمال تتوالى وتتتابع في سياقها الزماني والمكاني ، فمما لا مراء فيه ان طبيعة نشاط المرء والبيئة التي يمارس فيها ذلك النشاط هي شؤون أو مسائل قناعة ويقين مستولية على حياته ومن مقومات هويته الى حد بعيد[٢٥] .

وليس غريباً بعد ذلك ، ورغم اعترافها بوطأة حركة الواقع ، ان تتردى تلك النزعة المثالية في هوة العمى الاشكالي التام والخلط الكامل بين المتناقضات التي ألزمنا أنفسنا منذ البداية بتجنبها ، حين يقودها التحليل - تحليلها - الى أمر جوهري كما يسميه المؤلف وهو «انه لا تعارض بين المعرفة العلمية والايمان بالدين» . وليس ذلك فحسب بل نجد صورة المثال المؤطرة بالنزعة الروحية تتحول الى قوة طاغية مسيطرة ، حيث تغدو أمامها «المادية ليست بالنزعة العلمية ، فالعلم لا يوصف بكونه مادياً» كما ان النزعة الروحية «ليست بالتي هي على حال الأزمة ، ولكن النزعة المادية إياها هي التي الى تهافت» وهكذا إذن لا مفر من أنه أمام انهيار هذه النزعة ينبغي للنزعة الروحية ان تستعد لاشعاع متزايد وان تضطلع بمهام جديدة[٢٦] .

ان هذه النزعة الروحية المثالية تضفي على صورة المثال المتحركة النامية مع قوانين الواقع رغم ثباتها الظاهري وسكونها البادي ، حالة من الألوهية والثبات المطلق المسيطر على كل حركة سواه ، ومن ثم يغدو هو الحركة الوحيدة المطلقة التي تعني ثباتا مطلقاً . وهنا العمى الميتافيزيقي

التام والحيرة المثالية الصماء التي بمقتضاها تتحول الثنائيات الاشكالية الرئيسية كهذه الاشكاليـة ـ الأم (الواقع والمثال) الى اشكالية مبهمة أول الأمر ، ومن ثم تتحول الى «لا إشكالية» عنـدما ينحسم الصراع الغائم والمبهم لصالح طرف الثبات المطلق المتعالي أبداً .

وهنا فقط يسيطر مـا يدعـوه برجسون «بالأخلاق المغلقـة» على المجتمع الانساني المفتوح [٢٧] وعلى حين ان «الأخلاق المغلقة» تستند الى أوامر مطلقة ، وقوانين صـارمة ، وضرورات اجتمـاعية ، والتـزامات لا شخصية ، نجد ان «الأخـلاق المفتوحة» في صميمها عبارة عن مجموعة من «النداءات» التي يوجهها الى ضمير كل منا «أشخاص» ممتاوزن [٢٨] .

ورغم كل ذلك يبقى للنزعة الروحية دورها المؤثر والحاسم في تغذية صورة المثال بحرارة الوجدان والصـدق العاطفي وخصوصية الانتماء كما يبقى لخصـائص المجتمـع المغلق وأخلاقه مثل ذلك الدور الذي يرسم ملامح خاصة لصورة المثال تتميز بفرادتها وانتمائها البيئي مما يساعد على اعطاء سمـات حية واسعـة وانسانية صادقة لها تنتمي بواسطتها للمجتمـع الانسـاني وأخـلاقـه المفتـوحة ، مـا دام المثل الأعـلى للمجتمع المغلق على نفسه ، هو تهذيب أفراده تهذيباً اجتماعياً صالحـاً يضمن للجماعة أسبـاب التعاون والتآزر [٢٩] . غير ان ذلـك الدور الحاسم لكل من النزعة الروحية والأخلاق المغلقة يجب ألا يجعل من المثال صورة متسربة مسقطة على حركة المجتمع تفرض عليه من فوق أو من أية جهة لتكبله وتوجه حركته حسب مقاييسها ومعطياتها الجاهزة . إذ ينبغي دائماً النظر الى المثال على انه صورة حية نامية مكونة من نسغين حيين تتجذر بواسطتهما في تربة الواقع وعلاقاته وحركته التاريخية ، هما عالم الأدراك المشترك وعالم الشعـور المشترك كمـا يسميهمـا كريستوفر كودويل [٣٠] .

ان درجة الوعي هذه ، بمستوييها الادراكي والشعـوري ، هي التي تحكم ، في الحقيقة ، العلاقة الجدلية النامية بين الواقع والمثال . وهي التي تجعل صورة الواقع تتسم بذات الخصائص من الحيويـة والقدرة المستمرة على التطور . ان تطور الوعي نفسه يحكم تطور العلاقة واشكالياتها المتنامية بما يجعل المثال في خدمة الواقع ، ويجعل الواقع قادراً على خلق مثاله وتنميتـه ، دون ان يتحول أحدهما الى قيد للآخر أو سيف مسلط على رقبته . ان أي فصل من أي نوع بين الواقع والمثال هو فصل تعسفي لا محـــالة . وهو نفسه ما وضع منهجنا ، هنا ، أمـام أول وأبرز اشكالياته النظرية ، كما ألمحنا من قبل . ففي الوقت الذي كنا نؤكد فيه دائماً على ان المثال نتاج ذهني للواقع الانساني ، نجد أنفسنا مضطرين ،

هنا ، لبحث صورة المثال قبل منتجها : الواقع . وذلك لأننا نعتقد في ان «المثال» يشكل مركز الدائرة (الغامضة) في نشأتها رغم وجودها القوي والضروري لأن تكون هناك دائرة ومحيط وواقع . ورغم ان «القانون (الأنا العليا) يصنعه الانسان الذي يبحث عن ذاته» غير ان دور ذلك القانون (المثال) «هو دور رأس باحث طيلة هذه المغامرة المترامية الأطراف ، التي هي تاريخ الانسانية[٣١] أي أنه موجود ، مهما كان وجوده بذرة صغيرة ، في رأس الانسان وأعماقه يوجه حركته فوق أرض الواقع منذ ان بدأ الانسان تاريخه مع بداية أصول الحياة ، الانسان الذي لم يكن سوى ممكن في العصر الجوراسي ، والانسان الذي أصبح محتملاً بظهور القردة ، والانسان الذي ما ان «أبدع» حتى كان عليه ان يخترع بدوره حياته الخاصة : اللغة والنار والأدوات والكتابة ، والانسان الذي ينبغي له في أيامنا هذه أن يخلق المتحد العالمي الكبير ، وربما الكوني .

لقد كانت بذرة المثال الضئيلة ، كنقطة المركز ، تنمو مع نمو تجربة الانسان بل وتساعد على نموها وتدفعها دائما نحو التطور عبر جميع مراحل التجربة الانسانية . «وكان القانون (الأنا العليا)، دائما ، هو الذي يسجل القفزة التي كان الانسان يقفزها الى الأمام» .. غير ان علاقة الجدل بين المثال، رغم هذه القوة التي يختزنها داخل تجربة الانسان ، والواقع يجب ان تظل قائمة ومتصلة بما يكشف عن قوة التجربة الانسانية التي حركت بذرة «القانون» وما له من دور حاسم في قفزات تجربة الانسان قائلا : «ولكن ، إذا كان السير الى الأمام يظل ممكنا ، فذلك على وجه الدقة لأن الانسان ، بالقياس الى هذا القانون ، اغنى بكثير دائما . ويصبح ولاؤنا للقانون خيانة عندما نرغب ، وبفعل السأم والخوف من المغامرة ، في تحنيط هذا القانون (وهذه الأنا العليا) والادعاء بأننا حددنا المطلق» : ويقول في مكان آخر :

«ولكن المهم ليس القانون ، وانما الانسان[٣٢]» وفي ضوء هذه الحقيقة يشكل المجال الأرضي مختبرا للعمليات التي تخطط الالهة لتنفيذها[٣٣]» .

وبعد ، فإنه اذا كان لا بد من ضرورة لكل تلك المقدمة النظرية حول طبيعة المثال وعلاقته بالواقع في اطار تلك الاشكالية الثنائية ، فإن الضرورة تنبع من رغبتنا في التأكيد منذ البداية على اهمية هذه الاشكالية الأم التي سوف تتولد عنها ثنائيات اشكالية غير محدودة على طول مسار هذه الدراسة . ومن جهة ثانية تقود تلك الضرورة الى الانتقال المبرر الى الحديث عن طرف الواقع كطرف في اشكالية ثنائية جدلية مع صورة المثال ، حيث يمكن بصورة عملية تطبيقية معرفة حقيقة العناصر المكونة لصورة المثال ومستوياتها الثابتة

والمتحولة ، وذلك من خلال معرفة الواقع نفسه الذي ينتجها باستمرار ويتكيف بموجبها ، كما ذكرنا سابقا .

غير انه توجد هناك نقطة اشكالية، في اعتقادنا، ينبغي الانتهاء منها قبل الشروع في الحديث عن مكونات الواقع ومستوياته التطبيقية على مجتمع البحرين منذ أقدم الأزمان . ان هذه النقطة الاشكالية تتصل بما سوف نطلق عليه منذ الآن «الذاكرة الاسطورية» .. ونعني به كل ما يتصل بالمكونات الاسطورية والخرافية التي ظلت حتى اليوم ترفد الحياة الاجتماعية في البحرين على صعيد كل من بنيتيها التحتية (الشعبية) والفوقية (الثقافية والفنية) دون أي توقف ، ذلك ان الاسطورة تواكب مسيرة الانسان، في ماضيه وفي حاضره وفي مستقبله[٣٤] .

وتبرز اشكالية «الذاكرة الاسطورية» هذه اساسا في صعوبة تحديد موقعها في دائرة المحيط أو تحديد نقطة انبثاقها من الاشكالية الأم بين طرفي الواقع والمثال . فالاسطورة والخرافة كذاكرة شعبية عريقة غائبة ومنقطعة تاريخيا عن حركة الواقع المباشرة (خاصة اساطير تلمون القديمة التي تخللت حضارتها فجوات لم يمكن سدها حتى الآن لربط تاريخها بسياق تاريخ البحرين العام) بحيث يصعب البحث عن نقاط اتصال وتفاعل بين مكونات الذاكرة الاسطورية ومكونات الواقع بشقيه الجغرافي والتاريخي . غير ان هذه الذاكرة رغم ذلك الغياب والانقطاع ، تمثل حضورا دافعا في جوانب كثيرة من الحياة الاجتماعية البحرينية حتى الوقت الراهن ، متخللة في بعض جوانب السلوك الانساني لمجتمع البحرين المعاصر كالايماء والتحية والرقص والغناء واستخدام الأدوات المختلفة والملبس والمأكل ، كما تتخلل بعض جوانب الرؤية والتفكير والنظر الى العالم والكون والمجتمع .. الخ .

وإذا كانت الأساطير حقيقة لا يمكن ان تختفي تماما من كل المجتمعات في كل الأزمنة[٣٥] ، إذ لكل مرحلة اساطيرها الخاصة حتى في عصرنا الحديث ، حيث غدت «التقنية» أبرز أساطيره ، اضافة الى اسطورة «الايديولوجيا» في اعتبار الكثيرين من الدارسين والفلاسفة المعاصرين[٣٦] ، وغير ذلك من الأساطير البارزة والمبطنة ، فإن معنى تلك السيرورة الاسطورية ، ان صح التعبير ، لا بد ان يعود الى قدرة الذاكرة الاسطورية نفسها على التشكل والتحول والتماهي بما يضمن لمكوناتها حضورا مستمرا ، وان كان حضورا غائبا أو خفيا أو متنكرا . فمن منا يمتلك القدرة التامة ، في اطار البحرين نفسها ، على الفصل بين كل هذا الاهتمام الملحوظ عبر التاريخ بالنخلة ، اقتصاديا واجتماعيا ونفسيا وثقافيا وفنيا وبصورة شعبية واسعة ، وبين الهة النخلة (انزك) في الأساطير الدلمونية القديمة . وكذلك الأمر بين الاهتمام بالبحر وبين اله الماء (انكي)

وغير ذلك من الآلهة[٣٧] والعبادات التي عاشت على ارض تلك الجزر (البحرين) منذ أكثر من خمسة آلاف سنة، وشاركت في صياغة اساطير بلاد سومر (خاصة ملحمة جلجامش)[٣٨] وحضارتها وعباداتها. وكل ذلك يمثل مخزن اللاوعي الجمعي للانسان في البحرين على مدى العصور. «واللاوعي الجمعي هو ذلك الأصل المجهول السحيق في قدمه والذي يشكل البداية المنسية لكل ذاكرة والطور السابق على الوعي والذي عنه يصدر الوعي»[٣٩].

إن اشكالية الذاكرة الاسطورية تكمن إذن، في ذلك االحضور الغائب او الغياب الحاضر، على صعيد المكونات الاسطورية وأثرها، كما تكمن في الانقطاع التاريخي على صعيد تاريخ البحرين المتصل، خاصة وان المؤرخين يشيرون الى فترة طويلة من انطفاء صيت الحضارة الدلمونية بعد ازدهارها في المنطقة. وتكمن اخيرا، على صعيد منهجنا في البحث، في تحديد موقعها على مخطط البحث خاصة في سياق جملة الاشكاليات التي تمثل اشكالية الواقع/المثال جذرها المولد.

ان اشكالية الحضور الغائب التي تتسم بها طبيعة الذاكرة الاسطورية، كما ألمحنا، هو ما يمنح عناصرها ومكوناتها والعلاقات بينها تلك الحيوية الملحوظة والقدرة المستمرة على البقاء والتشكل المستمر والتأثير، بما يجعل الاسطورة باقية بقاء الانسان في الحياة. اضافة الى ان لهذه الاشكالية الملتبسة، الطيفية المؤثرة، الحاضرة الغائبة، دورا وظيفيا يغذي باستمرار حيوية الذاكرة الاسطورية ويجعل منها تربة خصبة وجذرا حيا لتوالد مختلف الاشكاليات.

ويتمثل هذا الدور الوظيفي في قيام الذاكرة الاسطورية، بمكوناتها وعلاقاتها بنقل خبرات الواقع وتجاربه كخلاصة جوهرية الى حيز «المثال» لتصوغ منها صورته أو تعدل منها، كما تقوم في نفس الوقت بنقل تلك الخبرات والتجارب في صيغتها الاختزالية المخزونة في الذاكرة الى حيز الواقع السيال ابدا، ليتمثل بها ويتكيف وفق خصائصها الموروثة. كما تقوم الذاكرة الاسطورية اخيرا بذلك الدور التوفيقي والتكييفي المتصل بين حركة الواقع وصورة المثال، وبذلك تؤدي هذه الذاكرة دور ابرة الميزان التي تتأرجح على رأسها، بصورة متوازنة دائما، كفتاه: الواقع والمثال. ولا عجب اذن بعد ذلك، ازاء هذا الدور الوظيفي الذي تلعبه الاسطورة في توازن حياة الانسان ان يعتقد (رولان بارت) بأن «الغاية الوحيدة للاسطورة هي تجميد حركة العالم»[٤٠].

وإذا كان يبدو من «تجميد حركة العالم» ذلك الدور الرجعي الذي تقوم به الاسطورة في المحافظة على «الوضع الراهن كما ينبغي له» كنمط فكري متخلف يجعل النقد الاسطوري

«ينتصب عاريا كجهاز من أجهزة الرجعية البرجوازية» كما يعتقد (بول وست)[٤١] . فإننا نرى ان ذلك «التجميد» ينبغي له ان يكون من قبيل المحافظة على التوازن في اطار ما اسميناه بإشكالية الحضور الغائب (أي الحركة الساكنة) بالنسبة الى الذاكرة الاسطورية . ان انشغال العالم المستمر بالاسطورة ، خاصة في عصرنا المضطرب الراهن ، لدليل على اهمية ذلك الدور الوظيفي (التوازني) الذي ينبغي للاسطورة دائما ان تقوم به ، ذلك لأن «الانشغال بالاسطورة يكشف عن تشوق الى النظام وسط الاندفاعات والتهشمات[٤٢] وهذا هو بالضبط دور الاسطورة «التكييفي» الذي تؤديه في حركة متصلة ذهابا وايابا بين الواقع والمثال ، على مر الأزمنة وتلون اشكال التعبير عن الذاكرة الاسطورية الحية ابدا ، «فإذا تكلم الناس اليوم عن حاجة الشاعر الى اسطورة فمعنى ذلك حاجته الى مشاركة المجتمع[٤٣]» . وسوف تبقى هذه الحاجة قائمة ، كما يبدو ، ما دامت الاسطورة «تعني العنصر المتمم للحقيقة التاريخية أو العلمية» حسب رأي كولردج[٤٤] ما دامت ذات طابع اختزالي مرن متصل بجذور التجربة الانسانية ، ولا يعدم في أي مرحلة من المراحل ان يجد لنفسه من الوسائل التعبيرية ما يبرز خلاله معبرا عن خصائص تلك المرحلة ومضيفا الى طابعه الاختزالي مزيدا من المرونة والطواعية التي تتناسب مع أي اتساع في حركة الواقع . «فإذا كانت الاسطورة القديمة لا تعني اليوم شيئا في نظر الرجل العادي ولا يحس باستجابة لها» فإن الاسطورة عادت اليوم تحيا من جديد حتى اصبح الانسان الحديث يرى ان معرفته متبلورة من هذه الأساطير القديمة[٤٥] وهذا ما عناه مرسيا الياد من ان «الاسطورة تجعل العالم منفتحا»[٤٦] على الرغم من ان «خصيصة التصور الاسطوري ان يكون محكما وموحدا الى درجة الانغلاق[٤٧]» .

ويبقى للذاكرة الاسطورية بعد كل ذلك ، دور وظيفي اخر «متشاكل» مع ما سبق ومتفرع عنه ويصب في نفس الوقت ، هو ما تقوم به من وظيفة «اشكالية» بين طرفي ثنائية الواقع المتمثلين في الجغرافيا (كتاريخ ساكن متجمد من جهةو التاريخ كجغرافيا سائلة متحركة) من جهة مقابلة . ونرجىء الحديث عن هذه الوظيفة الاشكالية الى مكانها من البحث عند الحديث عن «الواقع» ، كما اننا سنلتقي بوظائف اخرى متجددة للاسطورة في أبعاد ومستويات مختلفة من هذه الدراسة ، نرجىء الحديث عن كل منها الى مكانه من سياق البحث .

ويجدر الآن ان نتعرض تطبيقيا لاسطورة دلمون (أو البحرين حديثا) وما تقوم به من وظيفة اشكالية بين طرفي ثنائية الواقع والمثال ، ممهدين الطريق للحديث عن «الواقع» بعد ذلك .

وحين نستخلص ما ذكرناه من تفاصيل حول طبيعة هذه الوظيفة الاشكالية نجد ان الذاكرة الاسطورية تقوم بثلاث عمليات متلابسة ومتشابكة ضمن تلك الوظيفة نفسها. العملية الأولى انها تقوم بدور الطاقة الايجابية (الادراكية والشعورية) الواعية والمنظمة في تزويد الواقع بالحلم أو بصورة المثال المختزلة والمخزونة من تجارب الواقع نفسها مما يدفع حركة الواقع خطوة أو خطوات الى الامام (ايجابيا) وفق خصائص صورة المثال ذاتها. اما العملية الثانية فتتمثل فيما تقوم به هذه الطاقة (سلبيا) من دور مقابل يعتمد على عنصر التلقي والأخذ والقبول من حركة الواقع وقفزاته الأمامية بما يجبر تلك الطاقة السالبة على التكيف والتوافق مع تلك الحركة ويعبر عنها في أبرز دوراتها ومراحلها المكتملة وذلك في صيغة اقرب الى الثبات النسبي والسكون الظاهر هي «صورة المثال». وأخيرا فإن العملية الثالثة هي حوصلة العمليتين السابقتين وناتج جمعهما في نسق تأليفي محسوس يضيف الى حاصل الجمع نفسه شيئا جديدا هو «الاسطورة» ذاتها كنص مادي «يتشاكل» فيه كل من الواقع والمثال، بدفع من طاقة «الخيال» الخلاقة.

ومن الضروري هنا، ان نذكر قبل كل شيء، بأننا حين نتحدث عن هذه الوظيفة الاشكالية ذات الأبعاد الثلاثة التي تؤديها الذاكرة الاسطورية، فإننا نضع في اعتبارنا كون الاسطورة، أساسا، تمثلا ذهنيا يعبر عن واقع اجتماعي أو جماعي مشترك بالضرورة يؤدي فيه الفرد دور الجزء بالنسبة الى الكل ولكنه الجزء الفعال القادر على تجاوز فرديته دائما كما يقول لوسيان غولدمان[٤٨]. وهذه اشكالية اخرى بين الفرد والجماعة تكمن في تركيب الوظيفة الاسطورية نرجىء الحديث عنها، كما قلنا، الى مكانها من سياق البحث. واننا حين نستخدم مصطلح «الواقع» ازاء المثال أو غيره من المعطيات والتمثلات، فإننا نعني به دائما هذه الروح الجماعية النابعة من فعالية «الفرد المتجاوز لفرديته» لتحقيق اهداف الجماعة ضمن شروط الزمان والمكان التي تحياها، كما سوف نفصل القول فيه عند تعرضنا لموضوعه «الواقع».

اما الآن فيكفي ان نشير الى الحقيقة الاجتماعية التي تقف من وراء وظيفة الذاكرة الاسطورية بمختلف ادوارها التي ذكرناها، تلك الحقيقة المعتمدة على «تعاون» الفرد مع الجماعة، كشرط ضروري لمواجهة «الواقع» في صورته الطبيعية الأولى (صراع الانسان مع الطبيعة) من اجل تجسيد صورة المثال وتفتيق نواتها المستكنه في الطبيعة البشرية «الاجتماعية التعاونية» حيث «الناس يشاركون في صنع واحدهم الآخر»[٤٩]، وانتزاع تلك الصورة المتنامية من حركة الواقع عينها، بحيث «يتشاكل» (الواقع والمثال) في

علاقة جدلية قادرة على جعل كل منهما يخلق الآخر وينميه ، ما دامت التجربة الاجتماعية مستمرة وقائمة وما دامت التجربة العملية للناس تتناقض مع وعي الناس المفترض مسبقا وتتطلب تعديله[٥٠] وهو ما يجعل الواقع والمثال في جدل مستمر واشكالية قائمة حية مولدة بلا انقطاع . وأكثر من ذلك فإن «التاريخ الثقافي، وخاصة تاريخ الموضوعات الأدبية والفنية ، وتاريخ الاساليب والأشكال يبرز جدلية حركية اذا أمكن القول ، خاضعة للوظيفة الحيوية نفسها في مجتمع ما ، وخاضعة لاعادة التوازن» .

أسطورة ديلمون بين الواقع والمثال "فكرة الخلود"

يذكر فراس السواح في ترجمته وتقديمه لملحمة جلجامش ان «ارض دلمون[٥١] ، هي جنة الخالدين ، في الملحمة البابلية . يسكن فيها أوتنابشتيم وزوجته . وملحمة جلجامش لا تعطينا كثيرا من التفاصيل حول هذا المكان ، ولكننا نستطيع أخذ فكرة كاملة عنه ، من اسطورة سومرية قديمة . تقول الاسطورة: «ارض دلمون، مكان طاهر . ارض دلمون مكان نظيف. أرض دلمون مكان مضيء . في ارض دلمون، لا تنعق الغربان، ولا تصرخ الشوحة صراخها المعهود. حيث الأسد لا يفترس احدا ، ولا الذئب ينقض على الحمل ، ولا الكلب المتوحش على الجدي ، ولا الخنزير البري يلتهم الزرع .. حيث لا يعرف احد رمد العين ، ولا يعرف أحد آلام الرأس . حيث لا يشتكي الرجل من الشيخوخة ، ولا الرجل من العجز». ومن الملحمة نعرف ايضا ان مكان ارض دلمون يقع عند فم الأنهار . فبعد ان ينتهي الطوفان تأخذ الآلهة أوتنابشتيم فتسكنه حيث فم الأنهار :

«ما كنت قبل اليوم إلا بشرا فانيا .

ولكنك وزوجك ، منذ الآن، ستغدوان مثلنا خالدين .

وفي القاصي البعيد عند فم الانهار ستعيشان[٥٢]» .

وقد أثبت السير هنري رولنسن عام ١٨٦١ ان جزيرة البحرين هي نفسها بلاد دلمون الوارد ذكرها في الكتابات السومرية والبابلية[٥٣]. وان اثبتت الكشوفات الأثرية فيما بعد امتداد حضارة دلمون الى ما هو ابعد من جزيرة البحرين ، بحيث يرجح ان تكون قد غطت الساحل الغربي من الخليج العربي كله ، إلا انه رغم ذلك ظل لتلك الجزيرة المعزولة في البحر تميزها الملحوظ في اطار الحضارة الدلمونية على جميع المستويات مما سوف نتطرق له في مكانه من البحث ، وخاصة مستوى التعبير عن فكرة

الخلود ، وهذا ما يعنينا الآن ، التي كانت مسيطرة بصورة ملحوظة على تلك الحضارة العريقة واساطيرها ونمط تفكيرها ومختلف طرائق السلوك والعبادة والحياة فيها .

ان فكرة الخلود وتحدي سطوة الموت والصراع معه والتحايل عليه هي المحرك الرئيسي كما يبدو لمجريات ملحمة جلجامش السومرية وأحداثها وشخـوصهـا وبـعض عنـاصر تكوينها(٥٤) اضافة الى انها مدار الصراع في الملحمة بين الآلهة من جهة وأنصاف الآلهة وعناصر الطبيعة من جهـة ثانيـة !! وقصة الفيضـان السومرية تصور بلاد دلمون كأرض الفردوس وموطن أهل النعيم ، وتحدد تلك النصوص وبشكل واضح سمات دلمون الفردوسية»(٥٥) .

وإذا كانت فكرة الخلود هي حقا محـور ملحمة جلجمـاش وقصـة الطوفان السومرية ، وان (دلمون) هي حقـاً موطن الخلـود ذو السمات الفـردوسيـة «حيـث تطلـع الشمس»(٥٦) ، فـإن تحقيق ذلك النزوع ، كما يبدو من سياق كل من الملحمة والقصة ، لم يكن بالأمر الهين ، بالنسبة الى غير الآلهة من البشر العاديين ، وحتى انصاف البشر وأنصاف الآلهة مثل جلجامش نفسه ، «فخلود اوتنابشتيم ، حدث مستثنى لن يتكرر»(٥٧) ووصول جلجامش ، وهو البطل المشهود له في الملحمة بالمعرفة والحكمة (ص ١١) ويتصف بتكوين جسدي خارق ، الى أرض دلمون لم يكن إلا بعد أن مرّ هو ودليله (ملاح اوتنابشتيم) بمختلف ضروب الاختبار والأهوال والعقبات . بعد أن «أبحرا معاً وقطعا بعد كفاح شرس مياه الموت المانعة لأرض دلمون ، مياه لم يجتزها قبل ، سوى الآلهة»(٥٨) ورغم ذلك يعود البطل خائبا من حيث أتى رغم انه أمسك الخلود بيديه وكاد يقبض عليه الى الأبد لولا أن الحية أحد عناصر الطبيعة الحية سرقت منه زهرة الخلود الى نفسها ، أخيراً .

وكـذلك الأمـر بالنسبـة للملك (زوسودرا) في قصة الطوفان ، فإنه لم يتمكن من الوصول الى «جبل العبور ، جبل دلمون ، حيث تطلع الشمس»(٥٩) إلا بعد أن «سجد» ذليلاً ، خاضعا أمام الآلهين (آن وإنليل) «فمنحاه حياة كحياة الآلهة ، وجاءا له بأنفاس خالدة كأنفاس الآلهـة»(٦٠) حتى اوتنابشتيم نفسه لم يصل الى أرض الخلود إلا بعد أن سلم من الطوفان الذي أعد له عدته عملاً بأوامر الآلهة ، إذ «صدع الرجل بما أمر ، بنى سفينة عظيمة ، زودها بالمؤن وكل ما يلزم ، حتى إذا حم القضاء ، حمل فيها كما أوحى له من كل زوجين اثنين ، فجرت بهم في موج كالجبال ستة أيام وسبع ليال . في اليوم السابع ، فتح النافذة ونظر الى المياه ، كان الهدوء شاملاً ، وقد عاد البشر الى الطين الذي منه قد خلقوا ! سُرَّ الآلهة باستمرار الحياة ، ندموا على ما قدمت أيديهم ، أنعموا عـلى اوتنابشتيم بالحياة الخالدة مع زوجه ، في أرض دلمون ، جنة الخلود(٦١) .

ان ما يعنينا من كل ذلك هو تأرجح فكرة الخلود كحاجة نفسية وفكرية في الذاكرة الاسطورية إبان مغامرة الانسان الاولى تلك ، بين حركة الواقع ومعطياته (وان كانت عناصر الطبيعة تلعب الدور الأكبر في تلك المعطيات حينها) وبين تشكل صورة المثال متفتقة من نواتها الأولى المخزونة في طبيعة الانسان البيولوجية والفسيولوجية ونعني بها تجربة «الموت» . إذ ان أشكالية الموت والحياة هي المكون الخفي الأول ، كما يبدو ، الذي تفتح عليه وعبره وعي الانسان ووجدانه منذ فجر الخليقة ، كما سبق وان تفتحت عليه بنيته الجسدية (من هدم وبناء مستمر في الخلايا) والعصبية المتصلة بالمخ ، حيث غدا معروفا بخصوص علم الحياة كما يرى جاكوب مثلاً «ان العضوية ليست قط الا تحولاً ، أي مرحلة بين ما كان وبين ما سوف يكون(٦٢) واعادة الانتاج بيولوجيا هي ، بمعنى ما ، عملية «اكتمال» Complimentation مثلها مثل التجدد ، إذ انها انتاج ما لا يوجد أو ما قد هدم(٦٣) .

إن فكرة الخلود إذن هي أنضج تمثل ذهني حضاري لمضمون الاشكالية الثنائية - الجذر التي عاشها الانسان وخبرها وعاناها وأدركها وانفعل بها وحاول ان لا يقف إزاءها منفعلاً بل يتحول الى فاعل . وقد كان هذا هو موقف الانسان منذ مرحلة الصيد عند انسان الكهوف البدائي ، في صراعه مع الطبيعة من أجل البقاء ، وذلك برسم طرائده من الحيوانات على جدران الكهوف المظلمة وهي في حالة استسلام وخضوع لقوته ، متمثلاً بذلك اصطيادها ، فنياً : وذهنياً ونفسياً ، أي رسم صورة أولية للمثال الذي يجب أن يكون عليها الواقع وهو بذلك يمهد له بالفعل ، قبل اصطيادها على أرض الواقع .

إن فكرة الخلود وان كانت اكثر نضجاً واكتمالاً وتحضراً في تمثلها الذهني المستمد من واقع ، والمؤدية الى واقع ، أكثر تطوراً وتعقيداً ، إلا أنها تشكل امتداداً لطبيعة تجربة الانسان الاجتماعية في صراعه مع الواقع الطبيعي وما وراء الطبيعي .

إن ما جعل بطل أوروك (جلجامش) يفكر في الخلود ويحلم به ويسعى بكل قوته للبحث عنه ، هو موت صديقه ونده (انكيدو) الذي كان عدوه قبل ان يتحضر (كان وحشاً) .

إن «جلجامش ، وحيداً ومتفرداً يبحث عن الخلود - رأى جثث الموتى طافية في النهر ، فشعر أنه لا يستطيع تقبل هذا المصير التافه»(٦٤) . إذن ، فلقد حفزت واقعت الموت الانسان على ان يتحداها ، وان كان يعرف بأن الموت شرط طبيعي ، ويفكر في نقيضها : الحياة . وهنا تتولد اشكالية ثنائية طرفاها الموت والحياة يحاول الانسان تخطيها أيضاً حين يحلم بالخلود . وما جعلنا نهتم بفكرة الخلود بالذات ليس كونها محور

الملحمة الاسطورية الخاصة بتلك المنطقة التي تكون البحرين (أو دلمون) جزءاً منها فحسب ، بل لأن (دلمون) هي موطن ذلك الخلود ، أي المكان الذي تتجسد فيه الفكرة والمثال ويتحقق الحلم ، وكأنما هو الهدف والرؤيا اللذان تسعى الملحمة في اندفاعها الدرامي المتوتر الى تحقيقهما ، بحيث تكون (دلمون) تعبيراً مادياً محسوساً للمكان الذي ينهض فيه المثال واقعاً وينتصب الحلم حقيقة . وهناك فقط تنتصر الحياة على الموت وتنتفي الثنائية واشكالية طرفيها ، حيث يسود المطلق ، الثابت أبداً ، ويتطابق النقيضان : الموت والحياة ، فلا تشاكل بينهما ولا إشكال ، بل اتحاد مطلق في دائرة واحدة مفرغة اسمها : الخلود . وهذه الدائرة وان بدت تمثلاً ذهنياً محضاً ، أي تصوراً ومثالاً ، غير انها تحولت الى «واقع» مادي ملموس شهدته أرض دلمون «النقية الطهور ، الأرض العذراء ، أرض الصفاء والحبور ، الأرض المشعشعة نوراً» كما تصفها الأسطورة[٦٥] ، وذلك بسبب ايمان الناس العميق وقتها ايماناً عملياً راسخاً بصورة ذلك المثال المتمثلة في فكرة الخلود .

ويمكن ان نستخلص عدداً من الوقائع والمؤشرات الملموسة كدليل واضح على حقيقة ذلك الايمان وصورته التطبيقية على أرض دلمون - البحرين المعاصرة ، كمكان لتجسيد المثال . ويمكن ان نقسم تلك الأدلة الى وقائع مادية ، والى مؤشرات نصية ، ويكفي ان نقدم مثالاً واحداً على كل قسم .

إن أوضح دليل مادي يبرز تجسيد فكرة الخلود على أرض دلمون هو مئات الألوف من القبور التي اكتشفت في السنوات الأخيرة في جزيرة البحرين والتي تمثل اكبر مقبرة عرفها التاريخ ، تنتشر على معظم أرض الجزيرة ويدفن فيها من الموتى ما «قد يبلغ عددهم أربعمائة وخمسين الفا»[٦٦] . وتشير ضخامة العدد قياساً الى المساحة المحدودة التي دفن الاموات فيها الى حقيقة يؤكدها علماء الآثار أنفسهم الذين عملوا في التنقيب عن تلك القبور ، وهي «ان هذه القبور تمثل الموتى من أهل المنطقة المقيمين وأيضاً مجموعات من المهاجرين»[٦٧] . وهذا يعني ان تجسيد فكرة الخلود تجسيداً واقعياً قد جعل من (دلمون) منذ ذلك التاريخ المبكر موقعاً استقطابياً ، كما ذكرنا ، على الصعيد الميثولوجي الاسطوري وعلى الصعيد الديني العبادي الذي يدل عليه اكتشاف ثلاثة معابد فوق بعضها البعض تمثل ثلاث مراحل تاريخية من العبادة[٦٨] وبالفعل لا يمكن ان يكتمل تجسيد فكرة الخلود عملياً إلا حين ترتبط تلك المدافن والموتى بعقيدة وعبادات وطقوس يمارسها الناس قبل موتهم ويشيدون لها المعابد ويتصل بها الأحياء ويحافظون عليها . وهذا ما يستدل بالفعل من طريقة تشييد المعابد من

ناحية وطرق دفن الموتى وبناء القبور هندسياً . إذ يشير كل ذلك الى تطور مفهوم تجسيد فكرة الخلود بعد أن تجاوزت عملية الدفن مرحلتها البدائية التي يتم فيها دفن الميت كاملاً الى مرحلة رمزية يتم فيها دفن جزء من جسد الميت أو بعض أعضائه ، إضافة الى شكل القبر الهندسي وما يصاحب الميت من حاجاته .

لذلك يتساءل كارلوفسكي : «إن كانت القبور التي تعلوها العلامات الحجرية وحالات الدفن الجزئية التي تميز المنطقة العربية ، تمثل المرحلة الأولى من عملية الدفن (وهي غالباً من تقاليد البادية) التي تسبق المرحلة النهائية حين يعاد وضع الموتى في القبور الهضبية بالبحرين .

كما انه يلاحظ بصورة متكررة منذ الحفريات الأولى وحتى أحدثها «ان كثيراً من حالات الدفن كانت جزئية ، وهذا يوحي بوضوح ان عمليات الدفن هذه كانت ذات طبيعة ثانوية ، اي أنه بعد مرحلة الدفن الأولى في أماكن أخرى كانت تدفن بقايا جزئية من الميت ، في فترة لاحقة ، في هذه المقابر الهضبية .

أما الشكل المعماري لتلك المعابد والقبور فهو مما يلفت الانتباه حقاً ، بما فيه من تكوينات ذات علاقات رمزية (تشكيلياً) تتصل بتجسيد فكرة الخلود ، كما نعتقد ، من الناحية الفنية ، فأكثر أنواع تلك القبور شيوعاً «يتكون من غرفة مستطيلة مبنية من حجارة خام ومحاطة بجدار حجري دائري» . ان هذه العلاقة التشكيلية بين الخط المستقيم (الداخلي) ويمثله القبر المستطيل المرسوم على شكل هيئة الانسان وقامة جسده ، وبين الدائرة المحيطة بذلك الخط المستقيم والتي ترمز غالباً ، الى المطلق والكوني ، أو الشكل المكتمل التام الذي يحيط بكل شيء ولا يحيط به شيء .. وهو عينه فكرة الخلود ، كما نفهمها على ضوء بعض أبسط المعطيات التشكيلية في فن المعمار العربي القديم[٦٩] ، وحسب شهادات بعض الفنانين التشكيليين العرب المعاصرين[٧٠] ، حول علاقة الخط المستقيم بالخط المنحني من ناحية الدلالة التشكيلية .

إن فكرة الخلود ، إذن ، كهاجس ارتكاسي لغريزة الموت ومحاولة الانسان الهروب من الاحساس به مما ينغص عليه متعة الحياة ، قد وجدت لنفسها تجسيداً قوياً على الصعيد العملي المادي فوق أرض دلمون التي كانت عبر آلاف السنين عبارة عن «مقر المنعم عليهم» كما يصفها كرامر ، يعيشون فيها أحياء ثم يدفنون فيها خالدين مخلدين ، بعد أن أرضوا الآلهة وأقاموا لها الطقوس وشيدوا المعابد . وبذلك عاشت فكرة الخلود على أرض الواقع الذي كرس بدوره وجودها في النفوس وصنع من صورتها الذهنية الواقعية «مثالاً» لا يموت ، بل يعيش مخلداً ، شأنه شأن مضمونه ، قادراً في إشكاليته المبطنة بين الموت والحياة على توليد ما لا نهاية له من

الثنائيات والاشكاليات ، موسعا بذلك من أفقه الاسطوري الخالد ومعمقاً من وظيفة «المثال» وتأثيرها على «الواقع» والعكس بالعكس .

أما الدليل الأدبي الذي يشير الى تجسيد فكرة الخلود عملياً على أرض دلمون ، فهو أحداث ملحمة جلجامش نفسها التي يرى اكثر الدارسين لها بأنها تسجيل ، وان لعب الخيال فيه شوطاً بعيداً ، لعدد من الأحداث التاريخية والأعمال التي قام بها بعض الملوك والأبطال ممن أسبغ الخيال عليهم فيما بعد صفة الألوهية أو غيرها من الأوصاف الدينية أو الخيالية . إذ «جاء في الاسطورة أن زوسودرا ، المذكور في الاسطورة السومرية والذي يمثل «نوح» في الانجيل ، قد انقذته الآلهة من الفيضان الذي أرسلته عقاباً لبني الانسان . وأمام الالهين «أن» و«انليل» منح «زوسودرا» حياة الخلود والإقامة في دلمون[٧١] إذن فإن زوسودرا هذا أو أوتنابشتيم وزوجته هما شخصيتان حقيقيتان آمنتا بفكرة الخلود وعاشا تجسيدها العملي في أرض الخلود (دلمون) بعد أن انقذتهما الآلهة من الطوفان .

وشخصية جلجامش بطل الملحمة نفسه شخصية حقيقية ، «كما ورد أسمه في ثبت ملوك سومر ، كأحد ملوك الأسرة الاولى لمدينة أوروك . مما يدل على أنه ، في الأصل ، شخصية تاريخية ، وجدت وحكمت ردحاً من الزمن ، ثم علقت عليها فيما بعد ، حكايات وأخبار مختلفة»[٧٢] وهذا يرجح أن وصول ملك أوروك الى أرض الخلود (دلمون) طلباً للخلود أمر أقرب الى الواقع ، وان عاد البطل خائباً لم ينل بغيته رغم ما عاناه من أجل ذلك . وربما لم يفشل ، كما يعتقد مترجم ومقدم الملحمة ، لأنه استطاع «ان يسرق لنا سر الحياة ولغز الموت» واكبر دليل على عدم فشله كما يرى المترجم هو انه «لا يزال بين ظهر انينا ، يلسن بكل اللغات الحية التي ترجمت لها ملحمته»[٧٣] .

وهذا يعني ان الخلود الواقعي الذي كان متجسداً في قصة أوتنابشتيم الخالد جد جلجامش «الأكبر» قد تحول بدوره الى «مثال» سيطر على حياة الحفيد البطل فعاش له وبدفع منه بعد ان تمثله تمثلاً ذهنياً تحول البطل نفسه ، بواسطة ذلك التمثل وما رافق حياة البطل من أحداث من أجل تحويل صورته الذهنية الى واقع ، الى واقع حقيقي صيغ صياغة فنية ليعيش عملياً ، «بين ظهرانينا» فكرة الخلود التي سيطرت على صاحبها . وربما كان جلجامش نفسه ببطولاته تلك لم يكن يسعى لأكثر مما حصل له بالفعل ، إذ حقق لنفسه الخلود ، ولكن هذه المرة بيديه هو وجهده وحريته ، لا خضوعاً لأوامر الآلهة ورضا بنعمتها عليه . لقد تمكن جلجامش الذي كان ثلثاه إلهاً وثلثه بشراً أن يغتصب «الخلود» من الآلهة بفعل انساني محض هو صراع الآلهة أنفسهم والحد من سطوة الغيب عليه . وبذلك ينحاز الى ثلثه البشري

وينتصر له لتمتد به الحياة الخالدة على حساب الثلثين الإلهيين المنحسرين .

وإن «انتقال قصة جلجامش من مرحلة الاسطورة الى مرحلة الملحمة عن طريق الوعي الشعبي ، قد نجم عن رغبة الشعب في التعبير عن تمثله وطريقة إدراكه للواقع الذي يتجاوز حدود معرفته»(٧٤) .

وهكذا نرى كيف ان فكرة الخلود ظلت تتذبذب في حركتها الانتقالية جيئة وذهابا بين طرفي ثنائية المثال والواقع ، راسمة بهذه الحركة التوترية المتأرجحة صياغة فنية (نصية) - «هي أطول وأجمل نص شعري ، وجد في بلاد الرافدين . وتعد من روائع الأدب الانساني عبر العصور»(٧٥) .

غير ان فكرة الخلود في اشكاليتها الثنائية تلك لم تكتف بصياغة نص فني هو الملحمة الجلجاميشية التي برزت فيها (دلمون) كواسطة العقد كما يقال ، والتي لولا هذه الملحمة لكان ذكر (أرض الخلود) قد ضاع الى الأبد . كما ان هذه الملحمة الانسانية العظيمة ما كان يمكن ان تكون لولا تلك الأرض التي كانت الملحمة تتوجه نحوها ، كمكان وربما اكثر من مكان ، لتجد فوقها «الخلود» مجسداً .

إن الارتباط الجدلي القائم بين ملحمة الخلود وأرض الخلود تعكس في تشابكها الجدلي الصميم الذي لا يمكن فصمه ، تلك العلاقة ، التي تحدثنا عنها والتي نحن ما زلنا بصددها ، بين الواقع والمثال . خاصة وان «المكان» في مفهوم ذلك الوقت كان الشرط الأساسي في تحقيق صورة المثال وتحويلها الى واقع ، وإن كان جلجامش قد استطاع ان يحرر المثال من قيد «المكان» ويدخله في دائرة «الزمان» التي شملت «المكان» بدورها وخلدته ، كما كشف هو عنه (المكان كشف الزمان) وملأه بعناصر الخلود ومضمونه (عندما هيأ له شخصية مثل جلجامش تحلم بالخلود متحققاً في أرض الخلود ، وعندما لم يتحقق له مكانياً حققه زمانياً) .

لقد قلنا بأن فكرة الخلود لم تكتف بتجسيد مثالها الذهن - واقعي في صياغة فنية تحمل خصائصها الاشكالية الاسطورية هي الملحمة ، بل تعدت تلك الصياغة الفنية الى صياغة واقع البحرين نفسه على الصعيد المادي المتصل بشتى مناحي الحياة من دينية واقتصادية وسياسية وجغرافية وديمغرافية .. الخ . لذلك اعتقد كارلوفسكي : «ان الأمر لم يقتصر على نقل البشر المخلدين الى دلمون ليحصلوا على أنفاس الخلود ، بل تعداه الى مجيء قطاعات مميزة من مجموع السكان في بلاد ما بين النهرين وشمال الجزيرة العربية الى دلمون أرض الفردوس ليدفنوا هناك بقصد الدخول الى الحياة الخالدة في الجنة تحت الأرض . والتفسير الوحيد لوجود المائة وخمسين ألفاً من القبور الهضبية في دلمون هو وجود عقيدة خاصة بدفن الموتى في منطقة مقدسة»(٧٦) .

ألم تكن تلك العقيدة هي التي حركت جلجامش ليبحث عن الخلود «مكانياً» ولما لم يستطع الحصول عليه ، حققه بصورة أخرى جديدة (زمانياً) هي اكثر أصالة وديمومة ولكنها ابنة الصورة الأولى المكانية ؟ لقد كانت علاقة اشكالية متذبذبة ، كما قلنا ، بين طرفي ثنائية الواقع والمثال ، لم تتوقف أو تتجمد متحولة الى واقع فني محسوس ، أي الى حركة من نوع جديد مسيطر عليها في حيز من السكون والثبات الشكلي - الفني ، إلا حينما تحولت تلك الحركة المتذبذبة الى صياغة فنية متجسدة هي : الملحمة . وهذا ما يجعل هذه الملحمة كعمل فني تتفتق عن أفق جديد مغاير من الاشكاليات وثنائياتها المتشاكلة ، وان كانت تعكس في جذورها أصول تلك الحركة الاشكالية المتذبذبة نفسها ، ولكن بصورة متطورة ، بحيث يمثل العمل الفني «خلوداً» ، أي يحقق فكرة الخلود ويجسدها ، ولكن على مستوى مختلف . تماما كما فعل جلجامش في الانتقال من المكانية الى الزمانية . وعلى هذا الاساس فمحاولة جلجامش الحصول على الخلود لم تكن تمرداً على وضع انساني قائم كما هو الحال في كثير من الملاحم الاغريقية ، ولكنها محاولة لاثبات هذا الوضع الانساني القائم من خلال التجربة العملية المثلة في السعي تجاه الحصول على الخلود رغم العلم المسبق باستحالة ذلك»(٧٧) .

وهذا من شأنه ان يعطي لمفهوم الخلود المثالي مدلولاً واقعاً متحققاً وهو «البحث عن وسيلة أخرى يحصل بها الانسان على الخلود والذي يعني خلود الذكر لا خلود الجسد»(٧٨) .

إن واقع البحرين ، أو دلمون ، مدين ، كما هو واضح ، الى فكرة الخلود في مختلف مراحل تطوره القديمة ، والتي دون شك شكلت قاعدة ثابتة تقف عليها مراحل تطور البحرين الحديثة ، بصورة أو بأخرى .

إن الفكرة خلقت من حولها واقعاً يتسم بالشفافية أول الأمر ، ثم يزداد صلابة وكثافة وواقعية ، إنه ينمو من حيز المثال او التمثل الذهني الذي يعبر عن حركة الروح وهواجسها وتذبذبها بين طرفي ثنائية الحياة / الموت ، الى حيز الطقس الديني وعبادة الآلهة وتشييد المعابد وبناء المقابر واعطاء الروح جسداً والمثال تجسداً . وكلما تجسد المثال ازدادت صورته في الذهن توهجاً مما يدفعه الى المزيد من التجسيد الواقعي ، ورسخت قوته في الروح مما يزيد من رسوخه على أرض الواقع .

لذلك تزدحم أرض الخلود ومقره (دلمون) «بالمنعم عليهم» ، فتضيق المساحة الصغيرة المحدودة بالانفجار السكاني الهائل «مجيء قطاعات مميزة من مجموع السكان في بلاد ما بين النهرين وشمال الجزيرة العربية الى دلمون أرض الفردوس» .

كما تصبح أرض الخلود كعبة الحالمين بالخلود تهفو اليها قلوبهم

وأرواحهم قبل ان تحتشد حولها وتطوف وتدفن في تربتها أجسادهم ، فكان أن غدت بذلك قبلة الحجاج ومحط رحالهم ، فانتعشت فيها الحياة ونمت التجارة واغتني الأهلون بها وفرضت الدولة نظاماً لإدارة حركة الحجيج وتصريف شئونهم وضبط معاملاتهم ، وقامت صناعات مزدهرة لبناء المقابر والمعابد وازدادت العناية بفلاحة الأرض وبمحاصيلها والتجارة فيها ، إضافة الى ان دلمون ، كما يستفاد من المراجع المسمارية كالكتابات والرسائل التجارية القديمة ، «كانت موقعاً جغرافياً مميزاً مشاركاً في التجارة العالمية»[٧٩] وهكذا تتحول صورة المثال الشفافة الى واقع مادي غليظ تحكمه قوانين التجارة والاقتصاد والتنظيم الاداري والسياسي ، بعد أن تحولت قبل ذلك الى واقع ديني له مؤسساته وكهنته وقوانينه . يقول كارلوفسكي : «ومن العجب أن لا تكون رحلات الحج طلبا للخلود هي التي جعلت الشهرة العظيمة لدلمون لتصبح مركزاً تجارياً . فأعيان دلمون الذين كانوا يتولون مسئولية تنظيم وتشييد القبور الهضبية وتقديم الخدمات للحجاج القادمين لدفن موتاهم ، كانوا يحصلون على فوائد كبيرة في المعاملات الخارجية والتجارة» . ويضيف «هذا الرأي يزودنا بمعرفة أولية عن الأعراف الاجتماعية والمفاهيم التي وضعت الأساس للدور المميز الذي كانت تلعبه دلمون في مجال التجارة . إن وضع دلمون كمركز ديني لتجمع الحجاج ولدفن الموتى كان الأساس في نشأتها كمركز للتجارة»[٨٠] .

ومن هذا الواقع المادي الغليظ انبثق شعور بالانتماء للانسانية الواسعة ورغبة جامحة في التواصل الحميم معها ، وهو ما غذى صورة المثال بملامح جديدة زاهية عن كونية فكرة الخلود وتعميم الدعوة فيها ، تمثلت في تلك الدعوة الانسانية المنفتحة على العالم بأسره التي أطلقها الشاعر الدلموني القديم : «فلتصبح دلمون ميناء للعالم كله» .

وهكذا ظلت «فكرة الخلود» منذ ما قبل التاريخ ، وربما حتى اليوم ، طاقة روحية وذهنية تتذبذب في حركة من الوعي المتنامي، جيئة وذهابا، بين طرفي الواقع والمثال ، ترفد الواحد بخصائص الآخر ، وتنتزع لنفسها من حاصل جمع الطرفين صياغة جمالية فنية (خيالية محسوسة) تتجاوز حاصل الجمع نفسه ، وذلك باختزان امكانية تطويره وطاقة تفتيقه في توالدات ثنائية اشكالية لا تتوقف تغنيها وتغتني بها . وكأنما هي بذلك تحقق فكرة الخلود من خلال تلك الحركة الجدلية المتشابكة بين الواقع والمثال وصياغتهما الفنية .

وقبل أن نغادر هذه الوقفة حول أسطورة أرض الخلود (دلمون) ، وتأثيرها في صياغة كل من الواقع والمثال والفن ، نجد أنفسنا مضطرين الى طرح سؤال جوهري ذي شقين ، الأول ذو بعد زماني يتصل بمدى

استمرارية فكرة الخلود كطاقة روحية وذهنية في رفد واقع الانسان في البحرين ، ومدى مساهمة هذا الواقع في صياغتها فنياً وفكرياً .

أما الشق الثاني من السؤال فذو بعد مكاني يتصل بسبب الارتباط بين فكرة الخلود ودلمون ـ البحرين كأرض لتحقيق تلك الفكرة . ولماذا كان على (دلمون) بالذات ان تضطلع بذلك الدور الحضاري في المنطقة (الخليج والجزيرة العربية وبلاد الرافدين) لمدة تزيد على الألف عام ؟

واضح ان الشقين مرتبطان ، لأن الاجابة على أي منهما تعني سهولة طريق الاجابة على الشق الآخر . وهو ما سيؤدي بالدراسة ضرورة الى البحث في تركيبة «الواقع» الذي يشكل الطرف الآخر المقابل في الثنائية الاشكالية ـ الأم (الواقع / المثال) . فأمام تركيبة الواقع بوجهيه الجغرافي والتاريخي يمكن فقط معرفة نشاط الذاكرة الاسطورية الخفي والمتحول الى وجوه كثيرة من الانشطة الرمزية والسلوكية واللغوية المعاصرة (عبر تطور الواقع تاريخيا) ، كما يمكن في الوقت نفسه معرفة ثوابت الواقع النسبية التي تتميز بها البيئة الجغرافية لجزيرة البحرين (دلمون قديماً) في المنطقة ، مما أدى بدوره الى تمايز في منتجات هذه البيئة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، كما سنبين . ومما ينبغي التذكير به ، ونحن نشرع في دراسة تركيبة الواقع ، ان الذاكرة الاسطورية لن تبارح درسنا للواقع ، بقدر ما سوف تبدو في عدد كبير من مظاهره وبناه وعناصره ، متخفية كما قلنا ، في اشكال الواقع نفسه الذي هو وجه من وجوه تحقق الطاقة الاسطورية ، كما بينا ، المنبثقة من صورة المثال والذي كان محوره (فكرة الخلود) .

الدكتور علي الهاشمي
جامعة البحرين

الهوامش :

١) التجدد الاجتماعي (المنظومات الحية ـ ثبات ـ وتغير) . انظر (المدخل) ص ٢٠ ، القسم الأول . ترجمة ناجي الدراوشة ، وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٨٢ ـ مترجم عن الفرنسية .

٢) انظر ص٤٥٠ من الفصل العاشر (المستقبلية وعلم الاجتماع الاستباقي) بقلم بيير بيغانيول ، المنشور في كتاب (المجتمع الحديث في أبعاده الاساسية) ج ٢ لمجموعة من المؤلفين . ترجمة وجيه أسعد . وزارة الثقافة ـ مترجم عن الفرنسية ـ دمشق ١٩٨٣ . ط ؟

٣) انظر (في البنيوية التركيبية) ، دراسة في منهج لوسيان غولدمان ، للدكتور جمال شحيد . دار ابن رشد ، بيروت ١٩٨٢ . الطبعة الأولى .

٤) انظر (الألسنية) للدكتور ميشال زكريا (ص ٢٢٥) . بيروت ١٩٨٠ .

٥) انظر فضل (الفكر واللغة) في كتاب (لعبة المعنى) لعلي حرب . ط ١ المركز الثقافي العربي ٢ بيروت ١٩٩١ ، ص ١١٦ .

٦) يعتبر مفهوم الانعكاس الذي ظهر الى الوجود كمصطلح مارسه النقاد على النصوص الأدبية منذ أكثر من مائتي سنة من أهم المصطلحات التي حاولت بعث دم جديد في مفهوم الانعكاس .. كما يرى الاستاذ حسين حزين .
انظر مقالته الموسومة (الأقاويل الشعرية والمرآة من المحاكاة الى التخييل) المنشورة في مجلة (الحياة الثقافية) التونسية عدد ٤٤ أكتوبر ١٩٨٧م .

٧) لعبة المعنى (علي حرب) ص ١٠٨ .
ويذكر المؤلف في فصل (المادة والتفكير)ما يدعم المنطلقات المثالية لجميع الفلسفات كمقولة «من هنا الطابع المثالي لكل الفلسفات ايا كانت تسمياتها ، المثالي بالمعنى الأصلي للكلمة ، أي بالمعنى الذي استعمله افلاطون . وذلك حيث المثل هي عالم الماهيات الثابتة والحقائق المجردة والذوات المتعالية والكليات المطلقة والنماذج الكاملة» ص ١٠٩ .

٨) فن الشعر : هيغل ، ترجمة جورج طرابيشي ، دار القليعة ، بيروت ط ١ ، ١٩٨١ ، ج ١ ص ٣٠ .

٩) تجديد الفكر العربي : د . زكي نجيب محمود : ص ٢٧٢ . دار الشروق ، بيروت ، ط ٧ ، ١٩٨٢ .

١٠) المصدر السابق نفسه ص ٢٧٣ .

١١) نفسه ص ٢٧٤ وفي هذا الاطار يرسم غيورغي غاتشف صورا فاصلة بين العقليتين الشرقية والغربية . ويلاحظ في الأدب العربي والفارسي ، الذي يعتبر بمثابة ادب انتقالي من الحقبة الشرقية الى الحقبة الغربية ، ان هذا التناقض يتجلى في التضاد المطلق بين الشعر ، حيث يسيطر مبدأ المجاز البالغ حد الارهاف ، وبين النثر الذي ليس له أهمية فنية . انظر (الوعي والفن) ترجمة د . نوفل نيوف ، عالم المعرفة ، الكويت ، ط ١ ص ٢٤٦ (١٩٩٠) ص ١٠١ .

١٢) نفسه ص (٢٧٥)

١٣) نفسه ص (٢٨٠)

١٤) نفسه . انظر ص ٢٨٣

١٥) نفسه . ص ٢٨٧

١٦) مشكلة الانسان :د . زكريا ابراهيم ، ص ١٦٨ ، مكتبة مصر ، ط ؟ ، تاريخ ؟

١٧) نفس المصدر ص ١٦٩

١٨) نفسه .

١٩)جماليات الفنون الاسلامية : غازي مكداشي . مجلة (الفكر العربي) معهد الانماء العربي ، بيروت ، عدد ٦٧ يناير/مارس ١٩٩٢

٢٠) الوهم والواقع ص ١٩٥ وانظر كذلك فصل (المادة والفكر) وفصل (المادي والمثالي) في كتاب (لعبة المعنى) لعلي حرب .

٢١) انتصارات التحليل النفسي : بيير داكو ، ترجمة وجيه أسعد ، ص ١٦ ـ المقدمة بقلم جامون وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٨٣ . ط ؟

٢٢) المصدر نفسه ـ المقدمة ص ١٦ .

٢٣) الوهم والواقع ص ١٨٨ .

٢٤) مقالة (أزمة الروح) لإدكارفوز ، ترجمة د . حكمت هاشم ، مجلة (الثقافة العالمية) مجلس الثقافة بالكويت عدد ٧ نوفمبر ١٩٨٢ .

٢٥) المصدر نفسه .

٢٦) كل الاشارات السابقة من المصدر السابق نفسه .

٢٧) المشكلة الخلقية : د . زكريا ابراهيم . انظر الفصل الرابع ص ٩٩ ، مكتبة مصر ، ط ٢ ، ١٩٧٥ .

٢٨) نفس المصدر ص ١٠٩ .

٢٩) المصدر نفسه ص ١٠٣ .

٣٠) انظر (الوهم والواقع) .

٣١) انتصارات التحليل النفسي : المقدمة ص ١٨ .

٣٢) المصدر نفسه ـ المقدمة .

٣٣) هندسة المعنى في السرد الاسطوري الملحمي (جلجامش) للدكتور قاسم المقداد ، دار السؤال ، دمشق ط ١ /١٩٨٤ ، ص ٤ .

٣٤) نفسه ص ٥٢ .

٣٥) يرى ك .ك . راثفين انه «قد يمكن إضعاف الاسطورة ، ولكن يصعب خنق

انفاسها بالكفر بها ، وذلك لأن الاسطورة الناجحة هي تلك التي تحث الناس على ابتداع اسباب أجد وأشهر للإيمان بها ، بعد أن لا تعود الأسباب السابقة صالحة للدفاع عنها» ص ١٠١ انظر كتاب (الاسطورة) ترجمة جعفر صادق الخليلي ، منشورات عويدات ، بيروت ١٩٨١ ، ط ١ .

٣٦) انظر مثلاً كتاب (المجتمع الحديث) تاليف مجموعة من المؤلفين ، ترجمة وهبه أسعد ، جزء ان وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٨٣ . بالتحديد انظر الفصلين عدد ١١ وعدد ١٣ في ج ٢ .

٣٧) انظر مقالة (ألهة دلمون) مجلة (الوثيقة) البحرين .

٣٨) في هذه الملحمة نظرا الى دلمون على انها ارض الخلود . انظر (ملحمة جلجامش) : فراس السواح .

٣٩) لعبة المعنى (فصول في نقد الانسان) علي حرب ص ١٣٣ .

٤٠) انظر كتاب (الاسطورة) لراثفين ص ١٣٥ .

٤١) نفس المصدر ص ١٣٦ .

٤٢) نفسه ص ١٣٦ .

٤٣) فن الشعر : د . إحسان عباس ص١٥٧ ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٥٩ .

٤٤) نفس المصدر .

٤٥) نفسه ص ١٥٨ .

٤٦) انظر الفصل الثامن من كتاب مرسيا الياد (مظاهر الاسطورة) ترجمة نهاد خياطة ، دار كنعان ، ط ١ ، دمشق ١٩٩١ .

٤٧) لعبة المعنى : علي حرب ص ١٢١ .

٤٨) انظر (في البنيوية التركيبية) د . جمال شحيد . منشور فيه فصل مترجم عن كتاب غولدمان) العلوم الانسانية والفلسفة) دار بن رشد ، ط ١ ، ١٩٨٢ ، بيروت ، ص ١٣٠ .

٤٩) الوهم والواقع ص ١٩٦ .

٥٠) نفس المصدر .

٥١) الخيال الرمزي : جيلبير دوران ترجمة علي المصرى . ط ١ ، المؤسسة الجامعية ، بيروت ١٩٩١ ، ص١١٩ .

٥٢) ملحمة جلجامش : ص ٢٣ ـ المقدمة . دار الكلمة للنشر ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٣ .

٥٣) دلمون مدخل الخلود : كارلوفسكي ، ترجمة كامل اللحام ، مجلة (الثقافة العالمية) ، الكويت ، مارس ١٩٩٢ ، عدد ٩ .

٥٤) لمزيد من التفاصيل حول هذه الفكرة يمكن مراجعة الفصلين الخاصين بـ «فكرة الصراع في الأدب السومري» ضمن كتاب بديعة أمين الموسوم (في المعنى والرؤيا) سلسلة دراسات ، دار الرشيد للنشر ، وزارة الثقافة والاعلام ، الجمهورية العراقية ١٩٧٩م كما يمكن مراجعة كتاب الدكتور قاسم المقداد (هندسة المعنى في السرد الاسطوري الملحمي : جلجامش) المشار اليه سابقا ، خاصة الفصل الثاني (علاقات الشخوص) .

٥٥) دلمون مدخل الخلود : كارلوفسكي .
٥٦) مقطع من الاسطورة الدلمونية : نفس المصدر السابق .
٥٧) ملحمة جلجامش : فراس السواح ، المقدمة ص ١٤ .
٥٨) نفس المصدر ص ١٣ .
٥٩) نص الاسطورة . عن مقالة (دلمون مدخل الى الخلود) .
٦٠) نفس المصدر .
٦١) ملحمة جلجامش ص ٧ .
٦٢) التجدد الاجتماعي : إيف باريل ، ترجمة ناجي الدراوشة ، ج ١ ، ص ٦٢ . وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٨٢ .
٦٣) نفسه ص ٤٢ .
٦٤) في المعنى والرؤيا : بديعة امين ص ١٧٣ .
٦٥) انظر (البحرين عبر التاريخ) الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة وعبدالملك الحمر ، وزارة الاعلام ، البحرين ١٩٨٣ .
٦٦) دلمون مدخل الى الخلود .
٦٧) نفسه ـ الهامش . يلخص فيه أراء عدد من المنقبين عن آثار تلك القبور .
٦٨) تسمى معابد باربار . انظر (الوثيقة) .
٦٩) انظر من ذلك مثلاً قول «النظام» عن الحرف العربي (وهو دائما مكون من خطين مستقيم ومنحني) بأنه «أصل الروح» .
٧٠) يلخص فنان عربي تجربته التشكيلية منذ بدايتها حين غرز عينيه في الطبيعة : في الأرض البكر وما يدب عليها ... فوجد أن سفر التكوين يتألف أساساً من خطين : المستقيم والمنحني (القوس والسهم) . وان جمالية التكوين تقوم في التوازن والتناسق ـ بل أيضاً والتنافر المتوازن ـ بين المنحنى والمستقيم في الحركة : عالم بسيط ، أجل لكنه عميق انظر مجلة الأقلام العراقية العدد الخاص بالأدب في البحرين (رسالة بيروت : حوار مع الحرف العربي) ـ رسائل وتقارير .
٧١) دلمون : مدخل الى الخلود .
٧٢) ملحمة جلجامش : فراس السواح ص ١٦ ـ المقدمة .
٧٣) نفسه ـ المقدمة ص ٨ .
٧٤) هندسة المعنى : قاسم المقداد ص ٤٨ .
٧٥) نفسه ـ لماذا هذه الترجمة ؟
٧٦) دلمون : مدخل الى الخلود .
٧٧) الاسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم (دراسة في ملحمة جلجامش) للدكتور محمد خليفة حسن أحمد دار الشئون الثقافية العامة ، ط ١ ، العراق ١٩٨٨ ، ص ١٥٥ .
٧٨) نفسه ص ١٥٦ .
٧٩) دلمون : مدخل الى الخلود .
٨٠) نفسه .

مكانة البحرين في التاريخ الإسلامي

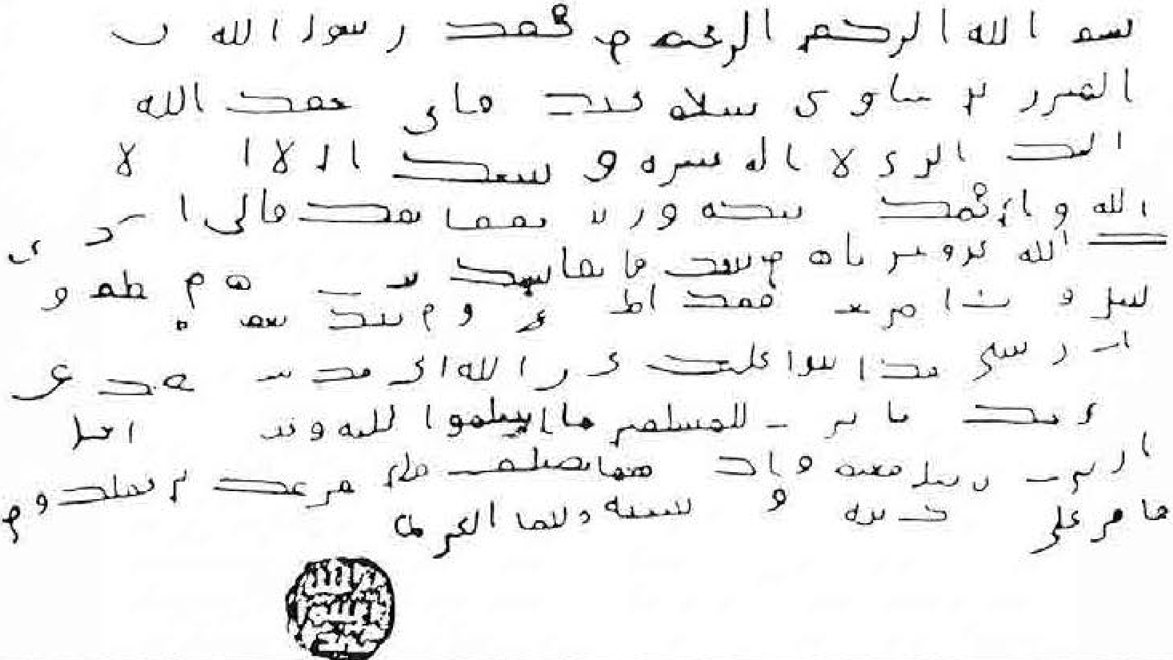
اعداد الدكتور علي اباحسين

لا بد من تحديد (مدلول البحرين عبر التاريخ الاسلامى) و (المصادر التي يستقي الباحث منها تاريخ هذه الفترة) وعلى ضوء ذلك يستنتج (مكانة البحرين في التاريخ الاسلامى) .

فأما تحديد مدلول (البحرين) عبر التاريخ من حيث الزمان والمكان فأمر غير ثابت اطلاقا بل ان ثبوته إنما هو ثبوت نسبى سواء من حيث الرقعه الجغرافية الدالة عليه او تحديد الزمان الذي بدأت او انتهت فيه التسميات خاصة وان الدول القديمه كانت لها مناطق نفوذ حضارية وكثيرا ما يطغى اسم

رسالة الرسول (ص) إلى والى البحرين

أرسلها مع العلاء بن الحضرمي ٨هـ / ٦٣٠م



رسالة الرسول ﷺ إلى والي البحرين المنذر بن ساوى سنة ٨هـ/ ٦٣٠م

الحضارة على بقعة واسعة كحضارة دلمون التى شملت منطقة من سواحل الخليج العربى او ما يسمى وقتئذ بالبحر (المر) من اقصى الشمال حتى عمان والتى كان تسمى (مجان) وقد ازدهرت تلك الحضارة فى حوالى منتصف الالف الثالث ق . م وعاصرت حضارة وادى الرافدين ووادى النيل وحضارة السند القديمه . واستمرت حضارة دلمون حتى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد[1] ثم ظهر في الكتابات الاغريقية في حوالى القرن الرابع قبل الميلاد اسم (تايلوس) ويطلق على جزيرة البحرين و (ارادوس) اطلق على جزيرة المحرق وهما من اكبر جزر ارخبيل البحرين .

اما البحرين في العصر الاسلامي المبكر فكانت تضم اقليما واسعا ضمن (العــروض) . اذ قسم قــدامى الجغرافيين بلاد العرب الى خمسة اقســام وهى : (اليمن وتهــامــه والحجاز ونجد والعروض) ، فاما العروض : فكان يشمل : (اليمامه والبحــرين ومــا والاهــا) فــأمــا (البحرين) في صدر الاسلام فقد ظلت تشمل الاسم الجامع لبلاد تقع على الساحل الغربى للخليج العربي ويمتد من كاظمة فى الكويت)[٢] شمالا الى جلفار[٣] (رأس الخيمة) جنوبا . وان اطلق العوتبي وهو مؤرخ عمانى عاش في القرن الثانى عشر ان البينونه الواقعة غرب أبي ظبي هى الفاصله بين البحرين وعمان فى تلك الفترة من التاريخ . بينما جعل ياقوت حد البحرين من الشمال (العذيب) ومن الجنوب عمان وتتصل البحرين باليمامه من شرقها وبعمان من جنوبها ومن الغرب اليمامه ومن الشرق الخليج العربى واقليم كرمان واعتبر البعض (جلفار) من اقليم العروض التى منها البحرين . ووصف الجغرافيون العرب القدامى الطريق الساحلى الذى يصل بين البصره وعمان وقدروا طوله شهرا للمسافر عليه لذا فضل العرب ركوب البحر وسلوك الطريق البحرى لسهولة طرقه وسلامة امنه بالنسبة للطريق البرى[٤] وكانت (هجر) قاعدة البحرين او عاصمتها ويقال انها كانت اسم قصبتها وقال بعضهم ان مدينة (الاحساء) تسمى ايضا هجر وهى قاعدة لتلك البلاد التى تسمى ايضا (بالبحرين)[٥] . كما ان (شبه جزيرة قطر) كانت تقع في اقليم البحرين وقد وصفها الازهرى : بانها قرية فى اعراض البحرين على سيف الخط بين عمان والعقير[٦] . وتشمل البحرين فى صدر الاسلام (الكويت والاحساء والقطيف وقطر وجزر البحرين) بما فيها جزيرة البحرين الام والتي كان يطلق عليها اسم (اوال)[٧] منذ القرن الثالث الميــلادى . وقــد استمــر اســم (البحرين) يطلق على هذا الاقليم مع الاحتفاظ بتسميه (اوال) على اكبر جزيرة فى البحرين وكثيرا ما كان والي البحرين يضم اليه ولاية الاهواز وعمان كما حدث في عهد الخليفة عمر الخطاب رضى الله عنه ولما ولى بنو العباس صيروا عمان والبحرين عملا واحدا . وفي عهد الرشيد الخليفة العباسى الخامس المتوفى ١٩٣هـ/ ٨٠٨م ولى أحد كبار قادته وهو (المعلى) على اقليم واسع في الخليج العــربي ومنــه (البحــرين) و (الغوص) ثم جمعت هذه الاعمال الى (محمــد بن سليمان بن عـلي بــن عبــدالله بــن العبــاس بن عبدالمطلب) ثم الى (عمــاره بن حمزه) ثم الى غيره[٨] وتعنى ولاية الغوص ان والى البحرين اصبحت له الولاية على جميع المياه والجزر والفشوت والهيرات الواقعة من كاظمة الى جلفار . فالبحرين بهذا المفهوم الجغرافي تقع على خط طول اربع وسبعين درجة وعشرين دقيقة من المغرب وخط عرض اربع وعشرين

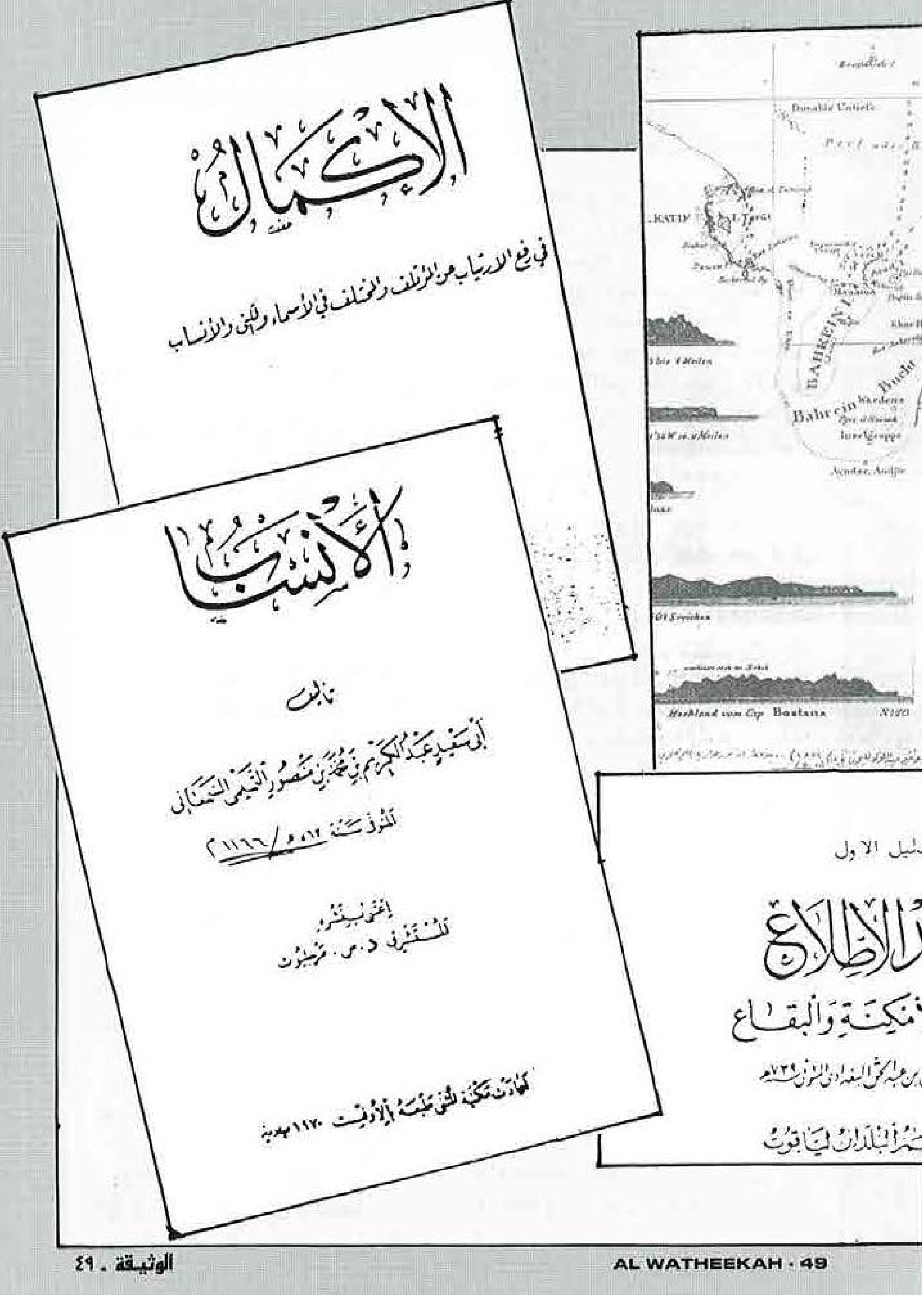
درجة وخمس وأربعين دقيقة على ما ذكره صاحب الزيج[٩] . واعتبر البعض مبدأ خطوط الطول من مكة المكرمة فتصبح (البحرين) واقعة على خط طول عشر درجات وسبعة وثلاثين دقيقة وعلى خط عرض ست وعشرين درجة وثلاثين دقيقه . وحدد النبهانى موقع البحرين بين خطي العرض ست وعشرين درجة الى تسع وعشرين درجة شمال خط الاستواء [١٠] وقال ابن الفقيه : والبحرين هى (الخط) والخط : اسم جامع لسيف البحرين الى عمان ومن قرى الخط القطيف والاحساء والعقير وقطر واستطرد ابن الفقيه فقال : ان البحرين هى (الخط والقطيف ولاره وهجر وبينونه والزاره وجواثا والسابور ودارين والغابه . وقال : وقصبة هجر الصفا والمشقر ومن قرى البحرين الاخرى غير ماذكر) وقال البكرى وياقوت وابن منظور : ان قطر موضع بالبحرين[١١] . وكان العرب يضمون الى هذا (الخط) بقيه مدن هجر الداخلية وجزائر الخليج العربي ومنها (اوال) ويطلقون على الجميع اسم (البحرين) ويعتبرونها منطقة مستقله من مناطق الجزيرة العربية الخمس وهى (الحجاز ونجد واليمن وعمان ثم البحرين)[١٢] .

وان شهرة (البحرين) بالتجارة والغوص وصناعة السفن جعلتها تحتل مركزا تجاريا هاما جذب التجار والطامحين فى الثراء الذي عرفت به البحرين فاصبح يطلق على المنطقة كلها (البحرين) من قبيل اطلاق الجزء على الكل[١٣] . وظل ذلك الاقليم الواسع يطلق على (البحرين) فى فجر الاسلام حتى عهد دولة (الجبور) في البحرين فلما قتل (مقرن بن اجود بن زامل الجبرى) ٩٢٨هـ / ١٥٢١م سيطر البرتغاليون على جزيرة البحرين الا ان دولة الجبور استمرت فى الاحساء والقطيف وان حدودها امتدت من القرين[١٤] الى شمالى عمان واصبحت دولة الجبور تسمى بدولة آل حميد او آل عريعر ويسكنها بنوخالد[١٥] ولم تذكر المصادر والخرائط البرتغالية (اوال) منذ القرن السادس عشر الميلادى بل ذكرت البحرين الذي اطلقته على جزر البحرين وكتبت بالبرتغاليه اسم (بحاريم) او (باريم) واطلقتها على جزر البحرين . وهنا نلاحظ في هذه الفترة زالت كلمة اوال تقريبا والتى كانت تطلق على أكبر جزر البحرين كما انه اصبحت البحرين تعنى الجزيرة الام وما حولها وترسم الخرائط القديمة خطا متقطعا احيانا بقرب الساحل الغربي للخليج العربي يمتد من شمال جزر البحرين الى جنوبيها ويكتب فى داخله (مصائد اللؤلؤ في البحرين) كما ورد ذلك في خريطة عالم الخرائط الهولندى (جون بلاو) بخريطة نشرها فى ١٦٦٨م . ومثله (يوهان) و (جيوم ليل) الفرنسى الذي نشر خريطته في ١٧٣٣م حيث حدد اماكن صيد اللؤلؤ وكتب عليها عبارة صيد اللؤلؤ في ساحل البحرين والذي شمل جميع جزر وفشوت شرق وشمال وجنوب البحرين الحالية كما





فقالت [illegible] ذكره [illegible] بين [illegible] فرسخ مدينة حمص في
نصف [illegible] وهي [illegible] وهو [illegible] حمص [illegible] بعض سبل
جرت [illegible] نهر جنوبي وهو نهر لا [illegible] وكرومه [illegible]
[illegible] حمص [illegible] حية ولا عقرب [illegible]
الثوب [illegible] حمص [illegible] الطاهر [illegible]
[illegible] بحمص لا [illegible] حية ولا عقرب [illegible] إلى باب المدينة
هنالك وعجائب [illegible] حمص على سائر البلدان [illegible] العقرب
فيبرى وبها القبة العالية التي في وسط [illegible] على صورة [illegible]
راكب [illegible] الريح كيف ما دارت وفي حائط القبة حجر به
صورة عقرب فإذا لسع الملدوغ [illegible] يطبع [illegible] تلك الصورة و
يضعه على تلك اللدغة واللسعة فيبرى لوقته القياس طولها ستة
عرضها [illegible] بضم الحاء المهملة [illegible] بينهما [illegible] آخر
الحروف وفي آخرها [illegible] على مرحلة من [illegible] منها
بنو العباس إلى الخلافة بالعراق حوارين من [illegible] بضم الحاء المهملة
والف وراء مهملة [illegible] من تحتها وفي آخرها نون بلدة بالبحرين [illegible]
زياد بن عمرو [illegible] فكان يقال له زياد حوارين وكان أخو زياد المذكور [illegible]
من أصحاب علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الأول والمشهور أن حوارين
[illegible] حمص الشرقية [illegible] وفي التاريخ
أن يزيد كان بها [illegible] حوران بفتح الحاء المهملة وسكون
الواو وفتح الراء المهملة وألف ونون كورة واسعة من أعمال دمشق
في القبلة ذات قرى كثيرة ومزارع [illegible] ومنها الأذرعات و
[illegible] وغيرها كذا في المراصد [illegible] بفتح الحاء المهملة وسكون الواو
[illegible] قال ابن حوقل ويعرف [illegible] النيل [illegible]


الإكمال
في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب
الأنساب
تأليف
أبي سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني
المتوفى سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م
إعتنى بنشره
المستشرق د. س. مرجليوث
أعادت مكتبة المثنى طبعه بالأوفست ١٩٧٠ ميلادية
BAHREIN I.
Bahrein Bucht
Bahrein
Manama
Hochland vom Cap Bostana
دليل الاول
الاطلاع
مكنة والبقاع
معجم البلدان لياقوت

كتب (جيوم ليل) على الساحل الشرقي للخليج عبارة (ساحل مسكون بالعرب) في ١٧٣٣م[١٦] .

أما (أوال) بالضم ويروى بالفتح فهي جزيرة بناحية البحرين وهي مأهولة بالسكان عند ظهور الاسلام اطلق عليها (أوال نسبة الى وائل) لأن ابنيه بكر وتغلب سكناها مع قبيلة عبدالقيس قبل الاسلام بزمن طويل . ولعل ظهور (اوال) في القرن الثالث الميلادى في عام ٢٦٥م كان مع انتقال بعض من قبائل الازد وبكر وتميم وربيعه واسد وبنو عبدالقيس ووائل الى البحرين[١٧] وبقى اسم (اوال) يطلق على اكبر جزر البحرين منذ القرن الثالث الميلادى الى حوالى ١٥٨٠م حين انحسار النفوذ البرتغالى اذ اصبح يطلق على الجزيرة الام والجزر التى حولها اسم (البحرين) واندثر اسم اوال فلم يعد يطلق على جزيرة البحرين منذ ذلك التاريخ ولعل من اقدم من اورد ذكر (اوال) : ابن قميئه (المتوفى حوالى ٥٤٠م/ ٨٢ ق . هـ) .

وتوبة بن الحمير العقيلي العامري (ت ٧٠٤م/ ٨٥هـ) بقوله :

من الناعبات المشى نعبا كانما

يناط بجذع من (أوال) جريرها

وقال تميم بن أبى بن مقبل :

عمد الحداة بها لعارض قرية

فكانها سفن بسيف (أوال)

وقال السمهرى العكلى :

طروح مروح فوق روح كانما

يناط بجذع من (أوال) زمامها[١٨]

وذكرها (الادريسى) فى نزهة المشتاق بقوله : (سميت البحرين بجزيرة اوال وفيها امير قائم بنفسه قد ارتضاه اهل الساحلين لعدله ومتانة دينه وفيها رؤساء الغواصين ويقصدها الناس من جميع الاقطار بالاموال الوفيره . ومثله الشاعر جرير المتوفى في حدود ٧٢٨م/ ١١٠هـ قال :

وشبهت الحدوج غداة قو

سفين الهند روح من اوال

واستمر ذكر (اوال) في كتب الجغرافيين والرحاله العرب اذ يطلقون على اكبر جزر البحرين ومنهم ابن حوقل المتوفى ٩٧٧م والمقدسى (ت : ٩٩٠م) والادريسى (ت : ١١٦٦م) وسليمان التاجر وابن بطوطه (ت : ١٣٧٧م) وابن ماجد (المتوفى بعد ١٤٩٠م) . وباستثناء (ناصر خسرو) الذي كان يذكر جزر البحرين دون ان يسميها (اوال) وذلك خلال رحلاته التى انتهت فى عام ١٠٤٢م . وقد اورد (بوتس) ماكتبه القديس ابو البركات المتوفى ١٣٢٥م فذكر كلمة (كرين) بفتح الراء او كسرها احيانا وهى في الكتابة الرومانية تهجئة لكلمة (البحرين) . واطلق (ريتر) فى عام ١٨٤٦م على البحرين اسم (اوال)[١٩] . وهذه حالة مستثناه لأن المصادر العربية والاجنبيه تكاد تجمع على ان (البحرين) تعنى مجموعة ارخبيل



اثار مسجد (جواثا) ورُوِيَ أن (أول جمعة جمعت بعد جمعة جمعت في مسجد رسول الله (ص) في عبدالقيس بجواثا من البحرين) وجواثا تقع في وسط وشرقي الكلابيه الحالية.

يتكون من عدة جزر وهى اليوم تشمل مجموعة من الجزر تسمى منها ٣٤ جزيرة مع بعض الفشوت الاخرى والصخور والشعاب التى يغمرها ماء البحر احيانا وقلما يطلق اسم (اوال) على جزيرة البحرين بعد القرن الخامس عشر .

مصادر تاريخ البحرين في صدر الاسلام :

يمكن تقسيم مصادر تاريخ البحرين الى قسمين :

١ ـ مصادر اصليه .

٢ ـ مصادر تكميليه .

فاما المصادر الاصلية : فهي القرآن الكريم والسنة النبوية ثم كتب السيرة والتفسير فمصادر التاريخ الاصلية .

والمصادر التكميلية : وهى التى تبحث في مواضيع اخرى الا انها تتضمن احداثا لاعلام او وصف لمواضع فى البحرين فى صدر الدولة الاسلامية ومثل ذلك كتب الفقه والمعاجم واللغة والشعر والادب والتراجم والانساب والجغرافية . ثم الكتب الحديثة وماكتبه المستشرقون . ولا بد من تمييز المصادر التكميلية من حيث قيمتها التاريخية بالنسبة لاصالتها ومصادرها وزمن تدوينها ومؤلفيها .

ولكن الباحث فى تاريخ البحرين يجد صعوبة فى تحديد (المواضع الجغرافية) القديمة والتى اندثر بعضها ولم يبق الامسمياتها في بطون المعاجم الجغرافية . وان كان في بعض كتب



مسجد الخميس .. من اقدم الاثار الاسلامية في البحرين

الرحالة والجغرافيين معلومات قيمة عن موقع البحرين وحدودها وطبيعة ارضها ومياهها ومواردها الاقتصادية وعن قراها ومدنها وسكانها ومواصلاتها واقسامها الادارية .

ومن اقدم تلك الكتب كتاب (بلاد العرب) للغده الاصبهاني وهو من رجال القرن الثالث الهجرى حيث حدد منازل القبائل معتمدا على رواة الشعر من بلاد البحرين .

ثم (الهمداني) وقد اعتمد على احمد بن محمد بن سهل بن صباح اليشكرى الذي سكن البحرين وعرف مواضعها .

أما (ابن الفقيه) الهمداني فقد أمدنا بمعلومات ادارية فريدة مستمدة من رحلاته وملاحظاته الشخصية في القرن الرابع الهجرى كما اخذ عمن سبقه كالجاحظ والاصطخرى[٢٠] .

المهم ان الجغرافية التاريخية وصفت المسرح الذي حدثت عليه الاحداث فاذا كان التاريخ يدرس الزمان فالجغرافية تعنى بالمكان فلا يمكن الاستغناء عن الجغرافية في دراسة التاريخ، أما الروايات التاريخية فهى فى غالبيتها تحتاج الى الدقة فى التوقيت خاصة اذا علمنا انه لا يوجد كتاب يحوى تاريخ البحرين ابان الدعوة الاسلامية فى عهد الرسول (ص) والراشدين بل لابد من الرجوع الى مصادر كثيرة ذات مواضيع متنوعة حتى نجد فقرات ان لم تكن اسطرا او كلمات تجعل منها المادة التاريخية فمن كتاب للمغازى كالواقدى

(ت ٢٠٧هـ) الى التاريخ كفتوح البلدان للبلاذرى (ت ٢٧٩هـ) فالأنساب لابن الكلبى (ت ٢٠٤هـ) والتراجم فالمعاجم اللغوية وكتب الرحاله وكتب الطبقات والحديث والفقة والسيرة والفرق والعقائد والادب والشعر هذا بالاضافة الى الكتب الحديثة والمقالات العربية والاجنبيه وغيرها .

اما كتب (التاريخ) فتحوى مادة موجزة عن انتشار الاسلام في البحرين وطرفا من الاحوال الاجتماعية والادارية والاقتصادية وان كانت تكاد تخلو من الاسناد . والملاحظ ان بعض المؤرخين الذين عاشوا في القرنين الثالث والرابع الهجريين كالدينورى (ت ٢٨١هـ) واليعقوبى (ت ٢٨٤هـ) والمسعودى (ت ٣٤٦هـ) استقوا معلوماتهم عن البحرين من مصادر تختلف عن سابقيهم فهم لم يذكروا مصادرهم او مصادر رواياتهم التاريخية .

اما الطبرى (ت ٣١٠هـ) فهو من الثقاة وان اعتمد على ابن اسحق ولايهتم بنقد الروايات التاريخيه . ومثله ابن الاثير (ت ٦٣٢هـ) وابن كثير (ت ٧٧٤هـ) . المهم ان هذه الكتب سواء كتب السيرة او التاريخ قد دونت بعد قرن او يزيد من الزمن الذي حدثت فيه الحوادث في البحرين ولذا من الصعوبة الاعتماد عليها كل الاعتماد . يضاف الى ذلك ما فيها من اساطير أدخلها الموالى واهل الكتاب والاخباريون لجهلهم بالعربية لذا فهي تحتاج الى مزيد من التحقيق العلمى من حيث الاسانيد .

وفي كتب الانساب ذكر عن القبائل التى سكنت البحرين ويعتبر كتاب جمهرة النسب لأبن الكلبى (ت ٢٠٤هـ) من اهم واقدم تلك المصادر وقد اخذ عنه من جاء بعده[٢١] ويندر ان نجد من أوفى بذكر دور القبائل فى الحياة الاجتماعية وان ذكر بعض النسابين علاقة القبائل مع بعضها البعض من حيث النسب دون ان يذكروا عدد رجالها او اسماءهم اللهم الا من تولى منهم مناصب ادارية أو كان لهم دور فى الحياة السياسية والاقتصادية ولعل كتب التراجم والطبقات قد اكملت ما لم تذكره كتب الانساب .

وحفظت المعاجم اللغوية بعض الاحداث التاريخية والمواقع الأثرية مماله علاقة بتاريخ البحرين وذكرت المسافات وطرفا من المنتجات الاقتصادية واحوال المناخ وسكنى القبائل[٢٢] .

ولعل اقدم كتاب في الطبقات هو لابن سعد (ت ٢٣٠هـ) والذي اورد طرفا من النواحى الادارية في البحرين وجانبا من الحوادث التاريخية وتراجم الرجال خاصة الذين وفدوا على رسول الله (ص) كما ذكر بعض رسائل الرسول (ص) لاهل البحرين . وقد اخذ ابن سعد عمن سبقه كالواقدى وابى معشر وقتاده ويمتاز ابن سعد في طبقاته بأنه يتقيد بالتسلسل التاريخي حين يترجم لاشخاص او يروى الحوادث وان لم تجد تفصيلا وافيا عما يتعلق بالبحرين . ومثله (خليفة بن خياط) المتوفى بعده بعشر سنوات

والذي ذكر في تاريخه اسطرا عن بعض الاداريين في البحرين ومنهم (المرزبان فيروز) والذي كان مركزه (الزاره) من بلاد البحرين و (المرزبان سيبخت) الذي مركزه في (هجر) وقد كتب له الرسول (ص) يدعوه الى الاسلام او الجزيه وذلك بعد ان كتب للمنذر بن ساوى ويذكر البلاذري[٢٣] ان (فيروز) اسلم والارجح انه لم يسلم بدليل عدم ذكره في المصادر الاسلامية وعدم مقاومته للمرتدين وان لم يقاوم المسلمين . اما (سيبخت) فإن مراسلته لرسول الله (ص) ادت الى عزله من قبل الفرس[٢٤] . وفي كتب الحديث ما يلقي الضوء على تاريخ البحرين ونحن نطمئن الى الصحيح منها كمادة تاريخية نظرا لاهتمام الاوائل بالحديث من حيث السند او الرواة وفيها عن النظم المالية والادارية والسياسية والعلمية ويمكن ان تقدم على كتب المغازى وكتب التاريخ الاخرى لأن الاحاديث مرت بنقد علمى او ما يسمى بالجرح والتعديل فمن جرحوه رفضت روايته ومن عدلوه قبلت روايته وهذا النقد لم تتعرض له الكتب التاريخية او كتب المغازى وان كانت الاحاديث الصحيحة مختصره لذا يمكن الرجوع الى كتب السيرة والمغازى وكتب التاريخ لانها مفصله مع اخذها بشيء من النقد والتمحيص . ثم ان كتب الحديث لم يتبع فيها التسلسل التاريخي لأنها مرتبه حسب المواضيع او حسب المسانيد وفي كلتا الحالتين لابد من الرجوع الى الكتب الاخرى المرتبة ترتيبا زمنيا . ومن كتب الحديث الموثوقه التاريخ الكبير للبخارى (ت ٢٥٦هـ) والذي ترجم عن رجال الحديث ومنهم من اهل البحرين وان لتعليقاته وهو يترجم لهم اهمية في القاء الضوء على جوانب من تاريخ البحرين ثم فصلت كتب التراجم الاخرى التى تلت البخارى في الحوادث والتراجم اوسع مما ذكره البخارى وان لم يكن بعضها بثقة البخارى[٢٥] وعموما فإن كتب التراجم تضم اخبارا موجزه عن الحياة الاقتصادية والادارية وعن مراسلات الرسول (ص) والوفود الذين وفدوا عليه وعن انتشار الاسلام في البحرين والردة فيها . المهم انه لا يمكن الاستغناء عن كتب التراجم في دراسة التاريخ الاسلامي للبحرين .

ولا يستغنى الباحث في التاريخ الاسلامي للبحرين عن كتب الصحاح في الحديث وامهات كتب الفقه لانها اوردت بعض المعلومات عن الادارة والاقتصاد ودور الوفادتين في انتشار الاسلام ورسائل الرسول (ص) علاوة على ذكر المعتقدات الدينية السائدة في البحرين قبيل الاسلام . اما كتب السيرة والمغازى وشروحها ففيها تفاصيل عن اعتناق سكان البحرين للاسلام وذكر عن الوفود الذين وفدوا على رسول (ص) وخاصة وفادة الاشج والجارود[٢٦] وتمتاز كتب السيرة باذها

كتبت في زمن مبكر فلابد انهم شهدوا الاحداث التاريخية او سمعوها عمن شاهدها وان لم تخل كتاباتهم من مبالغات وقصص واساطير وعدم الدقة العلمية وقد نقل ابن سعد من مغازى الواقدى، وابن سعد ثقه الى حد كبير ولكن الواقدى من الضعفاء عند الامام مالك . وهناك معلومات موجزه فى كتب الملل والنحل عن المعتقدات الدينية والفرق الاسلامية[٢٧] دون التفصيل فى الاحوال السياسية .

وتجد فى كتب الادب مادة غنية بذكر مواضع فى البحرين وعن الاحوال الادارية والاقتصادية والاجتماعية ووصف البيئة[٢٨] وهناك تعليقات وشروحات لدواوين الشعر وفيها مادة عن تاريخ البحرين وان كانت بعض المواضع التى وردت فى الشعر وشروحاته غير محدده وقد اندثرت اثارها كما ان الشعر كان يبالغ فى وصف المعارك او الابطال مع ما فيه من خيال واسع يخرجه عن الحقيقة التاريخية ، واخيراً فإن فى الدراسات التاريخية الحديثة ما يلقى الضوء على تاريخ البحرين فى صدر الاسلام[٢٩] .

ولا بد ان نأخذ بحذر ماكتبه طائفة من المستشرقين وهم يحللون ويستنتجون وفق اهوائهم وقد تعصب بعضهم بقصد او بدون قصد ربما لجهل بعضهم فى فهم النصوص القديمه او لم تكن المصادر الاصلية فى متناول ايديهم او انهم يفسرون الحوادث تفسيرا ماديا نابعا من نظرتهم او فلسفة حياتهم الغربية فاهملوا الجانب الروحى للعقيدة وبذا لابد ان ناخذ ماكتبه اولئك المستشرقون بحذر ونقد موضوعي ومنهم (كايتاني) الذي كتب عن نشر الاسلام في البحرين فلم يوفق في تفسيره.

ولا شك ان رسول الله (ص) ارسل الرسائل الى امراء وملوك عصره كما استقبل الوفود وارسلهم الى القبائل والامم وقد ثبت بالحديث الموثق الصحيح ان النبى (ص) ارسل كتابا الى كسرى الفرس وآخر الى قيصر الروم والى نجاشى الحبشه والى كل جبار يدعوهم الى عبادة الله تعالى[٣٠] واكدت ذلك كتب السير والتاريخ والادب [٣١] ولقد ذهب بعض المستشرقين الى التشكك فى صحة ارسال الرسائل والوفود . ومنهم ميور وكايتانى ومرجوليوث[٣٢] بينما اكد أخرون صحة الوفادات التى وفدت على الرسول والتي اوفدها هو ومن هؤلاء المستشرقين أرنولد ونولدكه[٣٣] وان ارسال الرسول (ص) الرسائل وايفاد الوفود للدعوة الاسلامية انما يعني ان الدين انتشر منذ فجر الاسلام بالدعوة السلمية وبالحكمة والموعظه الحسنة وهذا مظهر حضارى لأن العقيدة الاسلامية التى تستند على التوحيد هى اقوى حضاريا من العقائد المعاصره والتى يسودها الشرك ، ولم يلجأ عليه الصلاة والسلام الى التحدى السياسي والحل العسكرى الا بعد ان قدم الحل

السلمي والطرق الدبلوماسية المتحضرة . وقد كتب الى (المنذر بن ساوى التميمي) حاكم البحرين او الى شيخ اليمامه رسالة جاء فيها (واعلم ان ديني سيظهر الى منتهى الخف والحافر) وهذا النص يدل على ايمان رسول الله (ص) بالعقيدة التى بعثه الله والرسالة التي يبلغها لخلقه وقد اورد ابن هشام في السيرة النبوية ذكر رسائل الرسول (ص) في موضعين(٣٤) واختار عليه الصلاة والسلام الرسل لحمل رسائله ممن يعرفون لغات الامم نتيجة اختلاطهم بهم . فكان يختم رسائله بخاتم مستدير من الفضه كتب عليه بثلاثة اسطر جملة (محمد رسول الله) .

ويلاحظ ان ارسال الرسول (ص) عدة رسائل الى البحرين يدل على اثر العصبية القبلية والاقليمية في البحرين كما يدل على ضعف السلطة المركزية فيها وان رسول الله (ص) كان يرغب اهل البحرين ويساعدهم للدخول في الاسلام كلا على حده .

اما زمن ارسال تلك الرسائل (فابن سعد) (ت : ٢٣٠هـ) يشير الى ان العلاء بن الحضرمي بعث بصدقات البحرين بعد موقعة بدر وانه وصل البحرين في السنة الثانية للهجرة بينما ذكر (ابن سيده) (ت : ٤٥٨هـ) انه بعث بالرسائل بعد صلح الحديبيه اى في السنة السادسة للهجرة . وآخرون جعلوا اول رسالة ارسلت في المحرم من السنة السابعة للهجرة وان العلاء وصل الى البحرين في صفر من السنة السابعة للهجرة الا ان (ابن هشام) و (البلاذرى) و (الطبرى) يتفقون على ان رسائل البحرين ارسلت في السنة الثامنة للهجرة الموافقة لعام ٦٣٠م ومثل ذلك فإن الاختلاف في التوقيت لارسال الرسائل ينطبق على عمان وقد اجتهد كثير من الباحثين فجعلوا العام الثامن للهجرة هو ارجح عام لارسال الرسائل من رسول الله معتمدين على المناسبات التى ادت الى ارسالها وما ورد في نصوصها فصنفوها وفقا لذلك اى بعد فتح مكة حين تخلص الرسول (ص) من اعدائه المشركين وزادت قوته وانتشر صيته بين القبائل والامم فبعث برسله وهم يحملون رسائل الدعوة للاسلام(٣٥) .

فاوفد الرسول (ص) العلاء بن الحضرمى الى البحرين وهو يحمل الرسالة الاولى والعلاء مكي المولد اسلم في بداية الدعوة وقبل فتح مكة وَعدّهُ بعض المؤرخين من كتاب الوحى وكان فصيح اللسان اصبح اميرا على البحرين ثم عاملا لجمع الصدقات فيها بعد ان ولى عليها في السنة الثامنة للهجرة ولما تولى الخلافة ابوبكر وعمر رضى الله عنهما امراه على ولايته وشارك في القضاء على المرتدين في البحرين ولما عبر بالجيش الاسلامي الى (دارين) دون مشورة الخليفة الثاني عزله وقيل ولاه على البصرة وفي طريقه اليها توفي في ارض تميم عام ٢١هـ / ٦٤٢م .

اما حاكم البحرين الذي ارسلت

اليه الرسالة الاولى فهو (المنذر بن ساوى التميمى) وفى قول انه من بنى عبدالقيس الذين سكنوا تهامه ثم نزلوا البحرين فزاحموا قبيلة بكر بن وائل وتميم والارجح ان المنذر من بنى دارم من تميم ، وان اسلام المنذر واتباعه في البحرين كان لاسباب منها ان بعض اهالى البحرين كانوا على صلة بالنبي (ص) فاسلموا كما ان المنذر احتفظ بسلطته السياسية فى البحرين فابقاه رسول الله في السلطة بعد اسلامه حتى وفاته بينما اصبح عمل عمال الرسول (ص) في البحرين محدودا في نطاق الامور المالية ولم يكن لهم سلطان سياسي كالمنذر الذي اخذ ينشر الاسلام ويساعد على جمع الجبايه ويرسلها الى المدينة المنورة وهذا مما ساعد على ازدياد قوته .

ولا شك ان فى مقدمة الاسباب التى ادت إلى اعتناق اهل البحرين الاسلام هو قوة العقيدة الاسلامية وهذا رد على (كايتانى) الذي يذكر ان انتشار الاسلام كان ضعيفاً فى البحرين لأن المصادر تجمع على ان عرب البحرين جلهم دخلوا فى الاسلام . هذا اذا اضفنا قدم العلاقة بين اهل الحجاز واهل البحرين عن طريق التجارة التى هي من وسائل نقل الحضارة خاصة وان الدين مظهر من مظاهر الحضارة ، ولقد اوصى رسول الله (ص) موفده العلاء حين بعثه الى المنذر بن ساوى حاكم[٣٦] البحرين بقوله : (ان اجابك فاقم حتى يأتيك امرى . وخذ الصدقه من أغنيائهم وردها الى فقرائهم) فطلب العلاء من رسول الله (ص) ان يكتب له كتابا وهى الرسالة الاولى من بين الرسائل التى ارسلت للبحرين على ماورد في معظم المصادر وهذا نصها[٣٧] :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوى

سلام عليك ، فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو ، واشهد ان لا اله الا هو أما بعد فإني ادعوك الى الاسلام فاسلم تسلم ، واسلم يجعل لك الله ما تحت يديك واعلم ان دينى سيظهر الى منتهى الخف والحافر . محمد رسول الله .

وفى مصادر اخرى ورد هذا النص لرسالة الرسول (ص) :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوى

سلام على من اتبع الهدى ، اما بعد فاني ادعوك الى الاسلام فأسلم تسلم يجعل الله لك ما تحت يديك . واعلم ان دينى سيظهر الى منتهى الخف والحافر .

هذه الرسالة القصيرة فيها الدعوة للاسلام فإن اسلم المنذر فإنه سيبقى على حكمه للبحرين ثم يذكره عليه الصلاة والسلام بأن الدين الاسلامي سوف ينتشر الى اقصى البلاد .

فلما قرأ المنذر بن ساوى رسالة الرسول (ص) دار حديث بينه وبين

العلاء مبني على العقل والمنطق والحكمة والبصيرة(٣٨) ومدح العلاء المنذر بقوله :

يا منذر انك عظيم العقل فى الدنيا ، فلا تقصرن عن الاخرة ، ان هذه المجوسية شر دين ينكح فيها ما يستحيا من نكاحه ، ويأكلون ما يتكره من أكله وتعبدون فى الدنيا نارا تأكلكم يوم القيامة ولست بعديم العقل ولا الرأى ، فانظر هل ينبغى بمن لا يكذب في الدنيا ان لا نصدقه ولمن لا يخون ان لا نأتمنه ، ولمن لا يخلف ان لا نثق به ، فإن كان هذا هكذا ، فهذا هو النبى الامي الذي والله لا يستطيع ذو عقل ان يقول ليت ما أمر به نهى عنه أو مانهى عنه أمر به .

فلما انتهى من كلامه اجابه المنذر قائلا :

قد نظرت فى هذا الذي في يدى فوجدته للدنيا دون الآخرة ، ونظرت فى دينكم فرأيته للاخرة والدنيا فما يمنعنى من قبول دين فيه امنية الحياة وراحة الموت ولقد عجبت امس ممن ـ يقبله ـ وعجبت اليوم ممن يرده وان من اعظم من جاء به ان يعظم رسوله .

ثم اسلم المنذر بعدها . وهذا الكتاب يدل على أن المنذر اسلم بعد تمعن برسالة رسول الله (ص) ثم يؤكد العلاء : بأن الدين الذي عليه المنذر وقومه هو دين الشرك الذي لا يرضاه الله تعالى ولا عباده . وان الدين الذي بشر به النبى الامى وهو الصادق الصدوق والامين المؤتمن هو الدين الحق عندئذ اعتنق المنذر الاسلام عن قناعة ذاتية اكيده وبقى محافظا على اسلامه حتى توفى عام ١١هـ واسلم معه من اهل البحرين وبعض العرب والعجم(٣٩) . اما من اورد ان الرسالة الاولى لحاكم البحرين المنذر بن ساوى والتى فيها ورد قوله عليه الصلاة والسلام :

(بان رسلى قد اثنوا عليك ..)(٤٠)

فانها لم تكن هى الرسالة الاولى لأنه ورد فيها ان الرسل اثنوا عليه وسوف نضع هذه الرسالة في مكانها المناسب . وعلى اثر ذلك اصدر عليه الصلاة والسلام امرا الى (الاكبر بن عبدالقيس) ولعله المنذر بن ساوى بتعيين العلاء بن الحضرمي واليا من قبل رسول الله (ص) على البحرين . كما امره بالالتزام بالعهد ودفع الزكاة وان يكون اهل البحرين اعوانا على الظالم وانصارا في الملاحم ولهم ما للمسلمين من الفيء والعدل في الحكم والسيرة وكانت هذه الرسالة الثانية من الرسول (ص) الى المنذر بن ساوى وهذا نصها :

من محمد رسول الله الى الاكبر بن عبدقيس :

أنهم أمنون بأمان الله ورسوله على ما احدثوا في الجاهلية من القحم ، وعليهم الوفاء بما عاهدوا ولهم ان لايحبسوا عن طريق الميرة ولا يمنعوا صوب القطر ولا يحرموا حريم الثمار عند بلوغه . والعلاء الحضرمى أمين رسول الله على برها وبحرها وحاضرها

وسراياها وما خرج منها واهل البحرين خفراؤه من الضيم واعوانه على الظالم وانصاره في الملاحم ، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه لا يبدلوه قولا ، ولا يريدون فرقة ، ولهم على جند المسلمين الشركة في الفيء ، والعدل في الحكم والقصد في السيرة ، حكم لا تبديل له في الفريقين كليهما ، والله ورسوله يشهد عليهم[٤١] .

ثم اجاب المنذر رسول الله بكتاب قال فيه :

اما بعد يا رسول الله فاني قرات كتابكم على اهل البحرين فمنهم من احب الاسلام واعجبه ودخل فيه ومنهم من كرهه فلم يدخل فيه وبارضي يوجد يهود ومجوس فاحدث اليَّ امرك بذلك[٤٢] .

وفي هذه الرسالة ان المنذر صدق واسلم وان من اهل البحرين من استجاب للدعوة ومنهم من لم يستجب ويطلب من رسول الله ان يخبره عن موقفه تجاه المجوس واليهود في البحرين . فكتب الرسول (ص) الى العلاء كتابا هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

(اما بعد فاني قد بعثت الى المنذر بن ساوى من يقضي منه ما اجتمع عنده من الجزية فعجِّله بها وابعث معها ما اجتمع عندك من الصدقه والعشور والسلام كتبه ابى) .

وكاتب هذه الرسالة من كتاب الرسول (ص) وهو (ابى بن ابي كعب الخزرجي الانصارى) وفيها ان المنذر جمع الجزيه ممن بقوا على دينهم كالمجوس واليهود، النصارى . اما (الصدقات والعشور) فقد قام العلاء بجمعها بامر رسول الله (ص) . وارسل العلاء ثمانين الف درهم من البحرين والثابت ان رسول الله (ص) ارسل للمنذر جوابا بشأن المجوس واليهود في البحرين كما ارسل الى مجوس هجر رسالة وقيل انه ارسلها الى المنذر بخصوص معالجة امر مجوس هجر[٤٢] .

وفي الرسالة الرابعة التى ارسلها عليه الصلاة والسلام الى المنذر والتى اعتبرها البعض هي الرسالة الثالثة وهذا نصها :

من محمد النبي الى منذر بن ساوى .

سلام انت . فاني احمد اليك الله الذى لا اله الا هو ، اما بعد فإن كتابك جاءني وسمعت ما فيه . فمن صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا ، واكل ذبيحتنا فذلك المسلم ومن أبى فعليه الجزية .

واورد ابو يوسف القاضى نص الرسالة هذه وهى :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوى .

سلام الله عليك ، فإنى أحمد الله اليك الذى لا اله الا هو ، اما بعد : فإن كتابك جاءني وسمعت ما فيه ، فمن صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا واكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له مالنا ،

وعليه ما علينا .
ومن لم يفعل ذلك فعليه دينار من قيمة المعافرى .
والسلام عليك ورحمة الله . يغفر الله لك(٤٤) .

وفي هذه الرسالة الواجبات التى يجب ان يتصف بها المسلم كالصلاة واستقبال القبله واكل الذبيحه التى ذكر اسم الله عليها حين ذبحها من قبل المسلم . ومن لم يفعل ذلك فعليه ان يدفع الجزيه . اما (ابو يوسف) فلم يذكر تحديد الجزية بدينار من قيمة المعافرى . وفى رسالة اخرى انه فرض اربعة دراهم وعباءة ما نصه (وفرض على كل رجل ليس له ارض اربعة دراهم وعباءه(٤٥) .

والى مجوس هجر ارسل الرسول (ص) رسالة يدعوهم الى الاسلام وقد ذكرها البلاذرى نقلا عن الرواة وهذا نصها :

(فإن اسلموا فلهم مالنا وعليهم ما علينا فإن ابى فعليه الجزية من غير اكل لذبائحهم ولا نكاح لنسائهم) .
وذكرها ابن سعد بهذا النص :
(اعرض عليهم الاسلام فإن اسلموا فلهم مالنا وعليهم ماعلينا ومن ابى فعليه الجزية فى غير اكل لذبائحهم ولا نكاح لنسائهم .

اما الاتفاقية التي عقدت بين العلاء بن الحضرمى واهل البحرين وفيها :

بسم الله الرحمن الرحيم

(هذا ما صالح عليه العلاء بن الحضرمى أهل البحرين ، صالحهم على أن يكفونا العمل ويقاسمونا التمر فمن لم يفعل فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين واما جزيه الرؤوس فإنه اخذ لها عن كل حالم دينارا)(٤٦)

هذه الاتفاقية قد تكون لا حقه لرسائل اخرى من رسول الله (ص) الى المنذر والى بقيه حكام اهل البحرين .

وقد ارسل عليه الصلاة والسلام رسالة الى اهل هجر بعد ان اسلموا وفيها ان اختلافا وقع بينهم فاتجه وفد منهم الى الرسول (ص) وانه ارضاهم وقد وردت هذه الرسالة بصيغتين الاولى :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد النبى الى اهل هجر .
سلام انتم فانى أحمد اليكم الله الذى لا اله الا هو . اما بعد فانى اوصيكم بالله وبانفسكم الا تضلوا بعد اذ هديتم ولا تغووا بعد اذ رشدتم . اما بعد فإنه قد اتاني الذي صنعتم وانه من يحسن منكم لا يحمل عليه ذنب المسيء . فاذا جاءكم أمرائى فاطيعوهم وانصروهم واعينوهم على امر الله وفي سبيلة . فانه من يعمل منكم عملا صالحا فلن يضل له عند الله وعندى . واما بعد فقد جاءنى وفدكم فلم آت اليهم الا ما سرهم وانى لو جهدت حقى فيكم كله لاخرجتكم من هجر فشفعت غائبكم وافضلت على شاهدكم فاذكروا نعمة الله عليكم(٤٧) .

ووردت صيغة هذه الرسالة عند ابن سعد هكذا :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد النبى رسول الله الى اهل هجر .

سلام انتم ، فإنى احمد اليكم الله الذي لا اله الا هو . اما بعد فانى اوصيكم بالله وبانفسكم ، ان لاتضلوا بعد اذ هديتم ، وان لا تغووا بعد اذ رشدتم اما بعد ، فقد جاءنى وفدكم ، فلم آت اليهم الا ما سرهم واني لو جهدت حقي فيكم كله اخرجتكم من هجر . فشفعت غائبكم . وافضلت على شاهدكم فاذكروا نعمة الله عليكم . اما بعد فقد اتانى الذي صنعتم وانه من يحسن منكم لا يحمل عليه ذنب المسيء . فاذا جاءكم امرائى فاطيعوهم ، وانصروهم على امر الله وفي سبيله فانه من يعمل منكم عملا صالحا . فلن يضل له عند الله ولا عندى[٤٨] .

وفي رسالة بعثها رسول الله (ص) الى اهل هجر بصيغتين ايضا احداهما قوله عليه الصلاة والسلام :

(اما بعد : فإن رسلي قد حمدوك وانك مهما تصلح اصلح اليك واثبتك على عملك وتنصح لله ولرسوله والسلام عليك) .

والصيغة الثانية هى :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله الى اهل هجر ، سلام انتم . فاني احمد الله اليكم الذي لا اله الا هو اما بعد فاني اوصيكم بالله وبانفسكم ان لا تضلوا بعد اذ هديتم ، ولا تغووا بعد اذ رشدتم ، اما بعد ذلكم فانه قد جاءني وفدكم فلم آت فيهم الا ما سرهم ، وانى لو جهدت حقى كله فيكم اخرجتكم من هجر . فشفعت شاهدكم ومننت على غائبكم . اذكروا نعمة الله عليكم . اما بعد فقد اتانى ما صنعتم وان من يحمل منكم لا يحمل عليه ذنب المسيء ، فاذا جاءكم امراؤكم فاطيعوهم وانصروهم على امر الله وفي سبيله ، فانه من يعمل عملا صالحا فلن يضل له عند الله ولا عندى . اما بعد يا منذر بن ساوى ، فقد حمدك لى رسولى . وانا ان شاء الله مثيبك على عملك .

وجميع هذه الصيغ تدل على أن ردة حدثت فى المنطقة كما يتضح ذلك من قوله (ص) (ان لاتضلوا بعد اذ هديتم ولا تغووا بعد اذ رشدتم) . وان فتنة الردة هذه ادت الى اقصاء بعض الحكام بعد ان توجه وفد من البحرين الى المدينة المنورة وقابلوا رسول الله (ص) وانهم سمعوا منه ما يسرهم . وذكر الواقدى ان الرسول (ص) كتب الى العلاء بن الحضرمى ان يأتيه بعشرين رجلا من عبدالقيس فجاءه ومعه عشرون رجلا وعلى رأسهم عبدالله بن عوف بن الاشج فشكا الوفد العلاء فعزله الرسول (ص) وولى (أبان بن سعيد بن العاص) وقال له : (استوص بعبدالقيس خيراً واكرم سراتهم)[٤٩] . وقيل ان العلاء عاد الى المدينة المنورة بعد ان انهيت خدماته وفي قول انه بقي واليا على

منطقة في البحرين بينما اصبح (أبان) حاكما على منطقة الخط . ويذكر البلاذرى ان اهل البحرين طلبوا العلاء لحرب المرتدين فعاد للبحرين وقضى على الردة هناك . اما المنذر فقد بقي وقاوم الفتنه فارسل له الرسول (ص) رسالة فجعلها البعض الاولى في ترتيب الرسائل المرسلة الى المنذر ومنهم من اعتبرها الثانية . بينما اجتهد أخرون فجعلوها السابعة او ما قبل الاخيرة وهذا نصها :[٥٠] :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله ، الى المنذر بن ساوى سلام عليك ، فاني احمد الله اليك الذى لا اله الا هو واشهد ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله ، أما بعد فاني اذكرك الله عز وجل فإنه من ينصح فانما ينصح لنفسه وانه من يطع رسلي ويتبع امرهم فقد اطاعني ، ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وان رسلى قد اثنوا عليك خيرا ، واني قد شفعتك في قومك فاترك للمسلمين ما اسلموا عليه ، وعفوت عن اهل الذنوب فاقبل منهم وانك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ومن اقام على يهوديته او مجوسيته فعليه الجزية .

في هذه الرسالة يحث الرسول (ص) اهل البحرين على طاعة رسله الذين ارسلهم الى هناك ويذكر عليه الصلاة والسلام انهم اثنوا على المنذر خيراً عندئذ شفعه في قومه كما انه طلب من المنذر ان يقبل من المتمردين العفو لأنه (ص) قد عفا عن اهل الذنوب وان لا يتعرض لليهود والمجوس الذين اقاموا على دينهم بل ياخذ منهم الجزية . وفي الرسالة التى تتكون من مائة كلمة بما فيها خاتم النبى (ص) كتبت في عشرة اسطر وجاء فيها كلمة (اذكرك) كتبت هكذا (اذكر) في السطر الرابع وحرف (ك) في السطر الخامس كما كتبت كلمة (رسلي (على النحو التالى :

كتب حرف (ر) في السطر الخامس وكلمة (سلى) في السطر السادس[٥١] وان هذه الرسالة تم العثور عليها مكتوبه على مخطوط جلدى يحتمل ان تكون اصل الرسالة النبوية الى المنذر بن ساوى نشر عنها الدكتور (بوش) الالمانى مقالا في مجلة المستشرقين الالمان في عام ١٨٦٣م[٥٢] ولما كان نص هذه الرسالة قد ورد في مصادر التاريخ المعتمدة لذا فقد اعتمدها المحققون . والواضح ان هذه الرسالة ارسلها الرسول (ص) الى المنذر بعد فتنة الردة وعزل العلاء بن الحضرمى وفيها يحث اهل البحرين على اطاعة رسله الذين ارسلهم اليهم كما يذكر ان رسله اثنوا على المنذر خيراً وبذا شفعه في قومه وطلب منه ان يعفو عن المتمردين وان يترك للمسلمين ممتلكاتهم واكد على ان على المجوس واليهود الذين لم يدخلوا في الاسلام الجزية . فاما في فرض الجزية على مجوس هجر فقد نزلت الاية الكريمة (يا ايها الذين آمنوا عليكم انفسكم

لا يضركم من ضل اذا اهتديتم)[٥٣]
وحول فرض الجزية على مجوس فارس فقد اشار عبدالرحمن بن عوف على الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه سمع رسول الله (ص) يقول (سنوا بهم سنة اهل الكتاب) ففرضت الجزية على اهل السواد[٥٤] وكانت آخر رسالة الى المنذر هى :

(الى المنذر بن ساوى اما بعد : فاني قد بعثت اليك قدامه واباهريره فادفع اليهما ما اجتمع عندك من جزية ارضك والسلام) .
كتب أبى) .

وقد ارسلها (ص) بيد قدامه بن مظعون ومعه ابو هريره[٥٥] . ويلاحظ ان الجزية على الارض والمعلوم انها على الرؤوس من اهل الكتاب ومن المحتمل انها تعنى الجزية على اهل الارض . وكان اول خراج دخل المدينة المنوره هو خراج اهل البحرين ومقداره سبعون ألف درهم وقيل ثمانون الف درهم[٥٦] وفي الرسائل التى ارسلها الرسول (ص) الى اهل البحرين رسالة الى (الهلال) صاحب البحرين وفيها :

سلام انت فإنى احمد اليك الله الذي لا اله الا هو لا شريك له وادعوك لله وحده تؤمن بالله وتطيع وتدخل فى الجماعة فانه خير لك والسلام على من اتبع الهدى[٥٧] .

وارسل رسول الله (ص) رسالة الى (سيبخت) مرزبان هجر اى الحاكم فى هجر رداً على رسالته فجعله الرسول يشفع في قومه اى جعل له السلطة الادارية فى قومة الذين سماهم رسول الله (ص) (بنى عبدالله) وليس لدينا معلومات عنه وانما ارسل الرسالة اليه بيد الاقرع التميمى والذي جعله عاملا على الصدقه وقد اقنع الاقرع قومه من بنى تميم للدخول فى الاسلام بعد ان اتجه وفد منهم للرسول (ص) واسلموا . واليك هذه الرسالة .

الى سيبخت صاحب هجر والتى اوردها ابن سعد بقوله : (الى سيبخت بن عبدالله صاحب هجر) وهذا نصها :

الى سيبخت بن عبدالله صاحب هجر .

انه قد جاءنى الاقرع بكتابك وشفاعتك لقومك ، وانى قد شفعتك وصدقت رسولك الاقرع فى قومك ، فابشر فيما سالتني بالذي تحب ولكنى نظرت ان اعلمه فتلقانى ، فإن جئتنا اكرمك ، وان تقعد اكرمك .

اما بعد فانى لا استهدى احدا ، فإن تهد الى اقبل هديتك وقد حمد عمالى مكانك واوصيك بأحسن الذي انت عليه من الصلاة والزكاة وقرابة المؤمنين وانى قد سميت قومك بنى عبدالله فمرهم بالصلاة وباحسن العمل وابشر ، والسلام عليك وعلى قومك المؤمنين .

وفي رسالة اخرى الى اهل البحرين بأن لهم ما أسلموا عليه أن اقاموا الصلاة واتوا الزكاة ولم يمجسوا اولادهم وعليهم هدم وتخريب بيوت النار وان وجد فيها مال او ذهب فيجب ان يجعل ذلك لله ورسوله واليك نص هذه الرسالة :

اما بعد فانكم اذا اقمتم الصلاة ، واتيتم الزكاة ونصحتم لله ورسوله ، وأتيتم عشر النخل ونصف عشر الحب

ولم تمجسوا اولادكم فلكم ما أسلمتم عليه . غير ان بيت النار لله ورسوله ، وان ابيتم فعليكم الجزية[٥٨] .

اما الرسالة التالية والاخيرة ربما انها ارسلت مع وفد الجارود ويتضح منها أن اتفاقا بين الرسول (ص) وقبيلة عبدالقيس فى البحرين وما حولها اذا اسلموا وأطاعوا الله ورسوله واقاموا اركان الدين والعدل بينهم وعليهم اخذ الصدقات من أغنيائهم الى فقرائهم وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد رسول الله لعبدالقيس وحاشيتها من البحرين وما حولها . انكم اتيتمونى مسلمين مؤمنين بالله ورسوله . وعاهدتم على دينه فقبلت على ان تطيعوا الله ورسوله فيما احببتم وكرهتم ، وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتحجوا البيت وتصوموا رمضان ، وكونوا قائمين لله بالقسط ولو على انفسكم . وعلى ان تؤخذ من حواشى اموال اغنيائكم فترد على فقرائكم . على فريضة الله ورسوله فى اموال المسلمين[٥٩] .

ودخلت البحرين فى الاسلام في عهد رسول الله (ص) دون قتال[٦٠] حين بعث عليه الصلاة والسلام موفده وسفيره (العلاء بن الحضرمى) الى (المنذر بن ساوى العبدى) ومعه رسالة يدعوه فيها الى الاسلام فاسلم المنذر ومعه اسلم العرب وبعض العجم[٦١] .

وان قبول اهل البحرين الدعوة الاسلامية دون اية معارضة يدل على النضوج الفكرى ثم النزعة للتخلص من الوثنية التى شاخت وهرمت ، والمجوسية المقيتة والتخلف العقائدي . ولا شك ان اعتناق اهل البحرين للاسلام نتيجة لما تتمتع به البحرين من حضارة ورثتها منذ القدم واستقلال يدل على سرعة اعتناق حاكمها وعربها للعقيدة الاسلامية . والمتتبع للرسائل التى بعثها عليه الصلاة والسلام الى البحرين يجد ان المنذر اسلم وبعض اهل قومه وخاصة عربهم دون استشارة أو تأخر ثم طلب من رسول الله ان يعلمه موقفه من المجوس واليهود فى بلاده فلو انه كان تحت نفوذ الفرس ـ كما ذكر البلاذرى مثلا ـ لما حدث ان اسلم دون الحصول على اذن منهم . ثم ان بين الرسائل التى بعثها الرسول (ص) رسالة ارسلها الى (سيبخت) الفارسى الذي كان يحكم منطقة صغيرة فى البحرين ولم يكن مجوسيا وقد اسلم هو وقومه معه . ومن هنا نستطيع القول بأن سيبخت لم يكن واليا او متوليا من قبل الفرس ولا مرتبطا بحكومتهم بدليل انه اسلم هو الاخر ومعه قومه فور استلام رسالة الرسول (ص) فلو انه كان تحت نفوذ فارس او ان له صله بهم لاستشارهم[٦٢] .

خاصة وأن الوهن والهرم قد دب في (الدولة الساسانية) التي كانت دولة عسكرية اهتمت بالتوسع على حساب الشعوب الضعيفة واتخذت

الزرادشتيه دينا رسميا للدولة الا ما كان في عهد كسرى (قباذ) الذي فرض المزدكية الاباحية حتى في بعض البلاد المجاوره وكان الانقسام الدينى قد أدى الى انقسام سياسي.

وساد الاقطاع فى الدولة اذ تسيطر الطبقة الارستقراطية على البلاد ومنهم ذوو البيوتات الستة الذين كثيراً ما يرأسون اقاليمهم ويدافعون عن اقطاعياتهم واما الحكام وهم الشاهات وعددهم نحو خمسة عشر شاها فإن لهم الحكم في الدولة وهناك الامراء ويسمون (البزركان) فلهم امتيازات ويتمتعون بالنفوذ المالى وكثيرا ما كان كسرى الفرس يعفيهم من الضرائب ، ويليهم الفرسان وهم من الاشراف ـ اما بقية الشعب فهم المزارعون والعمال ويشكلون معظم السكان ولكن لا شيء لهم من الامتيازات والحقوق وجلهم من الفرس او العرب والانباط والاكراد والاتراك واغلبهم كرقيق الارض وهم في مستوى معيشى ضعيف يباعون مع الارض وليس لهم الحق فى ترك اراضيهم علاوة على ما عليهم من ضرائب باهظة ، واهم الضرائب الخراج وتساوى نصف المحصول ثم ضريبة النوروز (ومعنى النوروز اليوم الجديد من الربيع) والمهرجان وهى ضريبة تدفع فى يوم ذكرى تتويج كسرى الفرس . وضريبة الموائد واجور القراطيس والصرافين والنقل والجسور والطرق والسدود وغيرها مع التعسف الشديد من قبل الجباة ، كل هذا وذاك زاد من عوامل التذمر فاذا ما جاء المسلمون وهم يحملون عقيدة انسانية فى جوهرها العدالة الاجتماعية والمساواة والحرية فكان ذلك من عوامل قبول العقيدة الاسلامية ثم تباين القوميات المكونه لامبراطورية الفرس وكذلك تعدد اللغات والديانات والاختلاف الجنسى فى العناصر ادى الى اختلاف فى الاهداف وانقسام سياسي وهذا سبب ضعفا فى الدولة وبالتالى ساعد على انتشار الاسلام .

ومن العوامل التى اضعفت الفرس والروم على السواء حروبهم المستمره مما ادى الى فرضهم ضرائب باهظة لسد تكاليف الحروب علاوة على الخلافات فى البيت الكسروى على العرش فقد قتل شيرويه والده ابرويز وجميع اخوته وبعده جاءت بوران اخته . فادى تدخل النساء فى الحكم وانتشار الدسائس وغيرها الى اضعاف الدولة الفارسية وكانت من العوامل التى ساعدت على قبول الاسلام دين السلام والحرية والعدالة الاجتماعية ومن هذا العرض للاحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى بلاد الفرس وقتئذ يثبت انه لم يكن يوجد لدولة الفرس نفوذ على البحرين لانها كانت في حالة ضعف وتدهور .

وتجمع المصادر التاريخية على ان انتشار الاسلام في البحرين حدث سلما وبدون قتال منذ عهد الرسول (ص) الذي كان يدعو الناس في موسم

الحج ثم تطورت دعوته الى مكاتبة الملوك والامراء ورؤساء القبائل حتى ان اهل الكتاب ومجوس هجر لم يجبروا على ترك دينهم بل عليهم اعتناق الاسلام او دفع الجزية فهم يمارسون طقوسهم وعقائدهم الدينية بحرية تامة وسار الخلفاء الراشدون على نهج الخطة الحكيمة التى رسمها عليه الصلاة والسلام فقد ارسل مبعوثه (العلاء بن الحضرمى) ومعه رسالة الى (المنذر بن ساوى) يدعوه وقومه للدخول فى الاسلام وبمعيته ابو هريره وفى قول ومعه جماعة آخرون ايضا غير ابي هريرة وقد اوصاه الرسول (ص) بابى هريرة خيرا وكان ذلك بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة الموافقة ٦٣٠م فاعتنق المنذر بن ساوى الاسلام كما اسلم جميع العرب وبعض العجم وقد صالح العلاء الذين لم يسلموا من العجم صالحهم على الجزية وكان ذلك بعد فتح مكة واخضاع المشركين فيها واعتناق اهلها الاسلام اذ اصبحت للمسلمين قوة وهيبة لدى القبائل فتفرغ عليه الصلاة والسلام لنشر الدعوة فى ارجاء الجزيرة العربية . اما ما ذكره ابن سعد وابن الاثير بأن الرسول (ص) ارسل (عمرو بن العاص) الى البحرين فلم يتفق على ذكره المؤرخون وكتب الحديث والمعاجم اللغوية وكتب البلدان وغيرها[٦٣] .

ومن الوفادات التى وفدت من البحرين على رسول الله (ص) وفادة قبيلة عبدالقيس ويرأسها (الاشج) واسمه المنذر الذي كان صديقا لراهب بدارين فلقيه في (الزاره) فاخبره الراهب ان نبيا يخرج بمكة فما كان من الأشج الا ان ارسل ابن اخته وهو (عمرو بن عبدالقيس) على رأس قافله تحمل تمور هجر الى مكة المكرمة وطلب منه ان يأتيه بالاخبار عن النبى (ص) ووصل مبعوث الاشج الى مكة في العام الاول الهجرى وقابل النبى (ص) فعرض عليه الاسلام فاسلم وطلب منه الرسول ان يدعو خاله (الاشج) للاسلام فلما وصل اخبر الاشج بما رأى وسمع فاسلم وكتم اسلامه وفى الاشهر الحرم من العام الثامن للهجرة وفد الاشج مع بعض سكان هجر على رسول الله فاسلموا[٦٤] وتعلموا بعض سور القرآن الكريم وعلمهم الرسول (ص) اركان الاسلام وكتب لهم كتابا فيه امر ونهى ووعظ[٦٥] . وعاد الوفد من مكة مع العلاء الحضرمى ومعه كتاب رسول الله (ص) الى المنذر بن ساوى فما ان وصلوا الى البحرين حتى حولوا الكنيسة الى مسجد . وكان عدد افراد الوفد الذي ذهب مع (الاشج) سبعة عشر رجلا وفى قول اثنى عشر شخصا ومعهم (الجارود) وذكر (ابن سعد) اسماء اربعة وعشرين رجلا وهكذا اختلفت الروايات فى عدد الوفد فكان اقله اثنى عشر واكثره اربعين رجلا . فما كان من رسول الله (ص) الا ان اسكنهم فى دار رمله بنت الحارث عشرة ايام وهنا يمكن القول

بأن عدد الوفد قد لا يرتفع اكثر من اثنى عشر رجلا ولم يكن لاعضاء الوفد دور قيادى هام وواضح فى الاسلام فإن رئيس الوفد هو (الاشج) حين عاد بعد ان بايع الرسول عن نفسه فقط ولم يبايعه عن قومه فلم يكن رئيسا لقومه بل تعهد بقتال من لم يتبع تعاليم مبعوثه .

وفي الوفادة الثانية التي حدثت فى السنة التاسعة للهجرة وكان رئيس هذا الوفد هو (الجارود العبدى) وهو من رؤساء بنى عبدالقيس وكان على النصرانيه ثم اعتنق الاسلام وبقى فى المدينة المنورة حتى تفقه فى الدين وتمسك بدينه رغم الردة التى حدثت في البحرين فى السنة الحادية عشرة لكنه استطاع ان يعيد قبيلته من بنى عبدالقيس الى الاسلام بل انه وقومه حاربوا المرتدين وكان مع صفوف العلاء الحضرمى .

والاشج من عبدالقيس واسمه المنذر بن عائذ كان صديقا لراهب ينزل (بدارين) من بلاد البحرين فكان الاشج يلقاه فى كل عام فلقيه عاما (بالزارة) وهى مدينة من مدن البحرين فأخبر الاشج (ان نبيا يخرج بمكه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقه) بين كتفيه علامة يظهر على الاديان) وبعد ذلك ارسل الاشج ابن اخته وبعث معه تمرا يبيعه وملاحف . وان منقذ بن حيان وهو من أهل البحرين كان جالسا فى المدينة المنورة فمر به النبى (ص) فنهض فسأله النبى عن حاله وقومه فـأسلم وتعلم سورة الفاتحه (واقرأ) وكتب النبى معه الى جماعة عبدالقيس كتابا ورجع منقذ الى هجر وكتم الكتاب ثم اخبر الاشج والد زوجته بكتاب رسول الله فاسلم واخذ الكتاب وقرأه على قومه فاسلموا واجمعوا السير الى الرسول (ص) فسار الوفد .. وفي رواية لابن سعد عن الواقدى ان الرسول (ص) كتب الى اهل البحرين ان يقدم عليه عشرون رجلا فقدم عليه عشرون رجلا رأسهم عبدالله بن عوف الاشج . وفي رواية اخرى لا بن سعد عن الواقدى ايضا ان الرسول كتب الى العلاء بن الحضرمى ان يقدم عليه بعشرين رجلا من عبدالقيس فقدم عليه بعشرين رجلا رأسهم عبدالله بن عوف الاشج فقدم الوفد فى السنة الثامنة ومعه الجارود وفى رواية ان الوفد قدم فى السنة التاسعة وفى رواية اخرى فى السنة العاشرة(٦٦) .

مكانة البحرين الجغرافية :

لقد كانت البحرين حسب مدلولها الجغرافي فى صدر الاسلام والتي تمتد من كاظمة الى جلفار ذات اهمية استراتيجية فهى المنفذ نحو الجزيرة العربية بموانيها كالعقير والاحساء والقطيف ودارين وبجزرها كاوال والمحرق وشفار(٦٧) وتاروت وحوار وغيرها واهم سذه الجزر جزيرة البحرين بسبب الظروف الاقتصادية والملاحية وهى مركز مهم للمواصلات بين الخليج العربى والعالم الخارجي ولموقعها الوسط فى الخليج وصلاحية

مياهها للملاحة ورسو السفن كما اصبحت البحرين منطلقا لا نتشار العرب في الموانىء والاقاليم الشرقية لساحل الخليج العربي سواء ما حدث من هجرات بدافع اقتصادى او بسبب ما تعرضت له البلاد في سواحل الخليج من ظروف سياسية او اجتماعية دفعت بعض القبائل العربية للهجرة صوب الساحل الشرقي من الخليج . فقد اورد الطبرى : ان من قبائل البحرين كعبدالقيس وبكر بن وائل وتغلب قد سكنوا سواحل فارس وغلبوا اهلها ايام كان سابور الملقب ذى الاكتاف ابن هرمز طفلا صغيراً وذلك في القرن الرابع الميلادى . ولما اشتد عوده اخضع اللخميين المناذره وكانت البحرين تحت نفوذهم ثم اسكن سابور بعض قبائل تغلب وعبدالقيس وبكر بن وائل اسكنهم كرمان وتوج والاحواز بعد ان قام بتهجيرهم من مواطنهم واسكنهم فى فارس[٦٨] .

اما فى صدر الدولة الاسلامية فقد انتقلت بعض القبائل العربية الى ساحل فارس بدافع دينى وهو نشر الاسلام وقد استقر بعضهم فى الحاميات العسكرية ورابطوا فيها بينما وجد بعضهم المجال مناسبا للعمل في التجارة والملاحة والزراعة او نشر العلوم الاسلامية وغيرها والباحث في اسماء العلماء المسلمين المشهورين فى كافة فروع المعرفة يجد منهم من نسب الى المدن التى استقروا فيها في اقليم الساحل الشرقي من الخليج العربي او في الداخل .

وتعتبر البحرين من القواعد العسكرية التى انطلقت منها الفتوحات الاسلامية عبر الخليج نحو اقليم فارس وكرمان اللذين يقابلان اقليم البحرين وكانت البصره القاعدة الاخرى التى امدت الجيوش المنطلقة من البحرين فى حروبهم فى ارض فارس . ففى السنة الرابعة عشرة الموافقه ٦٣٥م حاول (العلاء بن الحضرمى) القيام باعمال عسكرية على ارض الساحل الشرقي للخليج العربى ايام كان واليا على البحرين وذلك فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولكن دون طلب الموافقة من الخليفة مسبقا ومع ذلك فقد فتح جزيرتى لار وخارج ولعل سبب تلك المحاولة للفتح الاسلامي فى فارس من قبل العلاء بالاضافة الى الرغبة الملحة في نشر الاسلام خاصة بعد ان تكللت حروبه للمرتدين فى البحرين بالانتصارات ما وجده من مهارة فى سكان البحرين بالملاحة وركوب البحار واستخدامهم السلاح هذا بالاضافة الى علمه بوفرة الخيرات فى الاقاليم الشرقية لساحل الخليج فى وقت ضعف فيه اسطول الدولة الفارسية لانشغالها بالدفاع عن حدودها الشرقية خاصة فى الحيرة والمدائن وما حولها وكان العلاء بن الحضرمي قد اعتمد على المستوطنين العرب الذين نزلوا واستقروا على السواحل الشرقية للخليج والمقابلة للبحرين من قبائل عبدالقيس وتغلب وبكر بن وائل

وتميم ممن هاجروا جماعات وافرادا قبيل ظهور الاسلام الا ان اعتماده هذا لم يحقق الهدف ففشلت حملة العلاء فعزله الخليفة عن ولاية البحرين وعين مكانه (عثمان بن ابي العاص) وذلك في السنة السابعة عشرة فقاد المقاتلين من بني عبد القيس وانزلهم في فارس وفتح جزيرة (ابن كاوان) الواقعة قرب مضيق هرمز وشيد مسجدا فيها وارسل الخليفة مددا الى عثمان بن ابي العاصي من جهة البصرة على ما ذكره الطبرى والبلاذرى وذلك عام ٢١هـ ثم امر عثمان بن ابى العاصى (الجارود العبدى) بفتح بعض القلاع في الساحل الشرقي للخليج ورغم ان الجارود لقى حتفه الا أن المقاتلين من اهل البحرين مع من ساعدهم من المسلمين في موانىء الساحل الفارسى استطاعوا التوغل في الداخل ففتحوا (اصطخر) التي كانت محصنة وتم فتحها في عهد الخليفة عثمان بن عفان ٢٨هـ / ٦٤٨م بقيادة عبدالله بن عامر الذي اكمل الفتح وشارك معه كثير من قبائل البحرين ومنهم بنوعبدالقيس وبكر بن وائل وبنو سامه .

وفي العصر الاموى عبر بنو حنظلة وهم بطن من تميم عبروا الى فارس وسكنوا (اصطخر) وما حولها فوجدوا هناك عربا أعانوهم على معاشهم[٦٩] .

اما مكانة البحرين الدينية :

فقد اعتنق اكثر سكان البحرين الاسلام في عهد رسول الله (ص) وبنى فيها أول مسجد جمعت فيه الجمعة بعد مسجد رسول الله (ص) وروى البخارى بسند عن ابن عباس رضى الله عنه انه قال : (اول جمعة جمعت بعد جمعة جمعت في مسجد رسول الله (ص) في عبد القيس بجواثا من البحرين)[٧٠] وكان حصن يسمى حصن جواثا وقد وصفه البلاذرى فقال : بأنه حصن البحرين ولا زالت اثار عين ماء ومنارة واساطين لمسجد قديم قائمة الى اليوم[٧١] وقد اتخذ المسلمون جواثا قاعدة رئيسية لهم كما كانت مركزا تجاريا هاما[٧٢] وتعرضت لحصار من قبل المرتدين وكاد المسلمون الذين تمسكوا باسلامهم ان يموتوا جوعا الا ان العلاء بن الحضرمى في عام ١٢هـ قاتل المرتدين وفك الحصار عن جواثا واهلها بعد ان قتل منهم خلقا كثيرا واستولى المسلمون على عتادهم ومتاعهم وفقد المسلمون في جواثا المنذر بن النعمان بن المنذر الملقب بالغرور[٧٣] .

ومن الاسباب التى ادت الى اعتناق اهل البحرين الاسلام قوة العقيدة الاسلامية في بلد تعددت فيه الديانات حيث تسود (الوثنيه) في البحرين والتي شاخت وهرمت ثم الديانه (الاسبديه) وهي عبادة الخيل واسمها مشتق من (الاسب): اى الفرس او الحصان وهى ديانه فارسيه

كالديانه (المجوسية) وهى عبادة النار . (ثم النصرانيه) وكانت فى خلافات مذهبيه بين فرقها و (اليهودية) وكانت قوميه عنصريه تخص بنى اسرائيل لذا فقد سادت الفوضى الدينية فى البحرين قبيل الاسلام فلما ارسل رسول الله (ص) رسائله الى البحرين اعتنق اهلها الاسلام مبكرا لانهم وجدوا فى العقيدة الاسلامية وهى تحمل عقيدة انسانية فى جوهرها العدالة الاجتماعية والمساواة وحرية الرأى والاخوة والسلام وتوافدت الوفود من البحرين الى رسول الله فاصبحت للبحرين مكانة دينية خاصة بعد القضاء على المرتدين ثم منطلقا للفتوح فى شرق الخليج العربى فاحتلت المكانة السياسية والعسكرية بعد ان ضعفت الدولة الساسانية التى اهتمت بفرض الديانة الزرادشية والمزدكية الاباحية وانشغلت بالحروب المتواصلة مع الامبراطورية الرومانية مما ادى الى فرض الضرائب الباهظة لسد نفقات الحروب مع ما تعرض له البيت الكسروى من خلافات ودسائس فقد قتل (شيرويه) والده (ابرويز) فى السنة السادسة للهجرة وجميع اخوته فاعتلت العرش اخته (بوران) . وهكذا فإن ضعف الدولة الفارسية جعلها لاتهتم بسواحل الخليج العربى ومنها بلاد البحرين ولذا فقد اسلم المرزبان (سيبخت) الذي عاصر النبى (ص) وقال البلاذرى انه اسلم بدعوة من رسول الله .

وللبحرين مكانة اجتماعية تتمثل بالعلاقات القبلية بين سكانها وقبائل الحجاز قبل الاسلام ومنهم بنو (عبدالقيس) الذين وفدوا من تهامة الحجاز واستقروا فى البحرين و (تميم) الذين نزحوا من نجد والحجاز ونزلوا البحرين . و (الازد) الذين خرجوا من اليمن واقاموا بتهامة الحجاز ثم تفرقوا فقصدت بعض بطوتهم البحرين واليمامه وعمان وهناك جماعات في البحرين عرفوا عن الاسلام ودافعوا عنه فى حياة الرسول (ص) ولما ارسل الرسول رسالة الى المنذر اسلم ومن معه من اهل البحرين عن رغبة ذاتيه اكيده لما عرف عن الاسلام من تسامح وعدالة اجتماعية وسلام . وباسلام المنذر فقد ثبت سلطته السياسية فى البحرين ووسعها حتى وفاته في السنة الحادية عشرة للهجرة بينما اصبحت الشئون المالية من اختصاص عمال الرسول الآخرين دون ان يكون لهم شأن يذكر فى الامور السياسية .

واما المكانه الاقتصادية للبحرين فهى عريقة بحكم موقع البحرين على سواحل الخليج العربى فترد اليها السلع الهندية كالمسك والقنا وتصدرها الى الحجاز وذلك عن الطريق التجاري عبر الربع الخالي الى البحر الاحمر ثم ان البحرين تشتهر بالانسجة كبز هجر وبالمحاصيل الزراعية كالتمور خاصة في هجر والتى تصدر الى مكة المكرمة(٧٤) .

وكانت قبيلة عبدالقيس تمتهن

التجارة من البحرين الى الحجاز وتبادلها بالنقود الذهبية والفضية من الحجاز .

واذا استعرضنا الاحداث التى مرت بها الدولة الاسلامية عبر تاريخها واثر تلك الحوادث على النشاط الاقتصادى فى البحرين فإن حركة (الخوارج) التى لم تساهم البحرين في ادوارها الاولى عندما بدأت فى اليمامة الا أن البحرين اصبحت مركزا هاما لحركة الخوارج حينما انضم اليها بنو عبدالقيس فانشغلت الدولة بالحروب والفتن فتدهورت التجارة واهملت الزراعة فى البحرين حيث اصبحت المنطقة ساحة للنزاعات القبلية بين مناصر للخوارج ومعارض لهم هذا من جهة ومن جهة اخرى بين الخوارج انفسهم وبين سلطة الخلافة الاموية التى لم تشجع التجارة في البحرين مع انصراف دولة الخلافة الى التوسع بالفتوحات في اقصى الشرق والغرب وبحروب متواصله فى بلاد الروم والمعروف ان الذي ادخل حركة الخوارج فى البحرين هو (نجدة بن عامر الحنفى) عام ٦٧و ٦٩هـ/ ٦٨٦/ ٦٨٨م فانضم اليه بنوعبدالقيس فقاتل بنى تميم واجبرهم على اداء الصدقة . وكانت اهم دوافع انضمام بنوعبدالقيس فى البحرين الى حركة الخوارج هى العصبية الاقليمية اذ أن البحرين اخذت تفقد اهميتها التجارية فلم تعد سلع الشرق تفرغ في موانيها بل اخذت البصره المكانه التى كانت للبحرين . كما ان العصبية القبلية جعلت قبيلة عبدالقيس تنضم للخوارج لأن بعضهم لم يعتنق الاسلام عن رغبه ذاتيه اكيده او انهم أسلموا ولما يدخل الايمان في قلوبهم خاصة وأن الشعارات التى اطلقها الخوارج شعارات دينيه فى الظاهر فانضمت بعض من القبائل لهذه الحركة .

ولما كانت قبيلة (بنوعبدالقيس) قد وجدت حركة الخوارج خروجا على السلطة الاموية وبالتالى فإن بعضهم وجد المجال مناسبا للحصول على الغنائم . اما (ازد) البحرين فقد كانوا ضد بنى عبدالقيس لذا فقد قاوم الازد الخوارج بدافع من العصبيه القبلية . هذا وان بعض (الموالى) فى البحرين انضموا هم ايضا الى حركة الخوارج . واخيرا فقد استطاعت الدولة الاموية القضاء على حركة الخوارج في البحرين وذلك لقوة الدولة خاصة فى عهد الخليفة عبدالملك بن مروان وأبنائه وقواده . ثم ان قادة حركة الخوارج لم يخططوا لحركتهم ولم يتفق قادتهم فيما بينهم ففشلت حركتهم[٧٥] وبالقضاء على حركة الخوارج انتعشت التجارة والزراعة والصناعة وصيد اللؤلؤ ولكن صراعا جديدا بدأ يظهر فى البحرين اثر انتفاضة (الزنج) التى تزعمها على بن محمد بن عبدالرحيم فى البحرين ٢٤٩هـ/ ٨٦٣م واعلن نفسه انه المهدى المنتظر فاحرز نجاحا فى اول امره فى هجر من بلاد البحرين ولكن

مالبث ان قاتله اهل البحرين فخرج مع اتباعه صوب البادية وعاد للبحرين بجيش من اهل البادية ولكنه فشل فكر راجعا نحو البصره عام ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م ولم يفلح هناك . وكان لهذه الحركة تاثير على احوال البحرين الاقتصادية خاصة وان فتنة اخرى ظهرت في البحرين وهى حركة (القرامطة) التى اسسها فى البحرين فى عام ٢٧٨هـ / ٨٩١م ابوسعيد بن بهرام الجنابى واستمرت فى صراع مع دار الخلافة العباسية فاضطرب الامن في البحرين وبالتالى تدهورت الحالة الاقتصادية حتى استطاعت بعض قبائل البحرين ومنهم بنو عقيل وبنو تغلب القضاء على القرامطة فى القطيف وما جاورها كما ان (أبا البهلول) قد وضع بداية النهاية لدولة القرامطة . على يد العيونيين الذين اسسوا دولتهم على انقاض القرامطة فى البحرين وذلك عام ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م واستمرت دولتهم حتى عام ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م .

والعيونيون هم فخذ من قبيلة عبدالقيس يسكنون فى واحة تسمى العيون فى الاحساء ورغم ما تعرضت له الدولة العيونية فى البحرين من حروب مع القرامطة والخلافات بين السلاجقة والعيونيين ثم بين امراء العيونيين انفسهم والتى ادت الى نهاية هذه الدولة التى دامت نحو قرنين وفيها انتعشت الاحوال الاقتصادية فى فترات من تاريخها الملىء بالحروب والفتن الداخلية ثم يبدأ الغزو المغولى فى القرن السابع الهجرى او الثالث عشر الميلادى فتتدهور الاحوال الاقتصادية والاجتماعية فى البحرين شأن مناطق الخليج الأخرى .

الهوامش

(١) د. محمد رياض .. دراسات الخليج والجزيرة العربية ٣٦/٢٢١ .

(٢) كاظمة : مدينة قديمة تقع اليوم في الشمال الغربي من مدينة الكويت وقد سكنتها قبيلة اياد ثم قبيلة بكر بن وائل .. ومر بها خالد بن الوليد ٦٣٣م في حربه مع الفرس وانتصاره عليهم .. انظر حسين خلف /تاريخ الكويت السياسي ١/٢١/٢٢ .. وقد بقيت كاظمة الى اواخر العصر العباسي ثم تركت بعد ذلك /د. عبدالرحمن النجم .. البحرين في صدر الاسلام .. ص٦٧ .

(٣) جلفار او جرفار : وهي اليوم (راس الخيمة) انظر /ياقوت الحموي معجم البلدان ١/٣٤٧ .. د. فالح حنظل رسائل الرسول ص٣٥ .

(٤) الوثيقة ١٨/٥٤ .. الاعلاق النفيسة ص١٨٢ .. ابن الوردي زين الدين بن مظفر .. خريدة العجائب ص٧٦ .. معجم البلدان ٤/٩١ .. ابن رسته .. الاعلاق النفيسة ص١٨٢ .. ابن خلدون تاريخه ج٤ /ص١٩٧/ (العذيب ماء على ليلتين من البصرة) ..ومعجم البلدان /١/٥٣٦ .

(٥) علي بهجت .. قاموس الامكنة والبقاع ص٢١٠ /وابراهيم بن محمد بن مبارك .. المنهل ص٢٨ .

(٦) معجم البلدان ٤/١٣٥ .. وفي النقائض ١/١٧٥ (ان قطر من ارض البحرين) .. انظر لسان العرب ٥/١٠٦ .. والهمداني صفة جزيرة العرب تحقيق محمد علي الاكوع .. هامش ٤/ص٣٢٥ .

(٧) محمود بهجت سنان .. البحرين درة الخليج العربي ص٥٩ ـ ٦١ .

(٨) الخطيب البغدادي .. تاريخ بغداد ١/ص٩٦ .

(٩) معجم البلدان ١/٣٤٧ (والزيج الذي اشار اليه ياقوت) هو (الزيج الصابي) لابي سنان البتاني المتوفى ٣١٧هـ/٩٢٩م .

(١٠) النبهاني .. التحفة النبهانية ص١١ .. وجيمس هورسبرغ .. مرشد السفن للاسفار ص٣١٥ ذكر ان (تانيير) قد ابحر الى البحرين في عام ١٨١٧م ووصل الى مغاصات البحرين الواقعة على خط عرض ٢٦ درجة و٥٠ دقيقة شمالاً .

(١١) الوثيقة ١٨/٥٤ .

(١٢) معجم البلدان ١/٣٤٧ وفالح حنظل رسائل الرسول ص٢٩ .. وقدري القلعجي .. الخليج العربي ص١٠ .

(١٣) الوثيقة ١٨/ ٥٤ .
(١٤) القرين هي الكويت حالياً .
(١٥) د. علي ابا حسين .. دولة الجبور في البحرين .. الوثيقة ٣/ ٩٧ .
(١٦) الوثيقة ١٧/ ١٣٨ و١٤٨ .
(١٧) معجم البلدان ١/ ٢٧٤ و٣٩٥ تحقيق بروكلمان ١٨٦٦م والحسن الاصفهاني .. بلاد العرب ص٢٧٩ و ٢٨٠ .. وقال ياقوت وأوال ايضاً : صنم كان لبكر بن وائل وتغلب بن وائل .. انظر معجم البلدان ١/ ٢٧٤ .
(١٨) ياقوت ١/ ٢٧٤ .. (وعمر بن قميئة البكرى الوائلي) شاعر جاهلي له ديوان شعر مخطوط خرج مع امرىء القيس في توجهه الى قيصر فمات في الطريق فكان يقال له (الضائع) وفيه يقول امرؤ القيس .
بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه وايقن انا لاحقان بقيصرا
انظر الزركلي الاعلام ٥/ص٨٣ .
(١٩) ت. بوتس .. اوال والمحرق/مجلة الوثيقة العدد التاسع ص١٥٥ ـ ١٥٦ .
(٢٠) انظر الحربي (ت ٢٨٥هـ) ، وابن رسته الذي كان حيا فيه (٢٩٠هـ) .. وابن خرداذبه (ت ٣٠٠هـ) واعتمد عليه قدامة (ت ٣٢٠هـ) .. والهمداني (ت ٣٢٠هـ) وياقوت (ت ٦٢٦هـ) .. وابن الفقيه الهمذاني (ت ٣٣٤هـ) .
(٢١) ابن دريد (ت ٣٢١هـ) في كتابه الاشتقاق .. وابن حزم(ت ٤٥٦هـ) في جمهرة انساب العرب وابن عبدالبر (ت ٤٦٣هـ) في الانباه .
(٢٢) ابن ماكولا (ت ٤٧٥هـ) الاكمال ج١ /ص٩٩ والسمعاني (ت ٧٣٩هـ) الانساب (مخطوط) ورقه ١٨٠ وياقوت (ت ٦٢٦هـ) معجم البلدان والبغدادى (ت ٧٣٩هـ) مراصد الاطلاع ١/ ٤٢٧/ ٤٠٤، طبع بريل ١٨٥٢م وابن السياهي (ت ٩٩٧هـ) اوضح المسالك في معرفة البلدان والممالك .. مخطوط ورقة ٧٩ .
(٢٣) البلاذري .. فتوح البلدان ص١٠٧ .. والمرزبان : منصب اداري يعني حاكم منطقة او ولاية .
(٢٤) عبدالرحمن عبدالكريم النجم .. البحرين في صدر الاسلام .. ص ١١٨ ، ١٩٧٣م /كايتاني .
ANNALI DE LISLAM ٦/ ١١٢ .
(٢٥) ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) الاصابة في معرفة الصحابة .. وابن عبدالبر (ت ٤٦٣هـ) في الاستيعاب .. وابن الاثير (ت ٦٣٠هـ) في اسد الغابة .. النجم .. ص١٠ .
(٢٦) ابو يوسف في كتاب (الخراج) وابن سلام (الاموال) الشافعي .. (الام) .. ابن اسحاق (السيرة) ، وسيرة ابن هشام ، والنجم ص١١ .
(٢٧) الاشعري .. مقالات الاسلاميين .. البغدادي .. الفرق بين الفرق .
(٢٨) ابن دريد .. جمهرة انساب العرب .. والازهري تهذيب اللغة .. والجوهري .. الصحاح ثم معاجم اللغة وقواميسها ودواوين الشعراء للشعراء الاوائل في صدر الاسلام .. وابن الانباري شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات .. ذكر ذلك النجم ص١١و١٢ .

(٢٩) د. صالح العلي .. التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجري والانسجة في القرنين الاول والثاني وابن بليهد صحيح الاخبار ولويس شيخو .. شعراء النصرانية وحنافاى .. انتشار المسيحية في البحرين المباركوري في ثقافة الهند عن النجم ص١٢ .

(٣٠) مسلم . صحيح مسلم . جـ ٣ . ص ٣٩١ وشرح النووى (باب الجهاد) . ود . عزالدين ابراهيم . الدراسات المتعلقة برسائل النبى . المؤرخ العربى ٢٣/٢٤٠/١٩٨٣م .

(٣١) ابن حنبل . المسند ٢٦٢/١ و٧٤/٤ و٧٥/ وابوداود : حديث ٤٢١٤/ والنسائى جـ ٨ ص ١٧٤/ وابن ماجه : حديث ٣٦٣٩ و٣٦٤٠/ وابن سعد : الطبقات جـ ١/ ص٢٥٨ . وابن كثير . جـ ٣/ ص ٤٩٤ والطبرى . تاريخه ١٥٥٩/٣ ومحمد حميد الله . الوثائق السياسية ص ١١ و٧٤ والقلقشندي . صبح الاعشى ٣٧٧/٦ . وابن سيد الناس . عيون الاثر ٢٥٩/٢ و٢٧٠ . والحلبي السيرة الحلبية ٥٥/٣ ـ ٩٠ وابوالحسن الندوى . السيرة النبوية ص ٢٥٤ ـ ٣٣٣ والمؤرخ العربى ٢٤٢/٢٣ ـ ٢٤٣ .

(٣٢) وليم ميور . حياة محمد ص ٢٥٤ ـ ٣٥٧ . وليون كايتانى . حوليات الاسلام ٧٢٥/١ ومرجوليوث محمد (ص) صفحة ٣٦٤ .

(٣٣) توماس ارنولد . الدعوة الى الاسلام ص ٤٨ . ونولدكه . دبلوماسية محمد ص ٨٣ .

(٣٤) ابن هشام . سيرة ابن هشام ، ٢٥٤/٤ و ٢٥٥ .

(٣٥) فالح حنظل . رسائل الرسول ص ٤٩ و٥٠ و٥٧ و٨١ والدكتور عون الشريف . نشأة الدولة الاسلامية ص ٧٧ والوثيقة ١٤/٦ و١٢/٥ والبحرين فى صدر الاسلام ص ١٠١ ـ ١٠٧ .

(٣٦) البلاذرى ص ٧٨/ ياقوت ص ٥٠٨/ البحرين فى صدر الاسلام ص ١٠٢ و١٠٣ الوثيقة ٤٣/١ و٤٩ و٥٣/٤ و ١٤/٦ .

(٣٧) مجموعة الوثائق السياسية والخلافة ص ٧٩ و٨٠ ورسائل الرسول (صن) ٥٧ و٥٨ والوثيقة ١٢/٥ و١٣/٦ حيث وردت كلمة (يديك) كما وردت فى مصادر اخرى (يدك) .

(٣٨) الوثيقة ١٤/٦ . ورسائل الرسول وموفدوه/ ص ٥٧/ ابن طولون . اعلام السائلين ص ١٤١ .

(٣٩) ن . م . س/ ص ٥٨ ـ ٦٠ .

(٤٠) الوثيقة ٤٦/١ .

(٤١) طبقات ابن سعد ٢٨٣/ ورسائل الرسول وموفدوه ص ٥٩ . والوثيقة ١٤/٦ .

(٤٢) ن . م . س . ص ٦٠ .

(٤٣) فتوح البلدان ٩٢ والوثيقة ١٤/٥ ورسائل الرسول ص ٦٠ ـ ٦١ و فى الوثيقة ١٩/٦ اورد نص الرسالة كالتالى : (اما بعد فانى بعثت الى المنذر بن ساوى من يقبض منه ما اجتمع عنده من الجزية فعجله وابعث ما اجتمع عندك من الصدقة والعشور

والسلام . (وكتب ابى بن كعب) .

(٤٤) فتوح البلدان ص ٩١ . رسائل الرسول ص ٦٢ . والوثيقة ٥/١٣ و١٤ وفي الوثيقة ١٨/٦ اعتبرت الرسالة الثالثة . وابو يوسف القاضى . الخراج . ص ١٣١ .

(٤٥) الوثيقة ١٨/٦ .

(٤٦) فتوح البلدان . ص ٩١ . حالم : بلغ الحلم والرشد . رسائل الرسول وموفدوه ص ٦٤ والوثيقة ١٦/٦ .

(٤٧) رسائل الرسول ص ٦٥ . والوثيقة ١٣/٥ وفيها وردت كلمة (عندى) بدلا من (اتاني) ، كما ان (لو) لم ترد في الوثيقة ١٣/٥ . اما العدد ٦/ صفحة ١٦ فلم ترد فيه الرسالة اصلا .

(٤٨) ن . م . س/ ص ٦٦ . وفي الوثيقة بعددها الخامس/ ص ١٣ و١٤ لم يذكر (لا) في جملة (وان لا تغووا) كما وردت (احمل) بدلا من (يحمل) . وحذف (لن) يضل . وحذف (له) عند الله .

(٤٩) الطبقات الكبرى ـ ٢/ ٧٧ . ورسائل الرسول . ص ٦٨ .

(٥٠) الوثيقة ١/ ٤٣ و ٥/ ١٣ و ٦/ ١٧ .

(٥١) الوثيقة ١/ ٤٣ . ورسائل الرسول وموفديه ص ٥٠ .

(٥٢) بوش . المستشرقون الالمان . ج ١٧ . والمؤرخ العربى ٢٣/ ص ٢٥٦ ورسائل الرسول وموفدوه/ ص ٦٩ و٧٠ .

(٥٣) فتوح البلدان ص ٩٠ وسورة المائدة/ اية ١٠٥ .

(٥٤) رسائل الرسول ص ٧١ .

(٥٥) رسائل الرسول ص ٦١ و ٧٢ والوثيقة ١/ ٤٩ و ٥/ ١٤ و ٦/ ١٩ .

(٥٦) رسائل الرسول وموفدوه ص ٧٣ .

(٥٧) رسائل الرسول وموفدوه ص ٧٣ .

(٥٨) فتوح البلدان ص ٧٩ . ورسائل الرسول ص ٨٠ .

(٥٩) رسائل الرسول/ ص ٨١ .

(٦٠) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ٢/ ٧٦ . والبكرى . معجم ما استعجم ص ١٣٠ و ٢٢٨ و ٥٦٥ ود . النجم . البحرين في صدر الاسلام ص ١٠١ .

(٦١) البلاذرى . فتوح البلدان/ ٧٨ و ٨٠ . وياقوت . معجم البلدان ١/ ٥٠٩ . والبحرين في صدر الاسلام ص ١٠١ .

(٦٢) فتوح البلدان ص ٨٩ . وفالح حنظل . رسائل الرسول وموفدوه ص ٥٥ و ٥٦ والوثيقة ٦/ ١٢ .

(٦٣) ابن سعد . الطبقات الكبرى ٧ و ٤ ق/٢/ ١٩٢
وابن الاثير . اسد الغابة ٤/ ٢٠٣ و ٢٠٤
البلاذرى . فتوح البلدان ص ٨٧ .
وياقوت . معجم البلدان ١/ ٥٠٨
وابن كثير . البداية والنهاية ٨/ ١١٣ .

(٦٤) عبدالرحمن النجم . البحرين في صدر الاسلام ص ١٠٣ وابن كثير . البداية والنهاية ٥/٤٠ .
(٦٥) الاصابة ٣/٤٣٨ .
(٦٦) ن . م . س ٢/١٧١ . والبحرين في صدر الاسلام ص ١٠٤ و ١٠٩ ـ ١١٢ .
(٦٧) شفار : جزيرة بين أوال وقطر وكانت من اعمال هجر .
(٦٨) الطبري . تاريخه ص ٨٤٥ . والشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة وعبدالملك الحمر . البحرين عبر التاريخ جـ١ ص ١٠٤ ـ ١٠٦ .
(٦٩) ابن حجر . تهذيب التهذيب ٥/٢٧٤ ، وانتشار العرب في اقاليم الخليج الشرقية ص ٥٩ ـ ٧٤ . البلاذري ص ٤٩ الاصطخري ص ١٤ .
(٧٠) البخاري ، الجامع الصحيح ٣/١٦٥ . وابوداود ، السنن ، ١/٢٦٤ . البيهقي السنن ٣/١٧٦ .
(٧١) البلاذري . فتوح البلدان ص ٨٣ .
(٧٢) البكري . معجم ما استعجم ص ٤٠١ .
(٧٣) ابن سعد . الاصابة ٢/٧٧ و ٣/٨٨ والبحرين في صدر الاسلام ص ٦١ و ٦٢/ وجواثا اليوم تقع في وسط وشرقي قرية الكلابيه الحالية .
(٧٤) ابن سعد ٢/١٧١ و ٥/٤١١ والسنن للترمذي ٣/٥٩٨ .
(٧٥) البحرين في صدر الاسلام ص ١٢٧ ـ ١٣٧ .

عربُ الصّحراء

تاليف : هارولد ديكسون   ترجمة : حمد السعيدان

حكايات مشهورة من أمسيات البادية

يرجع البدو أسباب المرض الى أحد شيئين .. أمر الله أو الحسد والسحر ومن المعتقد بين البدو أن بعض النساء يستطعن عمل رقية تسحر الرجال و النساء أو تعويذة لدفع السحر ، وتشتهر نساء



5

ننشر فيما يلى من صفحات ،الجزء الخامس من كتاب هارولد ديكسون الذي ينشر هنا لاول مرة بالعربية . والمؤلف في هذا الجزء يتوغل بنا أكثر في حياة البادية العربية التي عاش فيها سنين طويلة وأحبها بعمق . ويقدم لنا صورة شاهد عيان لبعض الافكار والمعتقدات والعادات بل والكوارث التى كانت تعترى البادية فى أوائل القرن .

الوثيقة

الأمراض .. ومعتقدات السّحر .. والحسد ..

(الصلب) بأعمال السحر ويسمى (سحر صلبه) ويشاع أن نساء الصلب يتمتعن ببراعة اتيان السحر وتسليط الارواح الشريرة ، هذا الى جانب مهارتهن بتحضير السموم ووصفات الغرام لمن يريد . وكذلك مسائل التفريق بين المرء وزوجته عن طريق استخدام المواد اللازمة كالنفث في العقد وغيرها من العزائم . كما تشتهر بذلك (الكاوليات) من بعض قبائل العراق حيث يلبس أكثر الناس أنواعا مختلفة من الاحجبة وتسمى (جامعة) وهى حقيبة جلدية صغيرة تحتوى على مجموعة من التعاويذ والآيات القرآنية لحمايتهم من الاخطار والشرور . أما بعض القبائل البدوية فتعتبر الاحجبة خطأ كبيراً فهم يعتمدون على الله وحده.

اخبرنى أحد الكويتيين عن بعض النساء اللاتى يصنعن الرقيات للاحتفاظ بحب أزواجهن ، خاصة فى حالة وجود زوجتين ، ومثل تلك



الرقيات تنجح غالبا لدرجة أنها قد تقتل الرجل بقوة فاعليتها . ومن الضرورى لنجاح تلك الرقية أن تحضر الزوجة بضع شعرات من رأس زوجها أو لحيته عندما يكون نائما ، وتعطيها لناسخة الرقية ، وعلى الزوجة أن تسعى لتدبير أمرها لكي يتناولها الزوج فى طعامه أوشرابه .

وعندما يصاب الرجل أو المرأة بضرر الرقية يعالج المصاب بالصورة التالية :

تحضر سلطانية بها ماء بارد ، ويوضع فى الماء مقص ، ومشط نسائى ، ورأس فأس الحطاب ، وابرة صغيرة، واخرى كبيرة تستخدم فى صنع الاشرعة ، وحصاة صفراء مستديرة . ثم توضع السلطانية فوق رأس المريض ثم يصب رصاص مصهور في الماء البارد . وتمسك السلطانية فوق رأس المريض لعدة ثوان ثم تزاح . ويقال أن العين الشريرة تخرج مباشرة من المريض الى السلطانية (الوعاء)والمواد التى تحتويها .

وتنتشر الكهانة والعرافة بين نساء البدو ، وخاصة الصلبة . والطريقة المطيرية لقراءة البخت ـ وهى وسيلة للتسلية أكثر منها تنبؤا بالغيب ـ هى استعمال الودع ، ونوى التمر وقطع من الفخار تخلط بعضها بالبعض ثم تلقى بطريقة تلقائية على الارض ، وتلقيها العرافة ثلاث مرات أو خمس مرات لتقرأ طالع شخص ما ، وتنثر الودع فى مساحة صغيرة ، كما يلقى النرد ، ثم تفحص تلك القطع وتلاحظ طريقة توزيعها ، ثم تحكى قصة قصيرة ، فمثلا قالت لي : « ان ابنك الصغير بعيد عبر البحار ، وهو يكتب لك الآن خطابا وسيصلك الخطاب فى خلال ستة أيام . وهو يفتقدك كثيراً ، وهناك رجل طيب يعتنى به » .

ولتحديد القيام برحلة أو البدء فى مشروع عمل ، يتبع البدو الطريقة التالية : يغلق الرجل عينيه ويمد يديه أمامه ، وراحتاه مفتوحتان أمام صدره ، وأصابع يديه تشير الى بعضها البعض عندئذ يحاول ببطء وعيناه مغلقتان أن يضم أصابعه معا ، لكى يتلامس طرفا الاصبع الوسطى من كل يد تماما . واذا حدث ذلك ، فإن الحظ الحسن سيلازم تنفيذ الرحلة أو المشروع ، واذا لم يحدث التلامس التام . فلا يتم اتخاذ أى خطوات في تنفيذ الرحلة أو المشروع ، وعادة يتكرر ذلك الاختيار ثلاث مرات .

ولجلب الحظ الحسن ، عندما يأكل البدوى التمر ، يلقي النوى من فوق كتفه ، معتقداً ان كل نواة تلقي ترمز الى جمل يحصل عليه في غارة قادمة !

ويعتقد البدوى أيضا في الاشباح والجن والأرواح ، وكانوا يخبروننى أنه من الحكمة تجنب مدافن البدو ، وخاصة فى الليل ، وتفسير ذلك أنه في الظلام ، وخاصة حوالى منتصف الليل ، تخرج أرواح الموتى من قبورها وتجلس عليها وتتبادل الحديث ، واذا حدث واقترب شخص من عالمنا ، فإن

الارواح غالبا ما تصيح به وتسبه وتلعنه . وأحيانا تتجاوز ذلك ، وتمنع أى شخص من المرور وذلك بالقاء الحصى فى أعقابه . والمقبرة الغربية الكبيرة في الكويت مشهورة بالجن ، ويروى الناس قصصا غريبة عن أشخاص تجرأوا على الذهاب قرب ذلك المكان ولا حقتهم بل وهاجمتهم تلك الارواح الشريرة .

ويعتبر بدو الحسا والكويت شجرة العوسج ذات منزلة خاصة وتحت حماية الجن ، فلا تقطع أبدا أو يكسر أى فرع من أغصانها ومن المعتقد أن من يسبب ضررا لتلك الشجرة تلاحقه اللعنات ويتعذب ، وخاصة فى الليل من قبل الجن الأشرار . وتوجد أيضا منطقتان في الشرق الشمالى للجزيرة العربية من المعتقد أنهما مسكونتان . الاولى حفرة كبيرة تسمى أبـرق الخليفة ، وتشتهر بسقوط حجر نيزكى (شهاب) فيها في القرن الماضى .

وكل البدو الكويتيين يعرفون ذلك المكان ، ولكنهم يتظاهرون بالخوف من الاقتراب منه اذ يقال أنه مسكن للجن . والمنطقة الثانية هى « عين العبد » ، عند الحافة الجنوبية لمنطقة الكويت المحايدة . والعين هى بركة من الماء اتساع سطحها أربعون قدما ، وتنبع فى وسطها العين التى تتدفق من الارض . والمياه محملة بشدة بمعدن (الكبريت) ورائحتها مثل البيض الفاسد وتنتشر فى الجو مسافة ميل حولها . ويحكى العرب قصة وجود « المخلوق الاسود » الذي يسكن وسط البركة وله رأس زنجي .

وهـذا الحيـوان أحـد الجن ، يطفوبين حين وآخر الى السطح ، ويظهر لبعض الوقت ثم يختفى مرة أخرى . وفى أحيان أخرى يقال ان هذا المخلوق يخرج من وسط بركة الماء (العين) ثم يجلس على حافتها . وقد زرت تلك المنطقة المسكونة مرتين ، ولكنى لم أر شيئا يدعو للدهشة . وقد رفض كل مرافقى الاقتراب اكثر من ٣٠٠ ياردة ، ما عدا واحدا ، هو الرجل الشجاع مرشد الشعرى .

للبدو أيضا معرفة طبية واسعة ، ولكن الامراض الشائعة تعالج مع الاسف بطريقة بدائية جدا . والأدوية المعتادة تعتمد غالبا على استعمال الاعشاب الطبية أو الأدوية الطبية الأخرى .

أعشاب .. وعقاقير طبيّة

● الحنـاء والكحل . لكـل منهما استخـدامـات طبيـة وجمـاليـة . وتستخدم الحنه السـوداء لباطن الاقدام والأيدى ، والحنه الحمراء لأطراف أصابع الأيدى والاقدام وهو تقليد سائد بين نساء المدن ، ولكن الفتيات البدويات يستعملن الحنه الحمراء فقط ، ولتزيين أيديهن وأظافر

أيديهن وأقدامهن فقط . ولا يزين بقية أقدامهن . رغم أن استعمال الحنة في الأصل لون من النضارة والجمال ، فمن المعروف أنها تجعل ملمس البشرة خشنا ، وخاصة بشرة الاقدام ، وتعطي للجلد مناعة ضد التشققات والجروح . والرجال المشتغلين بصناعة صيد اللؤلؤ يضعون الحنه دائما في أكفهم لكى تصبح حشنة ولا تتعرض للتقرحات عند التجديف وسحب الغواصين . والكحل عبارة عن مسحوق الأنتيمون يستعمل عادة لتجميل العيون وزيادة سوادها . ولكن يدهن به أيضا داخل الجفون كعلاج لالتهاب باطن الجفون والعيون المحتقنة .

● يستعمل بول الناقة بكثرة كمطهر وأيضا كمحلول لغسل العين وتطهير الجروح . وهو محلول مفضل لغسل الشعر عند البدو اذ أنه يصبغ الشعر قليلا ويقضى على الحشرات الطفيلية بالرأس في الحال ، ويستعملونه أيضا كمنشط عام .

● الجعدة عشبة طبية صحراوية تغلى فى الماء ثم تؤخذ كمطهر مفيد جدا . ويعتبرها البدو أيضا علاجا لما يسمونه « حمى البصرة » والمحتمل أنها الملاريا .

● وتشرب المرأة التى تسكن قرب البحر حساء السمك ليزيد لبنها . وتقدم أسماك الاسبرط (العوم) المجففة للبقر لنفس السبب . ويعتقد سكان المدن أن لحم سمك القرش يفيد فى علاج العجز الجنسي عند الرجال .

● اذا عض ثعبان شخصا ما ، يشق أولا مكان العضة بعمق بواسطة سكين لكى يتدفق الدم ، ثم يوضع ضاغطان لوقف النزف على المكان الذي يعلو العضة . ويجب ذبح خروف او ما عز في الحال ، ويلف الطرف المجروح فى جلد الحيوان وهو ما يزال ساخنا ، ومن المستحسن لف جسم الشخص كله بجلد الحيوان ، وذلك لكى يعرق بشدة . واذا كان الجو باردا ويظهر العرق ببطء ، يرقد المريض على ظهره وتشعل نار على جانبيه قريبا منه . ثم يعطى المريض شايا مصنوعا من نبات الرمرام ، ان وجد ، ويغطى مكان العضة تماما بمسحوق الرمرام .

يجب التنبه الى منع المريض المصاب من النوم ، ويجب أن يظل مستيقظا لمدة أربع وعشرين ساعة بأى وسيلة كانت . ثم يزال جلد الحيوان ولكن الضمادات تظل في مكانها ليلا ونهارا لمدة عشرين يوماً ، رغم آلام وورم العضو المصاب .

وقد أخبرتنى امرأة من قبيلة الرشاينة ، من قطر ، وكانت حية الكوبرا قد عضتها فى كاحلها ، أنها عولجت بالطريقة السابقة وفي النهاية تورمت قدمها لدرجة أنها « انفجرت » عند مشط القدم ، وسال منها سائل صديدى بكميات كبيرة . واعتقد ان ذلك سم الثعبان ، ولكن الاحتمال الأكبر أنه كان صديدا غنغرينيا تكون نتيجة توقف الدورة الدموية .

ونبات الرمرام ، الى جانب استخدامه كعلاج ضد لدغات الثعبان ، فهو يستعمل أيضا كعلاج

للفم المحتقن ، واللثة الضعيفة ، وتقرحات الفم لدى الاطفال ، والأفواه الملتهبة بسبب مرض الاسقربوط . وبالنسبة للكبار يغلى النبات فى الماء ، والحساء الرقيق الناتج عنه يستعمل كمحلول لغسيل الفم بعد تبريده . وبالنسبة للاطفال يسحق نبات الرمرام بواسطة الهاون ، ويخلط بالقرمز (وهو صبغة حمراء تستعمل كعلاج للعيون المحتقنة عند سكان المدن) وتدهن به الاماكن الملتهبة باستعمال الأصابع .

ولدى القبائل العراقية ، يعتقد أن حجر السليمانية (عين الهرة) يزيل كل الآلام والسموم اذا دهن به مكان لدغة العقرب .

● آلام الرأس ، والمعدة والظهر تعالج عن طريق الكى ، فيكوى الصدر المصاب بالبرد ، وتكوى معدة الاطفال بابرة ساخنة فوق منطقة البطن كلها ، ويستعمل الكى كذلك كعلاج لمرض السل ، وهو مرض خطير بين بدو الجزيرة العربية ، وهو يصيب النساء والاطفال أكثر من الرجال . وعندما يصاب شخص ما بالسعال مع درجة حرارة منخفضة ، ويقوم أقاربه بوسمه بالنار مباشرة مرتين فى الرسغ الايسر أمام اصبع الابهام . واذا لم تتحسن صحته خلال خمسة عشر يوما أو نحوها ، يوسم بالنار مرة أخرى ، كما حدث فى المرة السابقة ، ولكن فى الرسغ الايمن . وأخيرا ، اذا لم يبد أى تحسن ، يوسم أسفل اللسان بالنار كما سبق . وهذه العملية مؤلمة بدرجة كبيرة ، وتسبب تورم الفم لدرجة أن المريض لا يستطيع التحدث اطلاقا لعدة أيام . وبعد ذلك لا يتخذ أى اجراء بالنسبة للشخص المصاب . واذا مات أو ماتت ، اذن « ما باليد حيله .. فقد حان أجله » .

● هناك عدة اصابات بمرض الزهرى بين البدو ، وعلى حين أن سكان المدن يعرفون بطريقة أو بأخرى كيفية علاج هذا المرض ، فإن البدو كثيرا ما يهملونه وينقلون العدوى لزوجاتهم وأطفالهم ، لدرجة أن عائلات بأكملها مصابة بذلك الداء . وقد أخبرنى مطيرى أن الأوراق الجافة المأخوذة من ثلاثة نباتات صحراوية معروفة ، القيصوم ، الشيحة ، والحرمل كان يستعملها البدو ولها تأثير بالغ ضد مرض الزهرى ، عند تدخينها فى الغليون .

● ومن أهم السمات المثيرة موقف البدو من المرض ، وخاصة الجروح والالتهابات ، وهو اعتقادهم الجازم أن روائح معينة لها تأثير ضار على مسار الشفاء ، وبالتالى ، فمن الشائع ان ترى البدو يد خلون مدينة الكويت وفتحات أنوفهم مسدودة بقطع قماش قذرة ، والتي يحتفظ بها المصاب في أنفه حتى يحين وقت مغادرته المدينة مرة أخرى . وطبقا لما يقول دكتور سن . ميلرى طبيب مستشفى الارسالية الامريكية فى الكويت فإن تلك السدادات غالبا ما تكون مشبعة برائحة كريهة لمادة صمغية مأخوذة من نبات من فصيلة الجزر يسميه

العرب (حلتيت) ، والمعتقد ان هذه الرائحة النتنة لتلك المادة الصمغية سوف تقضي على تأثير أي رائحة طيبة تمر بها .

وبسبب التأثير الذي تسببه الروائح على الجروح ، فإن الشخص المصاب بجرح أو بكسر فى العظام عادة ما يوضع فى مسار الرياح داخل الخيمة ، ويجب أن تظل فتحات أنفه مسدودة . ويجب تجنب الاطعمة وأطباق الحلوى والا تقيح الجرح .

والأكثر ضررا هو الاقتراب من رجل على جنابة ، ولم يجد وقتا للاغتسال ، أو امرأة حائض ، اذ يعتبر كلاهما نجسا . والروائح التى لا تعتبر ضارة تشمل دخان حرق روث الجمال ،

ودخان التبغ ، ورائحة القطران المعد لدهان الجمال والذي يعالج الجرب . ورائحة القهوة المحمصة .

● فى حالة الجدرى ، من المعتقد أن روائح أدمية معينة ورائحة اطعمة محددة لها تأثير فعال على المريض . وبما أنه ليس معروفا أى الروائح مفيدة ، وأى الاطعمة تساعده على التحسن ، فيعرض على المريض مجموعة روائح نفاذة ، حيوانات ، أصدقاء من الجنسين ، الخ .. ويعطى أنظمة غذائية مختلفة ، على أمل العثور على المناسب منها لشفاء المريض .

● الكسور البسيطة يعالجها البدو بطريقة مرضية . ويفهمون استعمال الجبائر ، وعادة قبل وضع الجبائر يربط العضو المكسور بخليط من طحين الشعير ، والملح والبيض ، وفي نهاية مدة خمسة وعشرين يوما تفك الضمادة والجبيرة . وفى فترة التئام العظام يشرب المريض اللبن أو حليب الناقة فقط .

● في وقت السلم يستخدم بول الأطفال أحيانا كدهان للجروح كنوع من . المحلول المطهر . وفي الغارات يغسل رفاق الجرحى جروح المصابين ببولهم لنفس الغرض ، ولكن للحصول على أحسن النتائج يجب أن يأتى البول من شباب شجعان ، وليس من الرجال الأكبر سنا . وعلاج آخر للجروح يؤخذ غشاء الحمار الوليد ويجفف . ويقطع جزء منه . وينقع فى الماء المملح ويدهن به الجرح وتربط فوقه ضمادة . ويستعمل ذلك أيضا كعلاج للبثور .

● أغرب ما هناك هو علاج عضة الكلب . فاذا عض كلب مسعور شخصا ما فيجب عليه في الحال ان يجد رجلا من فخذ البرزان من قبيلة المطير ويشرب ملء فنجان قهوة من دمه (ويدفع ثمنه) . ودم البرزان المأخوذ بتلك الطريقة يعتبر بين كل قبائل الشرق الشمالى من الجزيرة العربية علاجا نافعا مؤكد النجاح .

قصص.. وطرائف غريبة

العربي بارع جدا في سرد النوادر والحكايات، وأن صدق حدسي يجب أن أقر بأن هناك مئات القصص المهمة ما زالت موجودة ولم يسبق نشرها في أي كتب غربية . ورجال البدو والحضر يحبون سرد القصص ، وفي ترحالهم ، وفي مخيمهم ، أو في أمسياتهم عند انتهائهم من أعمالهم اليومية يبدأ سرد الروايات . وغالبا ما تكون تلك القصص من النوع المكشوف ، ولكن العربي لا يأبه لذلك . وسأسرد بعضاً منها في هذا المجال .

القصة الأولى قصها علي ضويحي بن خريمط من قبيلة العوازم عام ١٩٣٥ قائلا : في ذات مرة كان احد رجال قبيلة العوازم مسافرا قرب حائل بصحبة زوجته الشابة الحامل . وعند مرورهما عبر ممر ضيق بين بعض التلال الصخرية العالية جاءها المخاض ثم فجأة ولدت طفلا ، ولكنها ماتت أثناء عملية الوضع رغم كل محاولات زوجها لا نقاذها . وقام الزوج بدفنها وذلك بوضع جثتها في كهف صغير قريب . ولعلمه ان الطفل سيموت بعد قليل لقلة الحليب ، فقد أراحه فوق صدر الأم ولف ذراعها الايسر حوله ثم ألقم الطفل ثديها الأيسر . ثم سد مدخل الكهف بالحجارة وابتعد في طريقه .

وبعد تسعة أشهر حدث أن جماعة من البدو من نفس القبيلة مرت بتلك البقعة وخيمت قرب المكان الذي دفنت فيه المرأة والطفل . ولمعرفتهم بالقصة ، فقد ذهب بعضهم الى مدخل الكهف ليتأكدوا من أن الجدار ما زال مسدودا . ولدهشتهم لاحظوا اختفاء عدة أحجار ووجود فتحة في الجدار . وخارج الكهف وجدوا في الرمال آثار أقدام طفل يجري حول المكان .

وانتابهم الخوف وساورتهم الوساوس فرحلوا سريعا من ذلك المكان المسكون. وبعد مدة من الزمن أخبر البدو والد الطفل الذي أسرع الى ذلك المكان . ووجد الفتحة في الجدار وآثار الاقدام الصغيرة . وعندما نظر داخل الكهف ، وجد صبيا حيا جالسا يثرثر الى جانب الهيكل الذاوي لزوجته الميتة . وقد جف جسد الأم كله ما عدا عينها اليسرى والجانب الأيسر من وجهها ، وثديها الأيسر - الذي كان ما زال مملوءاً باللبن - وذراعها الأيسر . كانت تلك الأجزاء حية ، وتشبه أعضاء أي امرأة حية . وتقدم الرجل ، مفعما بالخوف والشكر لله . وأخذ الطفل بعيدا ، ووضعه فوق الجمل ثم رحل بعد دفن بقايا زوجته في مقبرة رملية هذه المرة .

وأكد الراوي أن تلك القصة حدثت

في حياة أبيه ، وأنه عرف أن الطفل شب محبوبا من الله والناس ، وأصبح محاربا مشهورا ، في قبيلته . وأطلق عليه اسم خلاوى ، ومعناه « المولود في الصحراء » ..

وهناك قصة أخرى من المعتقد أنها حقيقية أخبرنى بها رجل من قبيلة شمر الذي انطلق على ظهر راحلته (الذلول) لاصطياد البقر الوحشى في رحلة تستغرق عدة أيام . وكما هي عادته أخبر زوجته أنه سيعود بعد أربعة أيام ، قبل حلول الظهر ، واذا لم يعد في ذلك الوقت فهو اما مريض أو حدث له حادث . وعندما لم يرجع في الوقت المحدد ، خرج أخوه راكبا جمله للبحث عنه . وكان يعرف المكان الذي تكثر فيه قطعان البقر الوحشى باعداد ضخمة واتجه الى ذلك المكان .

سافر طوال الليل ، وفي الصباح التالى مر « بفخ » منصوب باحكام في الأرض ومحاطاً بأغصان الشجر . واندهش عندما رأى في ذلك الفخ بندقية وكيس بارود ، وخنجراً كان يمتلكها أخوه . وكانت هناك آثار أقدام البقر الوحشي باعداد كبيرة حول الفخ ومن الفخ ظهرت آثار دقيقة لبقع من الدم . وأخذ يقص الاثر فوجد ناقة أخيه الذلول ترعى في سلام في منخفض من الأرض ، وعلى بعد مسيرة عدة أميال ، رأى قطيعا من البقر الوحشى يرعى العشب . واقترب منه ببطء وحذر ، واخذ يتتبع أثار الدماء على الأرض فرأى ، إحدى الابقار الوحشية تحمل شيئا فوق ظهرها ، وعندما اقترب أكثر تعرف على أخيه حيا وفي كامل وعيه بالرغم من فقدانه لتلك الكمية من الدم ، على ظهر الحيوان ، وكان فخذاه مثبتين فوق قرون الثور الطويلة التى تشبه الحراب ، ورأسه يتدلى الى الخلف ناحية الذيل وذراعاه متشبثتين ببطن الحيوان .

ماذا يفعل الآن ؟ اذا أطلق النار على البقرة الوحشية فبالتأكيد سيقتل اخاه معها ، وكيف يستطيع الاقتراب بدرجة كافية لقتل الحيوان بخنجره ؟ وفكر في خطة . قام بحركة التفاف وصل فيها الى منخفض في الأرض مختف عن الانظار وهناك اختار احسن بقعة للرعى ، من المؤكد أن تأتيها البقرة الوحشية لترعى . وبين الاعشاب والزهور غرس خنجره في الارض وكذلك خنجر أخيه متباعدين قليلا وأخذ ينتظر الفرصة التى تجعل الحيوانات تأتى الى تلك البقعة ليتمكن أخوه من التقاط أحد الخنجرين . ثم ابتعد قليلا وانتظر خلف صخرة .

وبالطبع جاءت الأبقار لترعى في نفس البقعة التى غرس فيها الخنجرين وبحث الرجل الموجود فوق ظهر البقرة بدقة ووجد خنجره منتصبا بين الحشائش . واستطاع التقاطه بيده وبجهد شديد أغمده في قلب الحيوان . وتدحرجت البقرة على الارض وأسرع الاخ ليطلق على الحيوان رصاصة أخيرة .

ولعدة شهور رقد الأخ من شدة المرض ، فقد اخترقت قرون الحيوان



فخذية ، ولكنه بدأ يتحسن وبعد أن شفي أخذ يروى قصته وهذه بدايتها « لقد وصل الى قطيع البقر الوحشي ونصب فخه بعناية ، وانتظر ساعات طويلة ان يقترب البقر منه ليطلق عليه الرصاص . وعندما ظن ان اللحظة المناسبة قد حانت ، أطلق بندقيته على اكبر بقرة في القطيع . وكان واثقا من قتلها لدرجة انه تأهب ليجهز عليها وفي تلك اللحظة اندفع الحيوان نحوه ونطحه بقرنيه ولكن الصياد تشبث بالقرون الطويلة فنسفته البقرة فوق ظهرها ، وكاد أن يغمى عليه من الألم ولكنه أخذ يبذل جهودا اضافية تمكنه من التشبث بذراعيه حول بطن البقرة الوحشية . فكان يعلم أن سقوطه سيدفع الحيوان الى نطحه بقرونه الحادة أو الهرب بعيدا .. كما لم يكن بالامكان قتل البقرة لأنه فقد خنجره الذي سقط من حزامه وكذا البندقية ملقاة على الأرض منذ تلك اللحظة التى داهمه فيها الحيوان ، ولم يكن يحمل أى سلاح آخر حتى استطاع أخوه تمكينه من الخنجر .

وهذه القصة معروفة بين رجال قبيلة شمر ويقال أنها حدثت قرب حائل منذ حوالى مئة سنة .

ويقص رجال قبيلة العجمان قصة مسلية عن قبيلة العوازم وهى ترتبط بمثل تتداوله قبيلة العوازم عند نصب خيامهم . فعندما يريدون اقامة مؤخرة وجدران الخيمة الجانبية ، (الرواق) فانهم لا يقولون المصطلح العام « روق البيت » ومعناها « انصب الرواق » ، بل يبدلون ذلك بقولهم « استرالبيت » ويتجنبون استخدام كلمة « روق » (أو القول لا مراة ، روقى) اذ أن ذلك يذكرهم بقصة بذيئة نوعا ما عن قبيلتهم ويشعرون بالحرج منها . والقصة من جانب العجمان حدثت كما يلى :

ذات مرة نصب أحد محاربى قبيلة العجمان خيمته بالقرب من فرد من قبيلة العوازم كانت تقوم بينهما علاقة ودية . وكان لكل من الرجلين أخت حسناء ، وكثيراً ما كانت البنتان تلعبان معا عندما يقوم الأخوان برعى الجمال أو القيام بغارة . ولم يكن الشابان متزوجين أو حتى يملكان المال الكافي ليعولا زوجة وذات يوم بينما كان الشابان فى طريق عودتهما من رحلة يوم شاق للصيد ، قال الشاب

العجمانى للشاب العازمى « ما قولك في أن نتبادل الأختين هذا المساء ـ أخذ أختك وتأخذ أختي ؟ لا أحد حولنا أو بقربنا ، دعنا نقضي وقتا طيبا « وافق الشاب العازمى ، وعند وصولهما الى المخيم أخبرا أختيهما . وكذلك وافقت الأختان ، ولكن قبل أن يرسل الشاب العجمانى أخته الى خيمة صديقه ، حذرها بقوله ، « كونى حذرة ولا تدعى العازمى ينال منك أى منال . فانك لو فعلت سأقتلك لا محالة . واذا حاول أن يضمك اليه تدحرجى على الأرض وتجنبى ضماته . وامنعيه بأى طريقة من الوصول الى غرضه » .

ثم أخذ كل من الشابين أخت الآخر الى فراشه ، ولكن الفتاة العجمانية الماكرة لم تسمح للشاب العازمى ان ينال منها وتدحرجت في جميع الاتجاهات متفادية قبضته ، واستطاعت أن تفعل ما أمرها به أخوها . ومن شدة الغضب لخيبة أمله صاح الشاب العازمى بأخته فى الخيمة الأخرى ، قائلا : « لا تدعى صديقي يلمسك ، بل افعلي ما تفعل أخته ، روقي .. روقى .. (تد حرجي تدحرجى !) . وأتاه صوت أخته قائلا ، « لا أستطيع يا أخى ، لقد فات الأوان » .

ومنذ ذلك الوقت لا تستعمل قبيلة العوازم أبدا هذا الاصطلاح روق (أو روقى) البيت .

وبعض القصص الشعبية المحبوبة تحتوى على متناقضات مسلية وتشبه فى ذلك (ألف ليلة وليلة) أو (حكايات إيسوب) الأغريقى ، ومن ذلك النوع قصة حقيقية كان يرددها ناصر باشا السعدون .

فبينما كان شيخ قبائل المنتفق (حاكم البصرة) مخيما ذات مرة قرب الناصرية على نهر الفرات ، أتاه احد اتباعه القدامى وأكثرهم أهلا للثقة ليقدم له القهوة ، وقال ناصر باشا ـ الذي غمرته موجة عطف مفاجئة ـ لتابعه وكان اسمه مشعاب ، أنه يريد مكافأته على السنوات العديدة التى قضاها فى خدمته باخلاص « اطلب ما تريد يا مشعاب وسيكون لك » ، وأجاب مشعاب ، «أنا لا أريد أي مكافأة أو هدية ان مطلبى الوحيد هو أن أخدمك بأمانة حتى أموت » . قال ناصر « هذا شيء جميل ولكنك قمت بخدمتى على أكمل وجه فعلا حتى الآن وأريد ان أعبر لك عن تقديرى » .

قال مشعاب « حسنا يا سيدى ، ما دمت مصرا ، سأطلب منك معروفا واحدا فقط » . قال الباشا العظيم « تكلم واطلب ما تريد » . أجاب مشعاب « رغبتى ، عندما ترانى كل يوم في مجلسك أن تنادينى ، ثم تهمس فى أذنى على مسمع مني فقط ، ثم توبخنى أمام الناس .

ورد الباشا ، « حسنا يا بنى ، سأنفذ لك رغبتك » . ولكنه كان مع ذلك متعجبا متسائلا ماذا وراء ذلك المطلب الغريب .

وفي اليوم التالى فى المجلس رأي



الباشا مشعاب وتذكر مطلبه ، ثم ناداه ، وأمال رأسه ناحيته حيث كان يجلس فوق مسنده .. ثم سبه على مسمع من الحاضرين . وكان مشعاب يومىء برأسه طول الوقت كأنما يتلقى تعليمات خاصة . وحدث نفس الشىء فى اليوم الثانى والأيام التالية .. وأخذ الجميع يتساءلون عن هذه المكانة والثقة التى يتمتع بها مشعاب وذات يوم نهض شيخ صغير السن وقت انعقاد المجلس وقال : « يا مشعاب ، أريدك أن تتوسط لي بكلمة توصية لدى الباشا ـ انها مسألة بسيطة خاصة بالريع الذي تريد مصلحة الضرائب مقاضاتي عنه ـ وهاك عشرين جنيها مقابل ذلك » .

أجاب مشعاب الماكر « بالتأكيد يا صديقى سأفعل ذلك » . ثم استمر الهمس بينه وبين الباشا ، وزادت مطالبة الناس له بأن يتوسط لهم لدى الباشا . وكان يوافق على ذلك دائما ويقبل ما يقدمونه له . وبهذه الطريقة أصبح مشعاب غنيا واشترى العديد من الجمال والغنم والماعز والخيول . وكذلك استثمر أمواله فى الأراضى واشترى حديقة غناء ، بالاضافة إلى قاربين يبحران من والى البصرة .

وقال الجميع ، أنه الشخص المفضل لدى الباشا العظيم .

وبعد ستة أشهر تقدم مشعاب من سيده ، وبينما هو يقدم القهوة للباشا الجالس طلب منه أن يتوقف عن سبه . ووافق الباشا على ذلك ، ولكن لشدة دهشته طلب أن يعرف سبب ما حدث . عندئذ اعترف مشعاب بكل شيء ، وسر ناصر باشا جدا لدرجة أنه انعم عليه بهدايا أخرى وعباءات تشريفية ورفعه الى منصب رئيس الخدم والاتباع ، طالبا منه فقط الا يأخذ مال الناس مرة أخرى حيث أنه فى منصب حسن الآن ، ووعده مشعاب بذلك ونفذ وعده .

وتبين قصة قديمة جدا مزايا معرفة صديق فى البلاط أو حماية شخصية هامة .

في قديم الزمان عاش في بغداد صاحب حانوت فقير كان يبيع الأقمشة ومنتجات الزينة الأخرى . وكان رجلا طيبا وامينا ولم يؤذ أحدا بالقول أو

بالفعل . وكان اسمه عبدالله المنصور .

وفي يوم من الأيام قام أحد جيرانه ، وهو رجل ذو سمعة طيبة وممتازة بزيارته بعد العشاء وطلب اقتراض مبلغ ثلاثين ديناراً كقرض يدفعه لتسديد دين عليه فات موعده . ووعده أن يرد له النقود خلال ثلاثة أيام . وقام عبدالله بسلامة نية بفتح صندوق نقوده المخبأ بعناية وأخرج النقود وأعطى ثلاثين دينارا لجاره ، الذي شكره بحرارة .

ومرت ثلاثة أيام ولم ترد النقود . أربعة أيام ، خمسة أيام ، ولم يحدث أي شيء . وهكذا ، ذهب عبدالله الى منزل جاره وسأل عن نقوده ولد هشته أن جاره أنكر تماما اقتراض أي شيء منه ، وبكلمات بذيئة طرد ابن منصور من باب المنزل ، داعيا اياه بالرجل الشرير الذي يحاول سرقة نقود الناس الطيبين بالادعاءات الكاذبة . ولمدة يومين كاملين ظل عبدالله يكتم غيظه وحزنه ، حتى تذكر أن الخليفة سيعقد جلسة عامة لاقامة العدل بين الفقراء والأغنياء .

واتخذ طريقه الى القصر ، وبمرور الوقت جاء دوره ، وقص المشكلة للرجل العظيم ، وعندما سمع الخليفة نهاية القصة قال « حسنا يا رجل ، لا بد أن لديك شهودا على اعطائك النقود له » ؟ أجاب الرجل مع الأسف ليس لدى شهود يا سيدى . « اذن لا بد أن لديك ايصالاً باستلامه للنقود ، يا بنى » . ومرة ثانية كانت الاجابة بالنفى . واستمر الخليفة يقول « يبدو أن قضيتك معقدة ، حيث أنه لا يوجد شهود أو أدلة من أى نوع ، وعلى أية حال ، يبدو أنك أمين . هل تقسم بالقرآن الكريم أن ما قلته هو الحق » ؟. قال عبدالله « نعم أطال الله ، في عمرك يا مولاى، اقسم على ذلك » .

عندئذ صرفه الخليفة ، قائلا بأنه سيبحث المسألة ، وطلب من عبدالله أن يقف عند البوابة الشرقية فى الصباح التالى وقت خروجه للصيد بالصقور . اذ سيتذكر التماسه عندما يراه . وفعل تاجر الأقمشة المتعجب كما أمر واتخذ موقفه فى الصباح التالى عند البوابة الشرقية ليرى الخليفة عند مروره . وكالعادة تجمع الناس هناك ليروا مرور موكب الخليفة ، وبدون علم التاجر ، كان يقف بينهم الجار المخادع . عندئذ ظهر الأمير العظيم ، تحيط به حاشيته ومدربو صقوره ، وهى حقا صحبة ممتازة ، وكلهم يمتطون صهوة جياد أصيلة مكسوة بأغطية مزركشة زاهية .

وعندما اقترب الخليفة وكان يمر تحت البوابة ، لمح فجأة التاجر المسكين ، فشد عنان فرسه ، وبصيحة ترحيب عالية توقف بجانبه وهتف « أهلا بك ، يا مصطفى ، يا صديقى العزيز ، انها حقا ساعة ميمونة . لم أرك منذ زمن بعيد . من أين ومتى عدت ؟ وزاد على ذلك بقوله احضر لرؤيتى الليلة بعد صلاة العشاء ، وأخبرنى عن جميع أحوال

رحلاتك » .

وانتاب الذعر بطلنا الحزين المشدوه ، فقد ظن أن الخليفة خلط بينه وبين شخص آخر ، وأصابه الغم خاصة عندما أمر الخليفة أحد الأتباع بالبحث عن محل اقامته وارسال محفة لا حضاره فيما بعد . ومر الوقت ، وبعد العشاء ، ظهر الموكب والمحفة أمام منزل عبدالله المتواضع ، وحمل في المحفة ليمثل أمام الخليفة ، يغمره الخوف والحزن .

وفي القصر مثل بين يدى الخليفة عن طريق باب جانبي ، وخر على وجهه وبدأ يعترف بأنه ليس بمصطفى ، صديق الخليفة .

وقاطعه الخليفة ، ووجه اليه الكلام برفق قائلا : « حسنا ، يا صديقي ، هل تسلمت نقودك بعد » ؟ وتدفقت الكلمات من فم عبدالله المسكين عرفانا بالجميل وأجاب : « نعم ، يا أمير المؤمنين ، أطال الله في عمرك ، وجعل النصر حليفك دائما ، وغمرك ببركاته . ليس فقط ثلاثين ديناراً بل تسلمت مائتي دينار » . لقد سلم الجار الجاحد النقود مضاعفة قبل ذهاب تاجر الأقمشة الى القصر . مخافة ما لا تحمد عقباه .

في عام ١٩٣٥ قص على الحاج عبدالله ويليامسون قصة طويلة عن قاطع أخشاب وابنته . فقد جذبت ابنة الحطاب انتباه الملك بمهارتها وذكائها اللماح ، وقرر الملك مكافأتها بالزواج منها . وتم الزواج ، ولكن الملك ، رغبة منه في اختبار ذكاء زوجته ، أخبرها أنه لن يقضي الليلة الأولى معها . بل سيتركها عذراء حتى يعود من رحلة صيد طويلة في الصحراء قرر فجأة القيام بها . وذهبت توسلاتها ادراج الرياح . ولكن الملك كان عنيدا . وقبل رحيله أعطاها فرسه الرمادية الشهيرة . الحمداني ، لتبقى في رعايتها ، وقال لها : « يا زوجتي العزيزة ، انني أترك فرسي العزيزة معك . ولم يدن منها أى حصان من قبل . وسوف آخذ جوادى (كروشان) معى ، ولدى مهمة أكلفك بتنفيذها في غيابي . وعند عودتي أتوقع أن فرسي ، الحمداني ، قد ولدت مهرا ، حملته من جوادى ، (كروشان) وفوق ذلك أتوقع ان أجد طفلا منك أنا أبوه » . ثم رحل الملك ، تاركا زوجته في قصره محاطة بالحراس تحت امرة خادمه المخلص العبد الخصى .

وكان الملك يعرف أن زوجته لن تنجح في تنفيذ رغباته ، ومع ذلك أراد أن يرى كيفية تصرفها في المهمة التى كلفها بها .

وعند رحيل الملك بدأت الزوجة في التقرب من الحارس الزنجى وقد نجحت في ذلك لدرجة أنها بعد عدة أيام أقنعته أن يشترى لها ملابس شيخ صغير السن وخيمة صغيرة . وبعد ذلك طلبت منه مساعدتها في التسلل خفية من القصر ، لرغبتها في ملاحقة سيدها ومولاها لتحتال عليه بخدعة واعدة اياه بالعودة خلال ثلاثة أسابيع ، وسمح لها الحارس

الزنجى بالتسلل من القصر سرا ، بعد أن دبر أمر طلاء الفرس الرمادية باللون الأسود .

وانطلقت الزوجة فى الصحراء ، وبعد مضاعفة سيرها لحقت بقافلة زوجها . وقد خيم الملك قرب بعض الآبار . وكان فى المنطقة بضعة أشجار من نخيل التمر مكونة واحة . ونصبت الزوجة خيمتها بين الأشجار ، وسوت زيها . الرجالى بعناية ، وسودت لون بشرتها وتنكرت بمهارة على شكل شيخ شاب من قبيلة بدوية عريقة . وبعد أن لوثت نفسها بغبار الصحراء ، قدمت الى مخيم زوجها ، وارسلت له رسالة فحواها ان شيخا بدويا شابا سمع أن الملك يصطاد فى تلك المنطقة ويرغب فى تقديم تحياته . وقوبل الطلب بمقابلة الملك بالايجاب وراح « الشيخ الشاب » يحاول تسلية وارضاء الملك برواية قصص الصحراء والحديث عن الرياضة والخيل ، وصيد وتدريب الصقور ونحو ذلك .

وقد لعبت الفتاة الشابة دورها بمهارة شديدة لدرجة أن الملك انطلت عليه الحيلة . ولما كان حضور الفتى مسليا ولطيفا فقد طلب منه الملك الحضور يوما بعد يوم ولبى الشيخ الشاب طلب الملك بترحاب . وفي نهاية الاسبوع تساءل الملك اذا كان للفتى أخت ، واذا كانت مثل أخيها ، فإنه يطلب الزواج منها ، على طريقة زواج الملوك من بنات رؤساء قبائل البدو .

وأجاب الشاب بأن لديه أختاً وهى توأمه ، وأنه راغب في الموافقة على زواج الملك منها سرا لعدة ليال ، ولكن لا بد أن يطلقها بعد اسبوع ويخلى حال سبيلها ، اذ أنها مخطوبة لابن عمها . ولما كان الملك مسرورا جدا من المهارة والحسن وما اشتهرت به أخت الشاب ، فقد وافق على تلك الصفقة ، وتم الزواج فى تلك الليلة ، ولكن الشيخ الشاب اشترط على الملك ان ينصب خيمة صغيرة للزواج بعيدا عن المخيم وقريبا من أشجار النخيل ، لكى تستطيع الفتاة القدوم اليه في سرية تامة . ولما تم تدبير كل شيء ، رحل الشاب سريعا ، وبعد حلول الظلام استبدل ملابس الشاب بملابس فتاة بدوية من عائلة طيبة ، وقدمت بمفردها الى خيمة الملك . وتم الزفاف وقامت الفتاة على اسعاده .

وبعد أربع ليال من المتعة ، والفتاة تزور خيمة الملك بملابس الفتى نهارا سأل الملك ، الفتى الشاب ، ماذا يرغب كمكافأة مقابل تدبير تلك المسرات للملك . ولدهشته طلب الشاب أن يجامع جواد الملك الأسود الجميل ، كروشان فرسه السوداء . ووافق الملك بترحاب ، ورجاه أن يقبل فوق ذلك هدية مالية . ولكن الشيخ الشاب رفض . وفى تلك الليلة عندما وصلت عروس الملك أرضته وسرته ، لدرجة أنه غفل عن ملاحظة أنها انتزعت خاتمه المنقوش من أصبعه وهو نائم .

وبعد أن حصل الشيخ الشاب على الخاتم الملكى ومجامعة جواد الملك لفرسه ، غاب عن الأنظار . واختفى

هو وأخته بطريقة غامضة كما ظهرا .
وبعد اثنى عشر شهرا عاد الملك إلى بلاده ، وأرسل الرسل الأمناء قبله ليخبروا زوجته العذراء بنبأ وصوله ، وعبروا عن أمله فى أن الشروط التى أملاها عليها قد نفذت . وانتابه الفزع والهم عندما عاد الرسل قائلين « نهنيك يا مولانا . ان الملكة ، زوجتك ، قد ولدت لك طفلا صبيا ، وولدت لك الفرس الرمادية مهرا رائعا » .

وانتابت الملك ثورة عارمة وشعور بالخزى والعار ، وانطلق عائدا الى المدينة ، ولم يتلطف بمقابلة الوفد المفوض لاستقباله ، وذهب رأسا الى قصره والى جناح النساء ، مقسما أغلظ الايمان أنه اذا كان ما يشك في حدوثه صحيحا ، فإن الملكة ستموت في الحال .

وفي الغرف الداخلية قابل زوجته وسألها بصرامة عن الحماقة التي أخبرته بها الرسل. وكانت اجابتها أن قدمت له ابنه قائلة : « سيدى ، ان القصة صحيحة . لقد طلبت منى ان ألد لك ابنا ، وقد أطعت أمرك . لقد أمرتنى ان أرتب ولادة مهر من الفرس الرمادية ، وكذلك نفذت أوامرك » .

واثار ذلك التحدى الصارخ غضب الملك ، وسحب سيفه استعدادا لقتلها . « انتظر » صرخت الفتاة « انني مستعدة أن أموت بيدك ، يا سيدى ، ولكن أخبرنى اولا هل فعلت اى شيء تخجل منه عندما خرجت الى الصحراء . لقد وصلتنى حكاية عن ابنة شيخ بدوى تزوجتها سرا » . وبهت الملك وقال « ماذا تقصدين ، يا امرأة » ؟ ردت زوجته : لا شيء يا مولاى ، سوى انها أعطتنى خاتم مولاى الذى أضعه الآن فى اصبعى ، انظر » . وانتابت الحيرة الملك تماما ولم يدر ماذا يقول وطلب معرفة كل شيء . وأخبرته زوجته القصة من البداية الى النهاية . وسر الملك سروراً لا حد له ، وشعر بارتياح لم يشعر به من قبل ، وضمها الى صدره ، وغفر لها هذا الخداع الماهر » . حقا ، انك أشهر وأمهر النساء ، انك أشرف وأنبل من الجميع وأحق بأن تكونى ملكتى ومستشارى . وسوف نحكم معا من الآن فصاعدا » .

كوارث الصّحراء

العواصف الرملية من أسوأ مظاهر الحياة فى الصحراء ، وقد عايشت عددا من هذه العواصف المريعة خلال الأربع والعشرين سنة من إقامتى فى الفرات والصحراء الجنوبية للعراق والبحرين والحسا والمنطقة الخلفية من الكويت . وتعتبر الكويت أكثر تعرضا للعواصف الرملية التى تهب



عليها في فصل الصيف من وادى الفرات وتستمر العاصفة فى بعض الأحيان لعدة أيام وليال . وهناك مقولة تقال فى الكويت أن العاصفة تستمر لثلاثة أيام أو سبعة أو أربعة عشر . ولا شيء أكثر مقتا وقهرا من عاصفة رملية تهب على الكويت فى منتصف فصل الصيف حيث تبلغ درجة الحرارة في الظل ١٢٠ فرنهيت . اذ تلذع الرياح الحارقة العيون كألسنة النيران ويجب اقفال كل شيء الأبواب . والنوافذ والخزائن وأوانى الطعام والشراب باحكام شديد . ويستحيل فى تلك الأثناء تبريد البيت بفتح الأبواب والنوافذ أثناء الليل ، والعزاء الوحيد هو أن الحرارة فى الخارج أسوأ عشرة أضعاف منها في الداخل . وفي هذه الحالة يصبح النوم مستحيلا في الداخل حتى بوجود المراوح الكهربائية التى توفرت مؤخراً . وهناك المأساة التى تستعصى على الوصف عندما يهب الرمل والغبار فى الأعين والآذان والأنوف والأفواه بحيث يستحيل النوم أو الراحة .

قال لي شيخ الكويت عدة مرات أنه يفضل شدة الحرارة على العواصف الرملية . ففي الجو الحار تستطيع ان تتنفس على الأقل . أما أثناء العواصف الرملية فيصبح لون الجو كلون حساء البازلاء ولا تستطيع أن ترى الا لبعد بضع ياردات . وفى الداخل تضاء جميع الأنوار أثناء النهار مثل أسوأ أيام الضباب فى لندن . وتتأثر الوجوه والعيون بحبات الرمال التى تعصف بسرعة على سطح الأرض فى البرارى . ولعل ابن المدينة يملك بعض الامكانيات لمواجهة هذه الكوارث ولكن سأترك للقارىء أن

يتصور ما يعانيه البدوى البائس وعائلته فى خيامهم السوداء النافذة المنسوجة من وبر الماعز حيث لا وسيله تمنع تسرب الغبار الى الوجوه وأوانى الطبخ والملابس علما بأن درجة الحرارة فى الصحراء أعلى منها بكثير فى مدينة الكويت . ومع هذا فإن البدوى الذي يعايش هذه العواصف والرياح الحارقة يظل مرحا وهادئا اذ يقول : (أليست آتية من عند الله مثل باقى الأشياء الأخرى ؟، إذن لم التذمر ؟) .

وبالرغم من الشعور بالمرارة يسود شعور من الجلال والمهابة لا يوصف قدره عند هبوب عاصفة رملية فى الكويت . فأولاتظهر فى السماء غيمة سوداء صغيرة سرعان ما تنمو أكبر فأكبر الى أن تمتد في الأفق ثم تبدأ بالالتفاف كالدوامات فتشكل كتلا كبيرة فى السماء . وترى أحيانا ومضات نور وسط هذه الكتل الضخمة ولكن قلما يقصف رعد . وتكون العاصفة الرملية أحيانا طرفا لعاصفة أكبر بكثير تكون قد ضربت أقاصى الصحراء الى الشمال الغربى وزحفت اليك غبرتها بدون أن يصحبها نسمة من ريح ، فتتغلف وجميع من حولك في ظلام أصفر دامس قبل أن تشعر بأن العاصفة قد شملتك .

وفي أعالي الصحراء مثل النفود والدهناء يضل الرجال طريقهم . واذا صاحب العاصفة رياح قوية ورمال دافعة فالبدوى يموت حتما ، وخاصة اذا كان يسير بين مناطق آبار متباعدة الا اذا كانت العاصفة قصيرة الأجل . والبدوى على أية حال خبير بمثل هذه المخاطر فإذا كانت العاصفة قاسية يتوقف عن السير وينخى جمله ويلوى ذيله نصف دورة باتجاه الريح ثم يتكوم فى ظل خاصرة الجمل ويسحب عباءته فوق رأسه . وقد يستمر على ذلك الوضع لعدة ساعات غير قادر على عمل شيء سوى الصلاة . وقد ضعت أنا شخصيا مرتين أثناء هبوب عواصف رديئة وضللت طريقي تماما . لم تكن العاصفة بمثل ذلك السوء الذي يضطرك الى التوقف ، فجاهدت طريقي الى أن وصلت الى المخيم . وفي كلتا الحالتين كنت أدرك بعد مرور ساعات بأننى قد تهت وتوقفت . وعندما تتضح الأمور أكثر يتضح لي أننى تخبطت فى الاتجاه المعاكس تماما مع أننى كنت أعرف البلاد معرفة جيدة .

ولعل أضخم عاصفة عايشتها كانت تلك التى حدثت فى نهاية شهر ابريل ١٩٣٢ عندما كنت وأصدقاءنا العرب نخيم فى منطقة على الطرف الجنوبى من مرتفعات الظهر على بعد ثلاثين ميلا جنوى مدينة الكويت . كانت خيامى السوداء منصوبة فى منخفض واسع في الجانب الشرقي من رأس المرتفعات ، تتوارى عن أنظار البدو المسافرين الذين قد يطلبون قضاء ليلتهم . وكانت البرارى من حولنا مغطاة بأشجار العرفج المألوفة بكامل نموها مما يعطي المكان لمسات ذهبية جميلة . هطل قليل من المطر ،

وهي ظاهرة غير عادية في مثل هذا الوقت من السنة ، فبدا كل شيء في غاية الحيوية والجمال . ومع هذا كان الجو حارا وفي كل مكان دلالات على أن الربيع قد أشرف على النهاية .

حوالى منتصف النهار امرت بتقديم طعام الغداء ثم خرجت وزوجتى نتمشى عندما التفت صوب خيمتى فرأيت سالم المزين ومجموعة من البدو يحدقون باستغراب ناحية الشمال الغربى ويشيرون بأيديهم الى ستة من الخيام المجاورة على بعد ربع ميل . وفي اللحظة التالية رأيت النساء والأطفال يركضون مرتبكين ورأيت الخيام تهبط لمستوى سطح الارض . وبدأت عمشا ومنيرة ونساء أخريات يصلين . صعدت الى قمة التلة على بعد عدة مئات من الياردات فرأيت الأفق الشمالي الغربي يشتعل . تذكرت حرائق المروج التى قرأت عنها وأنا صغير ثم أسرعت الى سالم وسألته هل رأى العرفج يحترق بمثل تلك الصورة من قبل فأجاب بأنه لم يشهد ذلك من قبل كما لم يسمع عنه في كل أرجاء الجزيرة العربية . وبينما كنت حائرا ماذا أفعل وأنظر من حولى أبحث عن رقعة مفتوحة اجمع فيها أهل أصدقائى - شعرت بأن نارا مؤججة تندفع نحونا - هبت نسمات باردة على المخيم وبدأت الغيوم السوداء الملتفة تمتد فوق الأفق بأكمله ثم تتكثف في أعالى السماء ، وتذكرنى بحريق القصب في مستنقعات العراق . تحت الدخان الأسود حزام قرمزى ساطع كالنار . كنت منتبها لذلك الشيء الغريب الذي يندفع نحونا بأقصى سرعة .

اشتدت النسمات الباردة فتحولت الى عصف حاد كالرياح الثلجية . لفت سالم انتباهى الى ذلك وقال قد لا تكون هناك نيران . ومن الواضح أنه كان على صواب . ولكن ما ذاك إذن ؟ وبينما كنت أرافق سالما مرتاح النفس الى حد ما ومستطلعا الحال في ذات الوقت هاجت الرياح بعنف شديد وتحولت الى عاصفة باردة ، وعندما بدأت أدرك أن عاصفة حمراء تندفع نحونا وأن تلك الكتل من الدخان الأسود على علو آلاف من الأقدام في السماء والتى تشمل سماء الشمال الغربي ما هي الا عاصفة كثيفة وأن السنة النيران التى كانت تنطلق وتخبو بانتظام وسرعة ما هى الا شحنات كهربائية تنعكس على شكل سلسلة من الومضات تحت الغيوم السوداء وعلى أعمدة الغبار المتدوم الذى صعد من الأرض مثل ينابيع الماء . كان كل شيء بلون النار ، هرعنا الى المخيم ودخلنا الى خيمتنا التى ما زالت منتصبة وأقفلنا القواطع الأمامية والخليفة وحركنا الاعمدة الى شكل زاوية منحدرة باتجاه الريح وأمسك رجالنا بحبال ودعائم الخيمة .

بقيت وزوجتى في الخارج ، وهبت العاصفة ، كان جليا أن العاصفة قوية لونها أحمر . في خلال نصف ساعة مرت بنا وانتهت ولكن يا لذلك المنظر وتلك الأصوات ! كان كل شيء مغطى

بطبقة من الرمل القرمزي الناعم في خلال ثوان فقط ، والشحنات الكهربائية المتتالية مصحوبة بأصوات فرقعة يعقبها قصف رعد ، وكل هذه المظاهر كانت كنذير بنهاية كل شيء على الأرض . وفي الحال خيم الظلام بحيث اضطررنا الى إضاءة مصباحي ،

وكانت العاصفة قد بدأت تجر ذيولها وبدأ صوت الفرقعة يذوي واختفى صوت الرعد . بعد نصف ساعة فقط إنتهت العاصفة ولم يبق من آثارها المرعبة سوى تلك النسمات الباردة الرقيقة .

الآن جميع النساء والأطفال الذين تجمعوا في خيمتنا بدأوا يرددون : (الحمد لله) ، لم يسبق لنا أن رأينا أو سمعنا بمثل هذا العقاب ! اعتقدنا بأن نار جهنم تحيط بنا وأن نهاية العالم قد أزفت !. استرد سالم قوته الآن وبدأ يهدىء من روع النساء بعبارات مرحة : (لقد انتهى ،

خلاص لا تخفن ، انهضن الى أعمالكن . الطعام ، غداء الضيوف ، أهو في مأمن ؟ هل غطيتن قدور الطعام ؟ الحمد لله . ومع هذا ظل سالم هادئا لا يتكلم طوال اليوم ، لقد كانت صدمة كتمت أنفاسه . تناولنا طعام الغداء من اللحم والأرز الذي كان لحسن حظنا في قدور الطهى المغطاة ، ومع هذا كان كل شيء مشربا بغبار أحمر وحتى الأرز اكتسب لونا زهريا . سرعان ما صفت السماء .

وكانت البراري وأشجار العرفج كلها مكتسيه بغطاء أحمر بينما كان سطح الارض مغطى بطبقة من الغبار الناعم الذي يبدو كالثلج الأحمر يبلغ سمكه حوالى أربع بوصات بحيث أن عجلات عربتنا قد تركت علامات واضحة في الأرض أثناء رحلة عودتنا الى الكويت في نفس الليلة .

عندما وصلنا الى الكويت علمنا ان أطراف العاصفة قد مرت فوق المدينة وأثارت شعورا بالخوف وأعطينا وصفا جغرافيا لتلك الغيوم القرمزية والسوداء التى تداومت فوق خليج الكويت باتجاه المدينة . ولكن يبدو من آثار الغبار الأحمر أن المدينة قد أصابتها لفحة خفيفة من تلك العاصفة أما نحن في الجنوب فقد كان أثرها عظيما وبالتأكيد لم يتأثر غيرنا بتلك الشحنات الكهربائية المريعة وقصف الرعد المرعب .

ويحتمل أن تكون العاصفة قد هبت من منطقة حمراء التربة حول حلب على بعد تسعمائة ميل أو تكون قد أتت من حول البتراء وتعرف السنة التى حدثت فيها هذه العاصفة عند البدو بالسنة الحمراء . حتى ان مولد الأطفال وغيره من الأحداث التى جرت وقتذاك يؤرخ بتلك السنة ، والسنة الحمراء مدرجة في حوليات الجهة الشمالية الشرقية من الجزيرة العربية .

الجـــــــــراد

زحف الجراد على الجزيرة العربية امر عادى نسبيا ، وعام الجراد يعقبه عام آخر فثالث وربما رابع . موطن هذه الحشرات افريقيا ومن هناك تأتى الى الجزيرة العربية عن طريق الحبشة فاليمن . ثم تهاجر متبعة أحد طريقين ، الأول الى بلوشستان والهند عن طريق الساحل الجنوبي للجزيرة العربية والآخر يمر عبر الحجاز ونجد وشمال شرقي الجزيرة ثم الى العراق وإيران ، وهى نظرية يعتقد بها العرب فى الصحراء .

وعندما يهاجم الجراد البلاد لا يلتهم فقط الأعشاب والشجر وإنما يسبب ضائقة كبيرة لأهالي المدن والقرى وتموت المئات من المواشى بعد مرور الجراد اذ لا يبقى فرع أخضر أو يابس تقتات به. وقد سجلت السنوات ١٩٢٩ ـ ١٩٣١ هجمات شديدة لأسراب متعاقبة من الجراد قمت بتدوينها في مفكرتى الرسمية .

تميز ربيع وخريف عام ١٩٢٩ بضخامة أسراب الجراد وسرعتها حيث أتلفت ودمرت القسم الشمالي من الجزيرة العربية . وفى فصل الخريف قتلت الأمطار الملايين من هذه الحشرات ولكنها عادت الى الظهور مرة ثانية من جهة الحسا وبأسراب ضخمة . وتضع أنثى الجراد بيضها فى الرمل الدافىء .. فى ذلك العام تكهن الجميع أن يكون ربيع عام ١٩٣٠ موسم وصول (الدبا) وهو جراد صغير فى مراحل الحبو والقفز ولا أجنحة له .

وفعلا في أوائل عام ١٩٣٠ قاست مدينة الكويت الأمرين مما لحق بها من خراب ودمار وكان على أهالى الكويت أن يصارعوا لعدة أيام هذه الحشرات للحفاظ على أى شيء يمتلكونه . كانت نخيل التمر فى قرى القصور والجهراء جرداء عارية وكأنها تعرضت لحريق هائل . وحتى أننى سمعت قصة طفل تركته أمة فالتهمت هذه الحشرات معظمه وإن كنت لا أجزم بصحة هذه القصة . لم يخلص المدينة من ذلك البلاء سوى عاصفة شديدة هبت فجرفت معها تلك الجحافل الى خليج الكويت .

وفي أوائل شهر فبراير من نفس السنة بدأت القصص تردعن إقتراب جحافل الجراد من جهة الجنوب ، وسرعان ما وصلت تقارير من منطقة الكويت المحايدة تفيد بأن أعدادا كبيرة من المواشى قد ماتت نتيجة إلتهام الحشرات لكل أخضر ويابس فى البرارى . وفى الخامس والعشرين أصبح من المؤكد أن على الكويت أن تقاوم هجوم الدبا المريع . وقام الشيخ بعدة حملات مضادة للحشرات اذا قدمت الى المدينة . وفى العاشر من

شهر مارس حضر مراسلون من الجنوب بأنباء عن فقس الدبا فى كل مكان ، وفى الثامن والعشرين وصلت تقارير تفيد بأن جيوشا كبيرة منها على بعد عشرة أميال جنوب المدينة بينما أشرفت جحافل أخرى على الجهراء والواحات على بعد عشرين ميلا من غرب مدينة الكويت .

في السابع من إبريل زرت وزوجتي المنطقة الجنوبية للمدينة ووجدت الدبا يتقدم والأرض تغلى مثل بساط متموج يتحرك . وكل دباة تسير كتفا بكتف مع جارتها وقد بلغت كثافتها حداً كبيرا بحيث حفرت عجلات السيارة من بينها طريقا منتظمة وكأنها تسير خلال ثلوج صفراء وسوداء . والملايين التى سحقتها السيارة إلتهمتها رفيقاتها في الحال ، وفى خلال ثوان فقط ، كانت الطريق المحفورة قد إمتلأت من جديد بعد أن زحفت اليها أسراب الدبا من جميع الجهات وطمست معالمها . أما المناطق التى مرت عليها تلك الجيوش فقد تركت جرداء قاحلة لم يبق منها سوى الرمال ، لدرجة أنها إلتهمت السيقان الغليظة لأشجار كبيرة يبلغ أرتفاعها حوالى ثلاثة أقدام .

وفي الحادى عشر من إبريل ذهبنا الى الجهراء لمعاونة المسؤولين لدى الشيخ فى مواجهة الوضع الخطير . فوجدنا القرى والواحات قد اكتسحتها حشود أكبر وأضخم مما رأينا جنوب الكويت . وكان القرويون يخوضون حربا شجاعة فيشعلون النيران ويحفرون الخنادق ويغطون أسوار حدائقهم بأوراق الصحف والصفائح التنكية والأوراق المطلية التى أحضروها من الكويت لتمنع تسلق الحشرات . ولكن جهودهم ضاعت هباء ، فأمام أعيننا سحقت ودمرت تلك الحدائق الخضراء . التى تتشكل منها واحات الجهراء . وقد قدرت طليعة هذه الجيوش بخمسة أميال ، أما الأعماق فلم تكن واضحة المعالم . وكانت الحشرات من جيلين ، جيل عمره أسبوعان لونه أسود والآخر عمره شهر ولونه أسود تتخلله شرائط صفراء وكلاهما بدون أجنحة .

في الثاني والعشرين من إبريل وصلت جحافل من الدبا على شكل موجة صفراء سوداء مرعبة وتسلقت أسوار المدينة ودمرت فى طريقها كل الحدائق الواقعة بين الاسوار والبيوت بالرغم من كل المجهودات التى بذلت لكبحها . إن الدمار والخراب الذي خلفته هذه المخلوقات وزحفها فوق المبانى وغزوها حتى للشقق الداخلية شيء لا يصدقه عقل . وقد تعرض مبنى الوكالة وبيتي الخاص لخمس هجمات يوميا بالرغم من إغلاق الأبواب والنوافذ باحكام شديد حتى انها وصلت الى القاعة العمومية وأتلفت السجاد والأثاث .

وفي الثامن والعشرين من إبريل ظهرت بوادر الخلاص من هذا البلاء . فقد بدأت تظهر لها أجنحة ثم بدأت تطير وبذلك سقطت الملايين منها في البحر . وفي أول مايو لم يبق أى منها فى جنوب خليج الكويت مع أنها

أستمرت فى الخراب والتدمير عبر رحلتها الى الشمال .

ومرة أخرى فى مارس عام ١٩٣١ هاجمت الكويت أسراب كبيرة من الجراد ظهرت فى الأسبوع الأخير من الشهر وحلقت فوق المدينة لمدة ثلاثة أيام كالغيوم الكثيفة ثم توجهت الى الشمال بعد أن وضعت بيضها واعتقد الناس ان شدة الحر في ذلك الصيف المبكر ستفتك بالبيض وبالتالى ستنجو المدينة من بلاء الدبا . إلا أن تلك التنبؤات لم تثبت صحتها إذ ظهرت جحافله في التاسع عشر من إبريل فى مناطق متعددة من الدولة وخاصة فى الجنوب . وفى الحال بدأت تتقدم شمالا في اتجاه خليج الكويت .

وفي الثلاثين من إبريل وصلت مجموعات كبيرة من الدبا الى مشارف المدينة وبدأت تلتهم بساتين الخضراوات جنوب المدينة وبعد أسبوع كانت البلايين من هذه الحشرات قد زحفت ولحقت بسابقاتها . ومرة أخرى زحفت تلك الكتل الصفراء السوداء الضخمة فوق أسوار المدينة وغزت المدينة بأكملها . وهكذا تكرر المشهد المريع من العام الماضي ولكن فى هذه المرة كانت المحلات في السوق قد جذبت اليها تلك الحشرات فالتهمت المئات من ياردات الحرير والقطن وأتلفتها . ومرة أخرى هاجمت البيوت الخاصة والمطابخ والطعام وكانت جثث الدبا تسبح في مرق الطعام أو مدفونة في أطباق الأرز . وقد عشنا في هذا البلاء الشنيع لمدة عشرة أيام كاملة . وفى السابع عشر من مايو كانت الحالة لا تطاق ، فالليل والنهار كوابيس متصلة . فإلى جانب الإضرار بالطعام والثياب وأغطية الفراش والأثاث كانت عضتها مؤلمة . وأخيرا جاء الفرج وهبت من الشمال الشرقي عاصفة شديدة استمرت خمسة عشر ساعة جرفت معها جيوش الدبا الى الغرب وعبرت الشاطىء الجنوبى للخليج ولم تعد الى الظهور مرة أخرى ، ولكنها خلفت وراءها الخراب والدمار فى البرارى حتى إنها التهمت بالكامل المراعى الواقعة جنوب المدينة الى عمق ثلاثين ميلا مما أدى إلى موت الآلاف من قطعان الغنم جوعا قبل أن يتم نقلها الى مناطق أخرى .

وفي شهر فبراير من العام التالى مرت فى سماء الكويت أسراب من الجراد . ووردت تقارير تفيد بأن أسرابا كبيرة تحلق فى جنوب الحسا والقطيف وأن الهفوف قد تكون . قاست الأمرين بسبب هذه الحشرات فى شهر يناير . وكان الناس فى الكويت يتوقعون هجوما كبيراً في شهر مارس ولكن لحسن الحظ لم يصل أى منها الى العراق ولا الكويت ولم يتكرر هجوم الأعوام السابقة .

وبخلاف أهل المدن فإن البدو القح لا يكترثون كثيراً لقدوم الجراد ، بل إنهم يعتبرون رؤيته مؤشرا على أن العام سيكون عام خير لأن الجراد كما يقولون لا يأتى الا فى سنين الخصب . ولا يحزنون إذا جردت الأراضى من

العلف والمراعي لأنهم ينتقلون الى مناطق أخرى لم يزحف اليها الجراد بعد ويعتقدون بأن ما يحدثه الجراد من خراب يبقى جزئيا لأن هذه الحشرات لن تعيش عندهم طويلا وإنما سترحل الى مناطق أفضل فى الشمال .

كذلك بقدوم الجراد يستمتعون بفرصة سد جوعهم المستديم لأنهم يتغذون به . والجراد الذي يأتى الى الكويت وشمال شرق الجزيرة العربية نوعان نوع قرمزى أو أحمر اللون ويعرف محليا بـ (البخاخ) ، والنوع الصحراوى العادى ولونه أصفر وعليه علامات بنية ويعرف بـ (الجراد) وتؤكل الإناث من النوع الأحمر فى الجزيرة العربية مقلية فى الزبد والملح أو مسلوقة أو مشوية ويشبه طعمها طعم الكستناء المحمصة ، وقد كانت زوجتى وإبنتى تستلذان بأكلها الا أننى شخصيا لم اكن أشتهيها .

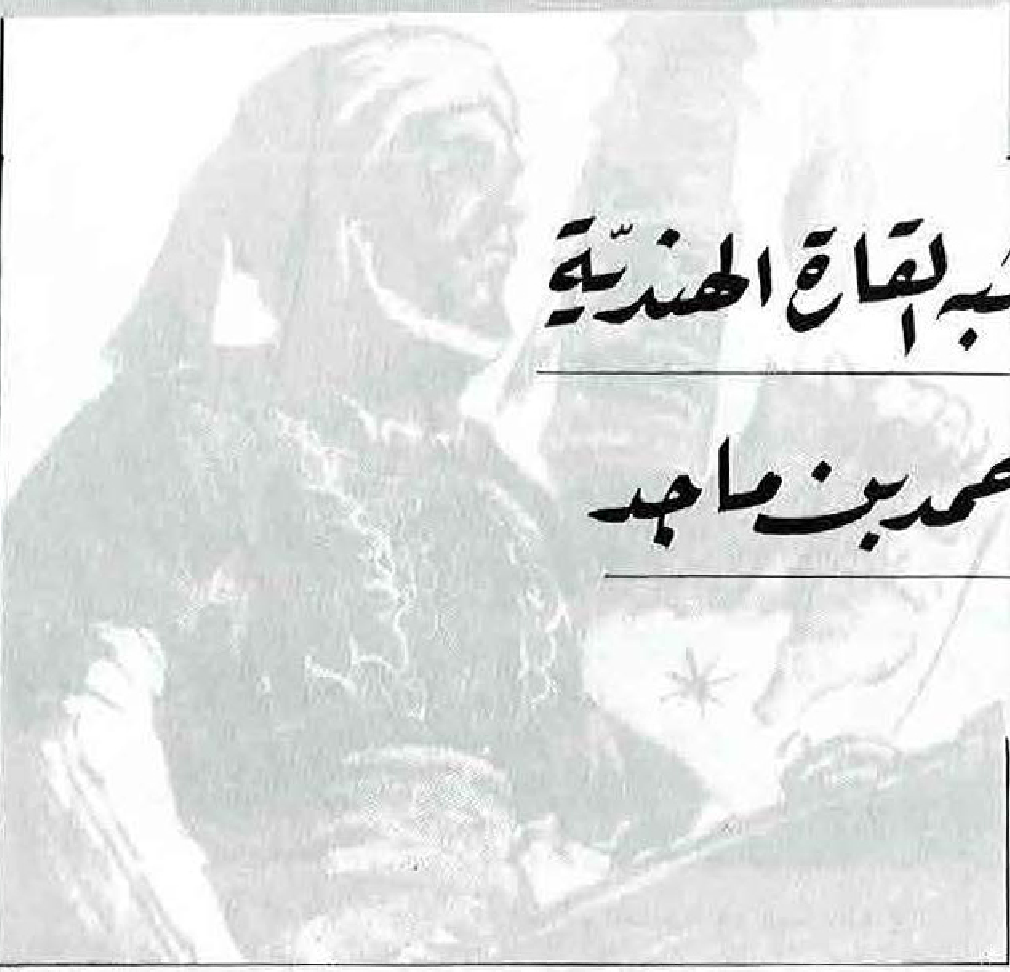
أذكر مرة أننى زرت مخيما للبدو بعد أن زارته جيوش من الجراد الأحمر ، وكان جميع أهالي المخيم يلتقطون الجراد ويجمعونه للأكل ، وكان الجراد المنثور يملؤ السطوح من الطرف الى الطرف ولم يبق بساط أو سجاد أو بطانيه الا فرشت ونثر فوقها الجراد لتجفيفه . وكان الناس والجمال والأمهار والكلاب، جميعهم، مشغولين بأكل الحشرات . بينما كانت قدور الطبخ والاكياس وقرب الماء والسلال الكبيرة محشوة بالجراد المجفف . ولا شك ان أسباب إقبال العرب على التهام الجراد هو الانتقام لأنفسهم مما لحقهم من أذى وخراب وهو ما قاله لى أحد الأصدقاء البدو ! ولكن البدو يبتهجون بذلك لأيام قليلة فقط ثم يشمئزون منه ويلقون بما تبقى لديهم من الجراد المجفف الى البهائم والحيوانات .

العلاقات التجارية بين الخليج العربي
في القرن الـ ١٥ كما تعكسها مؤلفات

الدكتورة صباح ابراهيم الشيخلي

لا أريد بهذه المقدمة أن أؤرخ لتاريخ العلاقات التجارية الخليجية ـ الهندية في العصر الوسيط ، وانما الهدف هو تقديم موجز عن العلاقات من حيث دوافعها وأسبابها وطبيعتها . وسوف يكون محور هذا الموجز هو الاجابة على التساؤلين الآتيين : لماذا الخليج العربي ؟ ولماذا الهند ؟.

فبالنسبة للتساؤل الأول ، يحتل الخليج العربي مكانة بارزة في العالم ، فهو ليس ممراً بحرياً فحسب ، أو معبراً تجارياً فقط ، وإنما هو مركز هام من مراكز التجارة والتسويق في العالم . ويرجع السبب في ذلك إلى موقعه الجغرافي الفريد ، حيث يمتاز بمياهه الهادئة وشواطئه الصالحة للملاحة ، وتوسطه قلب العالم في العصر الوسيط ، فهو يشكل حلقة وصل رئيسية بين أقدم عالمين عرفتهما البشرية .. عالم الثروات الطبيعية الهائلة في الشرق ، وعالم البحر المتوسط في الغرب . وبفضل هذا الموقع الجغرافي غدت سواحل الخليج العربي مراكز عظمى تصب فيها ، وتتفرع منها في الوقت ذاته شبكات واسعة من الطرق البحرية والبرية .[1] .



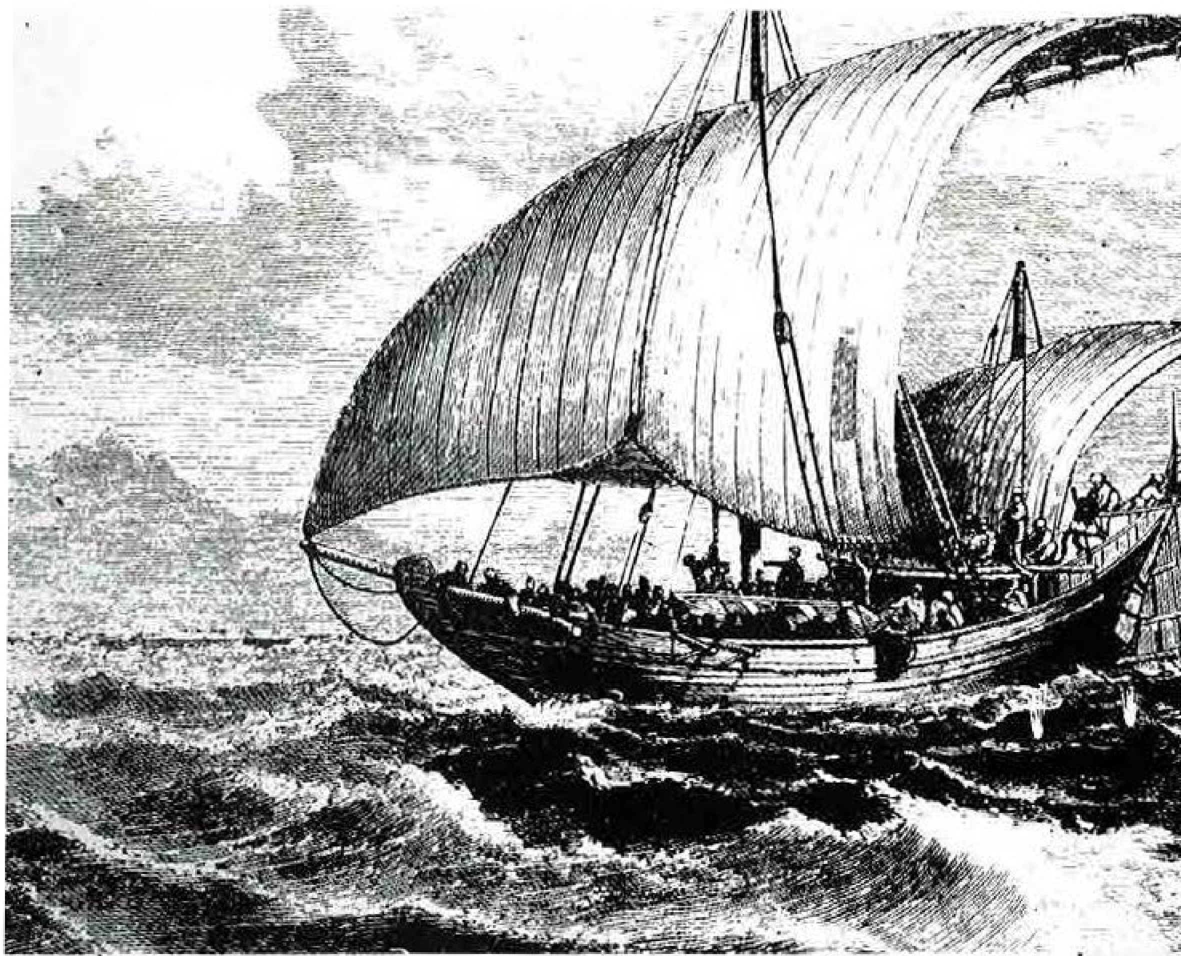
وشبه القارة الهندية

أحمد بن ماجد

وصفوة القول ، ان الخليج العربي بفضل موقعه الجغرافي يعدّ الطريق المباشر للتجارة الشرقية (وبالذات الهندية والصينية) سواء من حيث مصادرها أو أسواقها الطبيعية ، ولذا كان للخليج العربي دائماً السيطرة على مداخل هذه التجارة ومخارجها .

ان الموقع الجغرافي للخليج العربي ، فضلاً عن طبيعة البيئة ، قد شجع أبناءه على ركوب البحر منذ وقت مبكر واكتساب الخبرة الملاحية وأساليبها ، فمياه الخليج العربي غير العميقة وصلاحيته للملاحة وكثرة الجزر فيه ، أمور ساعدت سكانه على أن يكونوا رجال بحر . كما ساعدهم على ممارسة الملاحة البحرية ظاهرة المد والجزر التي يتمتع بها الخليج العربي بصفة خاصة والمحيط الهندي بصفة عامة .(٢) وكانت ممارسة الملاحة البحرية بصورة مستمرة من قبل سكان الخليج العربي ، قد جعلت منهم بحارة مهرة في النقل البحري في المحيط الهندي ، ولهذا امتلكوا زمام السيادة في ميدان التجارة البحرية مع أقاليم هذا المحيط .(٣)

كان لظهور الاسلام عقيدة وقوة



سياسية أثره على ازدهار التجارة الخليجية ، حيث سارت سفن العرب المسلمين تمخر عباب المحيط الهندي ، واستقبلت موانىء الخليج العربي بضائع الهند وحاصلات تجارة الشرق الرفيعة المستوى بشكل واسع لم يسبق له مثيل .(٤) فقد ارتبط مع قيام الدولة العربية الاسلامية وانتشار قوتها السياسية على رقعة واسعة من العالم ، قيام تجارة بحرية واسعة بين موانىء الخليج العربي وموانىء الهند والشرق منذ بداية القرن ٢ هـ/٨م . وكان لجهود العباسيين في تشجيع حركة التجارة البحرية وبوسائل متعددة ، الفضل في اعطاء دفعة قوية للتجارة الخليجية مع الهند والشرق . ويمكن تلخيص جهود العباسيين في هذا المجال كالآتي :

١ ـ سياسة التنسيق بين الخليج العربي وطرق التجارة العالمية التي اتبعها العباسيون ، من أجل ضمان التوازن الاقتصادي لدولتهم .(٥)

٢ ـ كان انشاء مدينة بغداد يشكل حدثاً مهماً في تاريخ العلاقات التجارية بين الخليج العربي والشرق ، إذ ارتبطت عاصمة الدولة العربية الاسلامية مباشرة بطرق مائية مع الخليج العربي أولا ومن ثم مع المحيط

النشاط التجاري بين الخليج العربي وشبه القارة الهندية في العصر الوسيط

الهندي .(٦)

٣ ـ حاجة المجتمع العباسي المتمدن إلى البضائع والسلع الكمالية والضرورية المتوفرة في الهند ومناطق الشرق الأخرى مما نشط التجارة العربية .

٤ ـ اهتمام العباسيين بالطرق التجارية ، لا سيما البحرية منها ، وذلك بتوفير الأمن ضد المخاطر البشرية (القرصنة) ، والمخاطر الطبيعية مثل الشعاب المرجانية وضحالة المياه خصوصا قرب الموانىء . ومن أجل ذلك قام العباسيون بتشييد الفنارات (الخشبات) في الخليج العربي لتنبيه السفن إلى هذه المخاطر .(٧)

شجعت هذه الأمور التجار العرب عامة ، وسكان الخليج العربي خاصة ، على الاتجار والرحلة عبر المحيط الهندي إلى شبه القارة الهندية وغيرها من مناطق الشرق . ولعل الثراء الواسع الذي حققه هؤلاء التجار ، والسلطان الذي أحرزوه في مجتمعاتهم ، قد كان دافعاً قويا وراء تجشمهم الصعاب والمخاطر في ركوب المحيط الهندي .

أما التساؤل الثاني ، لماذا الهند ؟ فقد لا أتي بشيء جديد إذا ما قلت ان للهند علاقات قديمة مع العرب سبقت الاسلام ، وان طبيعة هذه العلاقات كانت تجارية دائما وأبدا .(٨)

ان توجه نشاط التجار العرب عامة والخليجيين خاصة إلى مناطق الهند ، يعود إلى العلاقة المكانية بينهما . فالمسافة المائية بين سواحل الخليج العربي والسواحل الهندية (لا سيما الساحل الغربي للهند) قصيرة نسبيا ، ويمكن عبورها بوسائل النقل البحرية البسيطة .(٩) والواقع ان نهاية الخليج العربي تقع جغرافيا أمام الساحل الغربي للهند وامتداده العظيم من الشمال إلى الجنوب ، لذا كان انطلاق السفن من الخليج العربي إلى الهند وبالعكس دائب الحركة . وبهذا يكون للموقع الجغرافي للهند أثر في تنظيم الرحلات التجارية بينه وبين الخليج العربي وبالتالي خلق تبادل تجاري قوي بينهما . وحرّى بالقول ان الهند تعد أقرب مناطق الشرق إلى

الخليج العربي وبلاد العرب ، ولذا كان اهتمام العرب بها كثيراً وجزءا من اهتمامهم بتجارة الشرق .

ومما شجع على استمرارية الحركة بين مناطق الخليج العربي والهند ملائمة الظروف الملاحية (المناخية) ، ويأتي في مقدمة ذلك الرياح الموسمية التي تميز بها المحيط الهندي . حيث اندفعت بواسطتها السفن من الخليج العربي إلى الهند وبالعكس .

ومن الجدير بالذكر ان مناطق الهند وأقاليمه المختلفة قد وفرت للتجار القادمين إليها السلع الضرورية والكمالية معا ، فكان ذلك عامل جذب للتجار الخليجيين إلى الهند . إذ توفر في الهند الأخشاب ، كخشب الساج والنارجيل اللازم لبناء السفن في الخليج العربي ، فضلا عن المواد الغذائية الضرورية وعلى رأسها الارز والليمون الذي كان من الصادرات المهمة لأهل الخليج العربي . ووفرت الهند أيضا التوابل والبهار ، والمواد العطرية والطبية ، والمعادن والاحجار الكريمة والمواد المصنعة وغيرها . فكانت هذه المواد والسلع المهمة سببا في تهافت التجار العرب على الهند ، بوصفها مصدراً لأرباح طائلة في تجارة العصر الوسيط .(١٠)

ابن ماجد بين الخليج العـــربي والهنـــد

لقد أشارت المصـادر العربيـة التاريخية والجغرافية وكتب الرحلات إلى الحركة التجارية الدائمة والمزدهرة بين الخليج العربي والهند في العصر الوسيط . وتحدثت عن الطرق التي سلكتها السفن التجارية واعتمدتها في رحلتها بين الاقليمين ، كما أشارت إلى الموانىء والمراكز التجارية القائمة على طول هذه الطرق ، ولم تنس أن تُذّكر المسافر عبرها بالمخاطر والصعوبات التي تجابهه ، كما وضعت قائمة بأسماء السلع والبضائع التجارية المختلفة التي كانت محور التبادل التجاري بين الخليج العربي والهند .

واستناداً لهذه المعلومات ألفت العديد من الكتب والأبحاث الحديثة عن الحركة التجارية بين الخليج العربي والهند في العصر الوسيط . ولذا نجد ان البحث عن هذا الموضوع اعتماداً على المصـادر العـربيـة التاريخية والجغرافية وكتب الرحلات يصبح عديم الجدوى والفائدة ، لان الباحث سوف لا يضيف شيئا جديداً بالمعنى الصحيح إلى ما أصبح متعارفا عليه سواء بين الكتاب القدامى او المحدثين .

ولهذا كله رأيت ان أطرق بابا جديدا عسى أن أجد فيه ، ويجد الباحثون الآخرون إضافة مفيدة لما هو معروف عن تاريخ العلاقات التجارية بين الخليج العربي وشبه القارة الهندية في العصر الوسيط . ومن هنا جاء اختياري لمصنفات أحمد بن ماجد لتكون المورد الذي استقى منه مادة هذا البحث لارسم صفحة أخرى لحركة التجارة الخليجية الهندية في

نهايات العصر الوسيط أو بكلمة أدق في النصف الثاني من القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد . أما اختياري لأحمد بن ماجد فله مبرراته وأسبابه ، اختصرها بما يلي :

١ ـ ان أحمد بن ماجد بن محمد بن عمر بن فضل بن دويك بن يوسف بن حسن بن حسين بن أبي معلق السعدي بن أبي الركايب النجدي [١١] هو من مدينة جلفار (رأس الخيمة حاليا) .[١٢] فهو اذن مواطن ذو نسب جزري وانتماء خليجي ، إذ كانت نشأته وترعرعه على شواطىء الخليج العربي ، وقد أعطته هذه النشأة خبرة فيه ودفعته إلى الاهتمام بكل ما يتصل به .

٢ ـ عاش ابن ماجد في الثلث الأول من القرن ٩هـ/١٥م ، وفيه بلغت الحركة التجارية والملاحية العربية في المحيط الهندي ذروتها ، على حين تميزت الفترة التالية (أي القرن ١٠هـ/١٦م) ببداية السيادة الأوروبية ونهاية الزعامة العربية في مياه هذا المحيط .

وعلى ذلك عاش ابن ماجد في فترة الازدهار التجاري والملاحي العربي ، فدون ما دونه عن الملاحة العربية في المحيط الهندي ، فكان ما ذكره عن الطرق وظروفها ومخاطرها من أدق ما كتب عن هذه القضايا ، وكانت مؤلفاته مصادر لا يستغني عنها الباحث .

٣ ـ ومما يزيد في أهمية ما كتبه ابن ماجد عن الخليج العربي والهند هو ان ابن ماجد نفسه كان ملاحا ينحدر من صلب أسرة انصرف أفرادها لقيادة السفن في المحيط الهندي . فكان والده بحاراً ماهراً ، وكذا هو الشأن بالنسبة لجده الذي كان متمكناً في علم البحر ، فورث ابن ماجد العمل في البحر من أسرته ، وركب المحيط الهندي منذ أن شب وحتى نهاية حياته .[١٣]

٤ ـ كانت الهند واحدة من الجهات التي قصدها ابن ماجد في رحلاته في المحيط الهندي . فقد قاد مركبه ما بين الخليج العربي والهند مرات لا تعد ولا تحصى ولفترة تزيد على الخمسين عاماً . وقد أكسبته هذه الرحلات تجربة عميقة في الطرق البحرية بين هذين الاقليمين ، ومعرفة كل ما يتعلق بساحليهما من أمور جغرافية وملاحية واقتصادية وتاريخية ، تلك المعرفة التي سوف تساعدنا على معرفة معالم الحركة التجارية النشيطة بين الخليج العربي والهند ، والتي عاشها ابن ماجد وعرفها عن كثب .

ان تجربة ابن ماجد الشخصية

والغنية فيما بين الخليج العربي والهند ، وما أخذه من معلومات من أبيه وجدّه ، وما قرأه عمن سبقوه في ميادين الرحلة والملاحة بين هاتين المنطقتين مكنه من تحبير ما أراده عنهما شعراً ونثراً . وقد أثبت ابن ماجد في ذلك بحق انه يمتلك معرفة نادرة عن سواحل المحيط الهندي ما بين الخليج العربي وسواحل القارة الهندية . ومما يدلل على أهمية ما سجله ابن ماجد عن الرحلة بين هاتين المنطقتين هو قول سيدي علي الريس في القرن ١٠هـ/١٦م في كتابه (المحيط) : «ان من الصعب على المرء ان يبحر من الخليج العربي إلى الهند دون الاستعانة بكتب الملاحة العربية ، ومن بينها ما كتبه ابن ماجد» .(١٤)

ومن الطريف أن نشير هنا إلى ان فضل ابن ماجد على الملاحة في الطرق التي تربط الخليج العربي بالهند قد جعل الملاحين العرب الذين ارتادوا البحر من بلادهم إلى الهند يقرأون الفاتحة تمجيدا للشيخ أحمد بن ماجد واعترافا بفضله حتى القرن التاسع عشر(١٥)، وقام الملاحون الهنود بالشيء ذاته احياءً لذكرى ابن ماجد وفضله .(١٦)

الخليج العربي والهند في مؤلفات ابن ماجد

أصبح من المعروف الآن ان ابن ماجد لم يكن ملاحاً وقائداً للسفن في المحيط الهندي فحسب ، وانما كان كاتبا للشعر والنثر الملاحي أيضا . فقد بدأ ينظم الشعر في وقت مبكر من حياته ، ثم كتب نثراً أيضا وان كان على نطاق محدود . وكانت حصيلة ما كتبه ابن ماجد ، وعلى مدى واحد وأربعين عاماً ، ستة وأربعين عملاً .(١٧) وقد ضمت هذه الأعمال بصورة خاصة ما سماه ابن ماجد نفسه بـ (علوم البحر)(١٨) ، التي قصد بها الملاحة الفلكية من حيث مبادئها وأصول العمل فيها .

ويبدو ان سعة اطلاع ابن ماجد على أعمال القدامى في مجال البحر ، وخبرته الدقيقة والطويلة في مجال اختصاصه ، جعلت من الملاحة الفلكية موضوعا شاملا في تصانيفه ، ليس للمعلومات الفلكية الملاحية وانما لمعلومات جغرافية مهمة أيضا ، ربما فاتت ما جاء عند الجغرافيين العرب فيما يخص مياه المحيط الهندي وسواحله وأقاليمه . والجغرافية عند ابن ماجد شملت الجغرافية الطبيعية ومعلومات اقتصادية وتاريخية وبشرية وحتى دينية وأدبية .

ومن خلال تصفحنا لمصنفات ابن ماجد المعروفة يمكن التعرف على مكانة معلوماته عن الخليج العربي والهند ، وهي المعلومات التي تثير الدهشة لكون الاقليمين يرد ذكرهما بشكل كثير جدا ، بحيث يندر الا نجد قصيدة أو أرجوزة أو موضوعا نثريا يخلو من ذكرهما فيه .

أما طبيعية المعلومات التي دونها

ابن ماجد عن الخليج العربي وشبه القارة الهندية وتحظى باهتمامنا ، فيمكن أن تصنفها إلى معلومات جغرافية وأخرى فلكية ، تتعلق تباعا بالخليج العربي والهند .(١٩)

فالمعلومات الفلكية الخاصة بالخليج العربي ، تشمل كل ما يتعلق بالملاحة البحرية ما بين الخليج العربي والهند من النجوم والكواكب ومنازلها والاخنان وما إلى ذلك ، وقد أشير لها من أجل معرفة الطرق الصحيحة بين المنطقتين . فالسفن الشراعية التي كانت تنقل المسافرين والسلع التجارية عبر مياه المحيط الهندي انما تسير بهدي النجوم والكواكب ، فتصبح معرفتها ضرورية لوصول السفن إلى الجهات التي تقصدها .

أما الجانب الجغرافي ، فيشمل الجغرافية الطبيعية ، بما فيها من وصف لطبيعة القشرة الأرضية ، وطبيعة المياه . وهنا يصف ابن ماجد ساحلي الخليج العربي الشرقي والغربي ، ففيما يخص الساحل الشرقي نجد ان ما كتبه ابن ماجد ليس مفصلا ، وانما كتب رجزاً قليلاً ، وأشار إلى بعض الجزر القريبة منه مثل قشم ، وهنجام ، وقيس ، وهذاري ، ولار وغيرها . وذكر بعض الطرق الملاحية التي تربطها بجزر الخليج العربي الأخرى الواقعة في الوسط أو بالساحل الغربي للخليج العربي .

أما الساحل الغربي للخليج العربي ، فيحوي شعر ابن ماجد كثيرا من المعلومات التفصيلية عنه غاية في الأهمية . ففي (الحاوية) وبقية الاراجيز والقصائد ، نجد وصفاً عاماً للساحل الغربي للخليج العربي دون محاولة لتجزئة أقسامه بصورة دقيقة وتفصيلية . فهو يذكر البصرة ، ثم القطيف ، ثم مناطق الاحساء (الحسا) بما فيها البحرين وقطر ثم يسكت لينتقل إلى عمان وموانئها . أما عمان فإن حظها أحسن من كل أقاليم الساحل الغربي للخليج العربي ، حيث يفصل في الفائدة التاسعة من كتابه (الفوائد) عن منطقة مسقط وصحار ، مشيراً إلى النشاط الاقتصادي فيها وإلى الطرق التجارية التي تربطها بالطرق الملاحية في المحيط الهندي . ولا ينسى الاشارة إلى السلع التجارية والمنتجات الزراعية المتوفرة فيها .

وفي الفائدة العاشرة من كتاب ابن ماجد (الفوائد) ، نجد وصفاً تفصيليا عن البحرين ، بما تحتويه من وحدات ادارية ، ومنتجات زراعية وتجارية ، وعن طبيعة الحكم السياسي فيها . كما يرد في شعر ابن ماجد وأراجيزه معلومات مهمة عن البحرين وارتباطها بطرق الملاحة في الخليج العربي لا سيما في جزره . ويفهم من تلك المعلومات ان البحرين كانت بمثابة المحطة المهمة الثانية بعد البصرة ، حيث ان السفن كانت تمر بها قبل

توجهها إلى موانىء عمان .

ولا ينسى ابن ماجد وهو يصف الساحل الغربي للخليج العربي ذكر كثرة التعرجات الموجودة فيه . كما يحدد عمق المياه وضحالتها فيه ، ويذكر حركة المد والجزر التي تميز هذا الساحل وتتحكم في الدخول والخروج من خلجانه وشعابه وتوصل إلى موانئه .

وتنال الجغرافية المناخية اهتماما كبيرا في مؤلفات ابن ماجد ، لا سيما الرياح التي تتحكم في الخليج العربي ، ومنها الرياح الموسمية التي تهب عليه . اذ يشير إلى أوقات هبوب هذه الرياح وعلاقتها بمواسم السفر ، سواء الخاصة بالرحلة إلى الهند أو العائدة منه .

وتحوي مصنفات ابن ماجد اشارات إلى المنتجات والسلع الزراعية والتجارية التي تتوفر في الساحل الغربي للخليج العربي ، والثروات التي تضمها مياهه ، والتي ساهمت في ايجاد حركة تجارية نشطة في أيامه .

ويتوج ابن ماجد معلوماته عن الساحل الغربي للخليج العربي بذكر ما يتعلق منها بربابنة السفن والمسافرين ، اذ يحدد الصعاب الطبيعية التي تواجههم ، سواء ضحالة المياه وكثرة الشعاب ، وعملية المد والجزر . ويؤكد بصورة خاصة على المصاعب التي يواجهها المسافر في رأس الخليج العربي الجنوبي ـ مكان انطلاق السفن إلى مياه المحيط الهندي ـ بقصد الوصول إلى الهند .

أما معلومات ابن ماجد عن شبه القارة الهندية ، فهي الأخرى معلومات ملاحية ـ فلكية وجغرافية . فالمعلومات الملاحية ـ الفلكية تتعلق بالطرق الملاحية التي تربط المحطات والمراكز التجارية الساحلية في شبه القارة الهندية بالخليج العربي . وهنا يفصل ابن ماجد في ذكر هذه الطرق والقضايا الفلكية من الكواكب والنجوم والبروج والمنازل التي تتحكم في هذه الطرق . ويقدم في الوقت ذاته ارشادات إلى الملاحين بشأن ذلك ، وهذا ما نجده في (الحاوية) وبقية (الاراجيز والقصائد) و(الفوائد) . وعلى أية حال ، فان معلومات كهذه تعد ذات قيمة كبيرة في خدمة الحركة التجارية مع الهند .

أما معلوماته الجغرافية عن الهند ، فيصف ابن ماجد فيها سواحل شبه القارة الهندية بالتفصيل ، ويقسم ذلك على النحو الآتي :

١ ـ ساحل السند .

٢ ـ الساحل الغربي للهند ويقسمه إلى أربعة أقسام من الشمال إلى الجنوب ابتداء من رأس مدور وانتهاء برأس كمهري . وهذه الأقسام الأربعة هي :

أ ـ اقليم جوزرات .

ب ـ اقليم كنكن .

جـ ـ اقليم تلوان .

د ـ اقليم مليبار وساحله ، الذي هو

أطول سواحل برّ الهند .

ويصف ابن ماجد برّ الهند هذا من حيث طبيعـة القشرة الأرضيـة ، وما تحتويه سواحله من تعرجات وخلجان ، والجبال التي تكثر في هذه السواحل حيث عدها ابن ماجد خير معـين لارشاد المسـافر إلى تلـك السواحل ، لذا ميز جبال كل اقليم عن غيرها .

كما يشير إلى الشريط الساحلي لشواطىء الهند الغربية ، والمتكون من عدد من الجزر ، ولا ينسى ابن ماجد وصف طبيعة المجرى بين أقاليم برّ الهند وبين هذه الأقاليم والجزر ، لا سيما بين اقليم مليبار ومجموعة جزر الفال المقابلة لهذا الاقليم . كما ذكر جزيرة سرنديب (سيلان) التي تقع في جنوب الساحل الغربي للهند . وقال انها مدورة . ووصف ساحل الهند الشرقي وان كان وصفه مقتضباً اذا ما قيس بالساحل الغربي ، ولعل ذلك يعود إلى سيطرة التجار الهنود على نشاط هذا الساحل .

ويتصـدى ابن ماجـد للريـاح الموسمية التي تهب على هذا الساحل ، وتتحكم بمواسم السفر إليه . ويبدو انه أثبت بالتجربة الفعلية ان سفن الخليج العربي تستطيع السفر إلى ساحل السند لمرات متعددة في العام ذهابا وايابا ، أكثر مما إلى ساحل الهند الغربي . وأكد ان المسافر في الساحل الغـربي ، لا سيما اقليم مليبار ، لا يستطيع السفر الدائم إلى بلاد السند ، بفعل الرياح العالية والطوفانات التي تميز بها ساحل مليبار . ولا يغفل ابن ماجد الاشارة إلى بعض المنتجـات الـزراعيـة والحيـوانيـة للسـاحـل وجـزره ، وما يوجد من ثروات في مياه هذا الاقليم .

وهكذا نجد ان اهتمام ابن ماجد بالخليج العربي وشبه القارة الهندية كان كبيرا ، وسوف نحاول من خلال المعلومات التي تركها لنا أن نرسم صورة واضحة لحركة التجارة بين الخليج العربي والهنـد في القرن التـاسع الهجـري/ الخامس عشر الميلادي .

التجارة بين الخليج العربي والهند في القرن ٩هـ/١٥م

أولاً : الطـرق التجـاريـة ومحطاتها:

لقد سلكت حركة التبادل التجاري بين الخليج العربي وشبه القارة الهندية طرقا بحرية متعددة ، لم تتغير معالمها منذ أقدم العصور . فقد بقيت الاتجاهات الرئيسية ثابتة ، ولكن قد ينهض طريق دون أخر في فترة زمنية معينة تبعا للضمانات الأمنية التي تتحكم في الطرق البحرية سواء أكانت طبيعية أم بشرية ، وتبعاً لما يتوفر في محطات وموانىء هذه الطرق من سلع وبضائع تجارية مرغوبة ومطلوبة في الأسواق .

لقد جرت العادة أن تتبع الرحلة

التجارية ما بين الخليج العربي والهند ، أحد الطريقين التاليين اللذين وصفهما الرحالة والجغرافيون العرب :

١ ـ الطريق الساحلي ، وهو أقدمها ، اذ يبدأ من البصرة أو الابلة ويسير بمحاذاة الساحل الشرقي للخليج العربي مخترقا عدداً من جزره إلى أن يصل إلى هرمز ومنها يستدير إلى ساحل مكران قاطعا إياه ليصل إلى ساحل بلاد السند ، وهو المصدر الأول من مصادر التجارة مع شبه القارة الهندية . وبعدها تسير السفن إلى سواحل الهند الغربية إلى نهايتها ، وقد تعرج على سيلان أو تستدير إلى الساحل الشرقي للهند .

٢ ـ الطريق البحري المباشر ، وهو طريق مختصر ، يبدأ من البصرة قاطعا الساحل الغربي للخليج العربي حتى نهايته حيث مسقط في عُمان ، وهناك يتزود التجار المسافرون بالماء العذب والمؤن ، ثم تنطلق سفنهم تمخر عباب المحيط الهندي لتصل إلى أي ميناء تبغيه في السند أو ساحل الهند الغربي . وكان استخدام هذا الطريق أكثر لقصره ، بالرغم من المخاطر التي تتعرض لها سفنهم عبره .

أما في أيام ابن ماجد فقد استمرت الرحلات التجارية في استخدام هذين الطريقين ، ويسمى ابن ماجد الطريق الأول بديرة الملّ (والملّ اصطلاح يطلقه البحارة على البرّ القاري) ، وهو الذي يجري في العادة بمحاذاة الساحل . أما الطريق الثاني فيسميه بـ (ديرة المطلق) . وفيه تقطع السفن عرض البحر ، ويربط عادة بين بندر على أحد السواحل وآخر على ساحل يقابله ، وهي مشتقة من الأولى .[٢٠] وأضاف ابن ماجد طريقا ثالثاً ، وهو الذي سماه بـ (ديرة الاقتداء) . وفيه تقلد السفينة ـ مركباً آخر في البحر إلى أن تصل إلى خط عرض بندرها أو حتى تقطع مسافة معينة .[٢١]

وهكذا حدد ابن ماجد ، بصورة عامة ، الطرق الملاحية عبر المحيط الهندي ، وسوف نحاول أن نتتبع الطرق الملاحية التجارية بين الخليج العربي والهند خطوة خطوة ومحطة محطة أيام ابن ماجد وعلى لسانه . كما سندرس هذه الطرق على مرحلتين ، الأولى الطرق التي تستخدمها السفن التجارية في الخليج العربي ، والثانية ما تقطعه مراكب التجار من طرق في سواحل السند وأقاليم الساحل الغربي للهند ، ذاكرة في كلا الاقليمين أهم المحطات والمراكز التجارية التي تحط فيها السفن أو تمر عليها ، مع الاشارة إلى الجزر التي تعترض السفن في كلا المرحلتين . كما سنشير بين الحين والآخر إلى ما إذا كانت المراكب تقطع ديرة المل أو ديرة المطلق في خط سيرها .

١ ـ المرحلة الأولى (الطرق الملاحية التجـارية في الخليـج العـربي

١ ـ الطريق الساحلي الغربي :

يبدأ هذا الطريق من البصرة إلى القطيف . وفي هذا يقول ابن ماجد : «اذا جاوزت البصرة الفيحاء ، انجذت البر إلى السلمية والقطيف والحسا وعمان وقطر ، الكل في المشارق والجنوب» .(٢٢) ولا يفصل ابن ماجد في المنطقة الساحلية ما بين البصرة والقطيف ، بل هناك انتقال مفاجيء إلى منطقة القطيف التي يصفها في أرجوزة (برّ العرب) بانها منطقة عامرة .(٢٣) وبهذا فهو يذكرها جزءا من الحسا ، ومن ثم يشير إلى عمان وقطر . هذه هي المحطات الرئيسية على الساحل الغربي للخليج العربي التي يجب على السفن التجارية المرور عليها أيام ابن ماجد ، غـير ان الاشارات اليها جاءت مقتضبة . على أن عدم وصف ابن ماجد للطريق الساحلي بـين البصرة والقطيف ، يعطي انطباعا بان السفن كانت تتجنب السير بمحاذاة هذا القسم من الساحل الغربي للخليج العربي وتسير مباشرة إلى القطيف .(٢٤)

ووفقا لما ذكره ابن ماجد فان الشريط الساحلي الغـربي للخليج العربي يتكون من «جـزر خراب وعمار ، وعرب لهم بنادر فيها ، وفيها جزيرة البحرين» .(٢٥) وإذا كانت اشارة ابن ماجد إلى هذه الجزر عامة ، فان البحرين احتلت مساحة ومكانة مهمة في كتاباته ، إذ عدّها من الجزر الكبار في العالم . والسبب ، على ما يبدو ، يعود إلى كونها مركزاً تجارياً مهماً ليس لمرور السفن ، وإنما لتواردها إليه لحمل البضائع المتوفرة وبالذات اللؤلؤ الذي يوجد بكثرة في المياه المحيطة بهذه الجزيرة . يقول ابن ماجد عن البحرين في الفائدة التاسعة :

«وتسمى أوال ، وفيها ثلاث مائة وستون قرية . وفيها الماء الحالي من جملة نواحيها . وأعجب ما فيها يقال له القصاصير . يغوص الانسان في البحر المالح (بالقربة) ، ويملؤها من الماء الحالي ، وهو غرقان في الماء المالح .. وحولها معادن اللؤلؤ ، وعدة جزر كلها فيها لؤلؤ تأوى إليها مراكب كثيرة نحو ألف مركب .

وفيها جملة قبائل من العرب ، وجملة تجار . وفيها كثير من النخيل المثمرات اللواتي تضرب بها الأوصاف والأمثال ، وفيها الخيل والابل والبقر والاغنام ، وفيها عيون جارية ، وفيها رمان وتين وزيتون وترنج وليم ، وهي غاية في العمارة» .(٢٦)

يتضح من هذا التفصيل الحيوي للبحرين ، ان ابن ماجد أورد معلومات مهمة ومتنوعة عن البحرين . فمن الناحية الجغرافية . وصف سعة البحرين بقوله انها تتكون من ٣٦٠ قرية .(٢٧) كما وصف وفرة الماء

العذب فيها الذي يستخرج من أماكن معينة من البحر . ووصف ثرواتها الزراعية والحيوانية . بشكل يدلل على ازدهار البحرين . ولعل من أهم ما ذكره ابن ماجد ، والذي يهمنا في هذا البحث ، ما أورده عن النشاط التجاري للبحرين ، اذ توضح معلوماته انها احتلت مكانة تجارية هامة في الخليج العربي ، لتوفر اللؤلؤ فيها ، وتوفره في الجزر والجزر القريبة منها، والذي كان سببا في كثافة النشاط التجاري للبحرين .(٢٨) ومما يرتبط بذلك ان ابن ماجد يعدد الطرق الرئيسية والفرعية التي تربط البحرين بموانىء الخليج العربي وجزره ، أو تربطها بالخط التجاري العام الذي يقطع الساحل الغربي للخليج العربي ، الذي تصل نهاياته الشمالية إلى البصرة (شط الفرات) . وفي هذا يقول ابن ماجد :

ولم يعزم البحرين من هو حازم
سوى أهلها ، والغوص من قبل في الزمن
كذلك من شط الفرات وارضه
ويمكن بعض للضرورات ان شحن(٢٩)

أما جنوبا فترتبط بالخط البحري الذي يوصلها إلى رأس مسندم وموانىء عمان . ويقدر ابن ماجد المسافة بين البحرين ورأس مسندم بسبعة أيام عن طريق البحر .(٣٠)

أما الطرق الفرعية التي تربط البحرين باقاليم الخليج العربي وجزره فهي متعددة . فهناك طرق تربطها بالساحل الشرقي للخليج العربي مع رأس الكهن وسيراف ،(٣١) وطرق تربطها بالجزر القريبة إلى الساحل الشرقي . مثل جزيرة هندرابي ،(٣٢) وأخرى تربطها بالجزر التي تتوسط الخليج العربي مثل حير وزغناء وطنب(٣٣) ، وهذا ما يؤكد بالدليل القاطع على ان البحرين تعد مركز جذب تجاري مهم لسكان الخليج العربي .

ومما تجدر الاشارة إليه ان جزر الخليج العربي المتعددة لا ترتبط بطرق بحرية مع البحرين على الساحل الغربي للخليج العربي ، وانما باقاليم أخرى . فابن ماجد يصف لنا الخطوط الملاحية التي تربط جزيرة زغناء بقطر والشارقة ،(٣٤) وتلك التي تربط ميناء رأس الكهن الواقعة على الساحل الشرقي للخليج العربي برأس لفان في قطر .(٣٥) كما ان هناك طريقا بحريا يربط جزيرة طنب بالشارقة . وطريقا يربط ام القوين ورأس الخيمة .(٣٦) ويبدو ان جزيرة طنب (التي تتوسط مياه الخليج العربي مقابل رأس الخيمة) ، لها مكانة مهمة في طرق التجارة الملاحية في هذا المنفذ ، حيث لا ترتبط بطرق تجارية مع الساحل الغربي فقط ، بل مع جزر الخليج العربي الأخرى ، مثل جزيرة هنجام ، الواقعة بينها وبين هرمز ، وجزيرة أم الغنم قرب رأس مسندم ، وغيرها من الجزر ، وبالساحل الشرقي للخليج العربي أيضا ، وربما هناك خط

تجاري (بديرة المطلق) يربطها بالخطوط الملاحية في المحيط الهندي .(٣٧)

وهكذا نجد ان ابن ماجد لا يهتم باقاليم الساحل الغربي للخليج العربي والواقعة بين البحرين ورأس مسندم ، مثل قطر والشارقة ورأس الخيمة وانما يكتفي بالطرق الفرعية التي تربطها بجزر الخليج العربي . وهذا يدفعنا إلى القول ان السفن التجارية التي تقصد عمان ومن ثم مياه المحيط الهندي ، كانت لا تتوقف على ما يبدو بموانىء قطر والشارقة ورأس الخيمة أيام ابن ماجد .

تسير السفن إلى رأس مسندم الواقع في رأس الخليج العربي في الساحل الغربي . ويصف ابن ماجد هذا الرأس بأنه جزيرة على رأس خور ، فهي لسان بحري اذن ، وهي عنده آخر الجزر في ساحل الخليج العربي في قسمه الجنوبي . كما لا ينسى أن يذكر المسافر بوجود عدد من الجزر الأخرى في هذه المنطقة مثل جزر سلامة وبناتها وتسمى «عوير وكوير والثالث ليس فيه خير» ، وهذه التسمية أخذها ابن ماجد من كتب أحد الملاحين القدامى المشهورين وهو «اسماعيل بن حسن بن سهل بن ابان» . وهناك جملة جزر أخرى يسكنها العرب في هذه المنطقة أيضا .(٣٨)

وبالاستدارة من رأس مسندم باتجاه الجنوب تصل المراكب إلى مرفأ سحار (صحار) . وفي هذا يقول ابن ماجد : «ثم يدور البر في مسندم في سهيل مقدار عشرة أيام في البر إلى سحار وبينهما مدن كثيرة لم تنقطع من النخيل والخشب والخلق والبنادر والعمارات» .(٣٩) وهذا يعني ان المنطقة الواقعة ما بين رأس مسندم وصحار كانت منطقة عامرة بالسكان ، كثيرة المدن ، ومنطقة خصب وزرع ، وهي تمتد لمسافة عشرة أيام سيراً في البرّ .

ومن صحار إلى مسكت ، ويرسمها ابن ماجد في أحيان أخرى مسقط ،(٤٠) ويقول عنها في كتابة الفوائد :

«مسكت بندر لم يكن في الدنيا مثله . انه له أشاير ، وفيه خصائل ، لم تكن في غيره : الأول انه له حجرا على رأس بندره ، يراه الغادي والجابي في أي مكان قصده ، في الهند أو السند ، أو في هراميز أو مكران أو جاش والغرب . وعلى مغارب النسر الكبير ، عنده جزيرة حمراء عالية ، يقال لها الفحل . وتانك اشارتان تكفيان الجاهل فيه ان ورد بالليل أو النهار . وهو بندر عمان من العام إلى العام تشحن المراكب منه البشر والتمر والخيل وتبيع فيه البزّ والسليط والغلات ، وتقصده المراكب ، وهو رأس بين ديرتين متفارقتين ، مخرق بكل ريح ، وفيه الماء الحالي . والنزال وطيئو الجانب محبون للغريب ، هو أول الاطواح ، ومنه في أول العقرب إلى

رأس الحد الذي ابتدانا منه». [٤١]

ان هذا الوصف الحيوي لمسقط يدل على ان ابن ماجد عنده الشيء الكثير ليقوله عنها . فهو يصف مسقط بانه ميناء مشهور في العالم . ويعزو هذه الشهرة إلى حركة التجارة النشطة فيه وتوفر فرص العمل . أما أسباب نشاط مسقط التجاري ، فيعود إلى ان هذا الميناء جمع خصالا كثيرة منها ، موقعه الجغرافي في رأس التقاء ساحلين (الساحل الغربي للخليج العربي والساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية) ، وطبيعته المناخية .. حيث انه في مأمن من كل أنواع الرياح ، ثم توفر المياه العذبة فيه ، ثم لا ينسى أن يذكرنا ابن ماجد بالمزايا البشرية فيه وهي ان أهله مضيافون وسكانه اجتماعيون يحبون الغرباء .

وفوق هذه الخصال ارتبطت مسقط بطرق تجارية بحرية متعددة ربطتها بساحل مكران وساحل السند وساحل الهند ، ثم ربطتها شمالا برأس مسندم وأقاليم الخليج العربي المختلفة. [٤٢]

ووهبت الطبيعة هذا الميناء اشارتين واضحتين للمسافر في الليل أو النهار ، الأولى وجود حجر في بندر هذا الميناء يراه كل مار وقادم إلى مسقط من كل الاتجاهات . أما الاشارة الثانية فهي وجود جزيرة فيها مياه حمراء عالية واضحة . وبفعل هذه العوامل مجتمعة شهدت مسقط أيام ابن ماجد ، وعلى حد قوله ، نشاطا تجاريا كثيفا فتواردت عليها السفن من كل الاتجاهات وطوال العام ، لحمل بضائعها المختلفة سواء كانت حاصلات زراعية أم أقمشة أم خيلا وغيرها .

دفعت هذه المزايا ابن ماجد إلى أن يسهب في وصفه لمسقط ، وتبيان أهميتها في جذب التجار إليها . وهذا الأمر ذاته هو الذي دفع تيبتس إلى القول : بان ابن ماجد قد اندفع في الكتابة بشكل واسع عن مسقط والسواحل العمانية بوصفه مواطنا عمانيا. [٤٣]

ومع ان الأمر ليس فيه ضير ، ولكن نرى ان ابن ماجد رجل بحر ، ومن المؤكد ان يعد كل البحار هي موطنه وحياته ، ولم يدفعه للكتابة عن سواحل عمان ، ومن بينها مسقط ، إلا حركة التجارة النشطة التي تمتع بها هذا الاقليم وارتباطه بطرق التجارة العالمية المعروفة أنذاك ، فاعطى هذه التفصيلات التي هي بحق أقل ما يمكن أن يكون بالنسبة لميناء خليجي وصل إلى ذروة نشاطه التجاري في القرن ٩ هـ/١٥م .

يعدد ابن ماجد الطرق التجارية التي ترتبط بها مسقط ، فيشير إلى طريق من مسقط إلى السند ، وزجد وفي هذا يقول :

ومن حدود مسقط للسند
إلى زجد ترى المكان عندي [٤٤]

كما يذكرنا بطريق آخر من مسقط

إلى موانيء مدور في جوزرات وكنكن ، حيث يقول :

وان تكن ممن يـريـد مـدور
أو كنكنا في مسقط والسعترى[٤٥]

ومن موانيء عمان الأخرى التي يذكرها ابن ماجد بعد مسقط قلهات . ولكن القارىء ، ومن خلال قراءته لقصائد ابن ماجد وأراجيزه ، يشعر بان هذا الثغر ، الذي يقع جنوب مسقط ، لا يحتل إلا مركزا ثانويا في أيامه ، وذلك لكونه لا يرتبط بخطوط التجارة الرئيسية في المحيط الهندي . اذ يكتفي بذكر المجرى في فرتك (في الساحل الجنوبي للجزيرة العربية إلى قلهات) ،[٤٦] ، ووصف المجرى من قلهات إلى هرمز ،[٤٧] والاشارة إلى انه ميناء تمر عليه السفن المسافرة ما بين مسقط ورأس الحد ، فهو يقول :

ومن سحـار أن تـرد مسكتـا
أجـر عـلى الجـوز ولا تمكثـا
ومن هنـاك ان تـرد قلهـاتـا
مجـراك في السهيل كن ثبـاتـا
ومن هناك ان شئت راس الحد
مجراك في الجواز فلا تعد[٤٨]

وعلى أية حال ، فان قلهات تأخذ صورة أخرى في كتاب ابن ماجد (الفوائد) . اذ يشير إليها بوصفها ميناء تقصده السفن التجارية مثلما تقصد هرمز وغيرها من مراسي رأس الخليج العربي . كما تنطلق منه السفن إلى الهند ، لا سيما اقليم جوزرات ، مثلما تنطلق من مسقط . فالمراكب ، على قول ابن ماجد ، تسافر من مرة واحدة إلى خمس مرات خلال العام من قلهات ومسقط إلى جوزرات[٤٩] وبذلك احتفظت قلهات بمكانتها التي احتلتها طوال القرون الماضية[٥٠] وظلت عليها كذلك في أيام ابن ماجد .

ومن موانيء رأس الخليج العربي الغربي ، والتي تعد نقطة انطلاق للسفن الذاهبة إلى السند والهند رأس الحد ، الذي يقع بعد قلهات ويسميه ابن ماجد رأس الجمجمة أيضا .[٥١] ووفقا لما ذكره ابن ماجد ، فان «رأس الحد منجذب إلى البحـر ، أقرب ما يكون من برّ العرب للهند ، وهو بين ديرتين بعيدتي الانحراف» .[٥٢] وهذا القرب لرأس الحد إلى سواحل الهند الغربية جعله أهم نقطة في السواحل العربية لكل الملاحين العرب لانه يعد المكان المناسب الذي تنطلق منه السفن في رحلتها من الخليج العربي إلى الهند . ومما يزيد في أهمية رأس الحد انه يقع في نفس خط العرض الذي يقع فيه اقليم جوزرات في ساحل الهند الغربي ، وهذا يعني ان خط الارتباط البحري بينهما قصير ومباشر ، هذا فضلا عن ان رأس الحد يرتبط بالمجرى البحري للساحل الغربي للخليج العربي .[٥٣]

ذكر ابن ماجد عدداً من الطرق التي تربط رأس الحد باقليم السند ، ومن بينها خط في رأس الحد إلى ديول

في اقليم السند . كما يرتبط رأس الحد بخط بحري مباشر باقليم جوزرات . اذ يبدأ من رأس الحد ويصل إلى زجد ، في اقليم جوزرات ، وهو طريق مباشر ، ويقدر ابن ماجد المسافة بينهما بأربعين (زاما)(٥٤) - الزام هو وحدة قياس سير السفينة - وهناك خط آخر مباشر من رأس الحد إلى الديو (ميناء في جوزرات جنوب زجد) .

وهكذا يعطينا ابن ماجد تفصيلات واضحة عن الخط التجاري البحري الذي يسير بمحاذاة الساحل الغربي للخليج العربي ، ابتداء من المراكز والمحطات الواقعة في رأس الخليج العربي الشمالي ، وانتهاء بتلك الواقعة في رأسه الجنوبي ، لكي تنطلق السفن من هناك إلى مياه المحيط الهندي ومن ثم إلى الهند .

٢ - الطريق الساحلي الشرقي للخليج العربي :

يصف ابن ماجد طريقا ساحليا أخر في الخليج كانت تقطعه السفن في القرن ٩هـ/١٥م . وهو الطريق الذي تسير به السفن بمياه الساحل الشرقي وتتوقف في موانىء هذا الساحل حتى تصل إلى نهايته وتدور باتجاه جنوبي شرقي إلى ساحل مكران . ولندع ابن ماجد يصف لنا خطوات هذا الطريق .

يبدأ هذا الطريق الساحلي (ديرة الملّ) في البصرة وتسير السفن باتجاه الجنوب الشرقي إلى جزيرة خارج لمدة يوم أو أقل وفي هذا يقول ابن ماجد :

يا طالقا من آخر الفرات
والبصرة الفيحاء خذ وهاتي
واخرج على اسم الله بالترتيب
عن جملة الخيراتِ للجنوب
واجر من هناك يوما بل اقل
لنحو خارج في الثريا لم تزل(٥٥)

ومن خارج يسير المركب جنوبا إلى ميناء رأس الكهن في طريق خالٍ من المعوقات والمخاطر ، ويقدر ابن ماجد المسافة بين خارج ورأس الكهن بعشرة أزوام :

واجر من خارج ياقي عشرة
ازوام جمةً وافية محررَة
وفي مطلع العقرب لرأس الكهن
مجرى صحيح ما له من وهن(٥٦)

ويشير إلى ميناءين تجتازهما مراكب البحر بين خارج ورأس الكهن وهما ري شهر وأبو شهر ، ويحذر ابن ماجد المسافر من وجود جنابة بين هذين الميناءين الاخيرين ، وعلامة هذه الجنابة أن يأتي بعدها شط بني تميم .

واجر من خارج إلى رى شهر
زامين في الأكليل ، عزم واجر
هناك جنابة كن عليم
وبعدها شط بني تميم
ثم أبو شهر ترى الأخوار
ان شيت تدخل اسمع الاشوار(٥٧)

ومن رأس الكهن تسير المراكب في المجرى العام إلى رأس منج ثم جزيرة لار ، ويُذّكر ابن ماجد المسافر بأنه يستطيع وهو في طريقه من الكهن إلى

منج أن يعرج على بعض الموانىء في هذا الساحل كسيراف وبندر عباس ، ويصف طبيعة المنطقة في هـذين الميناثين مشيرا إلى وجود جبال صفر ذات قمم مسننة عالية . ويعد ابن ماجد الوصول إلى رأس الكهن بمثابة قطع السفينة لنصف الطريق الساحلي الشرقي .(٥٨)

ويهتم ابن ماجد بذكر الجزر التي تعترض طريق المسافر على طول الساحل الشرقي للخليج العربي ، فيذكر جزيرة لار التي تبعد مسيرة خمسة أزوام عن منج ، حيث يقول :

وان أردت لار في شروقه
من نج تاتيه فخذ تحقيقه
خمسة ازوام يكن بالصورب
بشملـة صادقـة لا تكـذب
كذا من الكهن لرأس المنج
لانه نصف الطريق يا حجي
تلقى على الطريق في اليسار
من نجّ تاتيه لنحو لار(٥٩)

ويذكر ابن ماجد المسافر بوجود ميناء يجاور جزيرة لار على الساحل الشرقي للخليج هو بندر نخيلوه ، ومن جزيرة لار يستطيع المسافر أن يسير بمحاذاة الساحل ليصل جنوبا إلى ميناء شناص وسيدوه .(٦٠) ويذكر ابن ماجد أيضا الجزر القريبة من جزيرة لار ويحدد الطرق البحرية إليها ، وهذه الجـزر هي شتوار وهندرابي وجزيرة قيس ، ويحدد المسافة بين هذه الجزر والساحل الشرقي للخليج العربي وكونها لا تزيد عن فرسخين .

هم جـزر بقـرب بـرّ العجـم
مقـدار فـرسخـين يـا مـعلم
وكل هذي الجزر فيها النـاس
والمـاء والبـذر والايـنـاس(٦١)

وهنا يصف ابن ماجد الطريق الساحلي الشرقي (ديرة الملّ) ، ثم ينتقل إلى وصف طريق يمر عبر الجزر التي تتوسط الخليج العربي في قسمه الجنـوبي ، وهي زغنـاء وطنب وهنجام ،(٦٢) وعن طريقها يصل المسافر إلى رأس الخليج العربي ثم مياه المحيط الهندي .

ومن موانىء رأس الخليج العربي الجنوبية جزيرة هرمز التي يذكرها ابن ماجد مراراً ، ويسميها هراميز أيضا .(٦٣) وهي عنده في الجزر ذات العمـارة الكثيفة لكـونها فـرضـة العراقيين .(٦٤) وفي الوقت ذاته يذكر ارتباط هرمز بالطرق البحرية ودورها التجاري كمركز حط واقلاع للسفن الخليجية إلى الهند ، ولكنه لا يشير إلى ارتباطها بالمجرى العام الذي يقدم من البصرة وعلى طول الساحل الشرقي . ولعل السبب في ذلك ان الطريق الشرقي البحري للخليج العربي لم يعد يستخدم من قبل السفن في القرن ٩هـ/ ١٥م للوصول إلى الهند . وانما كانت السفن تصل إلى هرمز أو مسقط أو أي ميناء في رأس الخليج العربي ، ومن هناك يتم نقل البضائع المرغوبة والمطلوبة في الساحل الشرقي ، وعبر

الطريق الذي وصفه ابن ماجد من جزيرة قيس جنوبا إلى خارج والبصرة شمالا . ولعل هذا ما يؤكد عدم استخدام الطريق البحري الخليجي الشرقي كطريق تجاري عام إلى الهند ، فضلا عن اشارة ابن ماجد إلى وجود طريق برّي يربط السواحل الشرقية للخليج العربي بهرمز .(٦٥) ومن ثم فإن هرمز ترتبط بساحل مكران وسواحل الهند وجوزرات ومليبار بطريق برّي .(٦٦) وبهذا يكون الطريق الساحلي الغربي هو الطريق المباشر الوحيد الذي يربط رأس الخليج العربي الشمالي (البصرة) بسواحل الهند والسند في القرن ٩هـ/ ١٥م ، كما أكد ذلك ابن ماجد .

ثانياً : المرحلة الثانية من الطريق التجاري بين الخليج العربي والهند :

تبدأ المرحلة الثانية في تقسيمنا للطريق بين الخليج العربي والهند ، عندما تترك المراكب المراكز والمحطات التجارية الواقعة في رأس الخليج العربي ، والتي تعد نقاط انطلاق للسفن إلى مياه المحيط الهندي . وهذه المراكز والمحطات ، كما أشرنا سابقا ، هي رأس مسندم وصحار ومسقط وقلهات ورأس الحد وهر ، فضلاً عن مراكز الانطلاق في الساحل الجنوبي للجزيرة العربية مثل رأس فرتك وظفار .(٦٧)

بعد أن تترك السفن رأس الخليج العربي في طريقها إلى الهند ، كانت تتخذ أحد مسارين أولهما : الطريق الساحلي الذي يسير بموازاة ساحل مكران إلى ساحل السند ، ومن بعدها إلى الساحل الغربي لشبه القارة الهندية ، وهو الذي يسميه ابن ماجد باسم (ديرة المل) . أما ثاني المسارين ، فهو طريق في عرض المحيط الهندي ، تنطلق فيه السفن إلى احد الموانىء والمحطات في سواحل السند والهند مباشرة من دون حاجة للمرور على السواحل وهذا الطريق يسميه ابن ماجد (ديرة المطلق) .

ويبدو ان المسار الأول لم ينل من ابن ماجد اهتماما كبيراً ، كالذي أعطاه للطريق الثاني والسبب في ذلك يعود إلى قلة استعماله من قبل البحارة والتجار في أيام ابن ماجد ، وقد يعود هذا إلى ان برّ مكران لم تكن له أية أهمية بالنسبة للتجارة البحرية في المحيط الهندي في العصور المتأخرة .(٦٨) وسوف نصف الطرق التجارية التي كانت تتبعها السفن التجارية العربية في القرن ٩هـ/ ١٥م في سواحل السند والهند ، كما ذكرها ابن ماجد .

١ - الطريق من الموانىء العمانية إلى ساحل السند .

تنطلق السفن من مسقط إلى برّ السند في عرض البحر دون المرور بساحل مكران ، وتحط السفن في أول وأهم ميناء في السند وهو «رأس زجد» . وبعد أن يحدد ابن ماجد

الخط الذي يسير عليه المسافر عبر هذا الطريق ، يطلب منه الالتزام به ، استنادا إلى بعض الصفات والاشارات الدالة على هذا الساحل ، التي جاءت نتيجة لتجربة ابن ماجد الفعلية ، حيث يقول :

ومن حدود مسقط للسند
إلى زجد ترى المكان عندي
خمسة وأربعين زاما وافية
وبعد ترمي البلد تلق العافية
وربما انك ترى الحيات
من قبل أربعين خذ صفاتي
وهذه الازوام بالتجارب
ما للمسافات بها مآرب
وشرط أن يكون في جر الصور
تليق في هذا الطريق المختصر[٦٩]

وقد تنطلق المراكب من «رأس الحد» في ساحل عمان إلى رأس زجد في السند أيضا ، وفي هذا يقول ابن ماجد :

جُدّة ثم الحد قالوا وزجد
أيضا وفي البنجالتين بالعدد
احدى عشر الجاه بلا تكذيب
فجربوه يا ذوي التجريب[٧٠]

٢ ـ الطريق من رأس الخليج العربي إلى موانيء اقليم جوزرات :

أما السفر إلى أول اقليم من أقاليم الساحل الغربي للهند وهو جوزرات ، فيكون الانطلاق إليه من موانيء ومحطات رأس الخليج العربي الجنوبي إلى ميناء الديو (أو رأس مدور) ، الذي يعد أول وأهم موانيء ساحل جوزرات الذي يسافر إليه التجار الخليجيون . ويتردد ذكر هذا الميناء عند ابن ماجد ، ويذكر بأن هناك خطا مباشراً من مسقط إلى الديو[٧١] ، وآخر من قلهات إلى الديو[٧٢] ، وثالث من رأس الحد إلى المكان ذاته ،[٧٣] ، فضلا عن وجود طريق بحري من ساحل الجزيرة العربية الجنوبي إلى الديو أيضا .[٧٤] .

ويصف ابن ماجد بعد ذلك الساحل المحيط باقليم جوزرات وصفا دقيقا جدا ، مما يدل على خبرة فيه ، كما يدل أيضا على النشاط التجاري الواسع للعرب هناك . إذ يقول في ذلك :

فان رماك الله بخور القاري
فراسه من شاطيء الجاري
ما بين مدور ودون كن عارفاً
والما ثلاثون فلا تخالفا
ان زاد انت بارز خذ شورى
وان نقص فقد دخلت الخورا[٧٥]

ثم يقول ابن ماجد واصفاً خور القاري من حيث طبيعته الجغرافية وعلاماته :

ان شيت أن تعرف أي أرض
أنت بها بالطول ثم العرض
فحط انجرك وميز فيها
اذا استقر مركبك عليها
ان كان قبلك يا أخي فاعلمن
جاه سهيل أنت في برّ دون
وان تقابل بالسقي والسير
شرقا وغربا انت في ذا البرّ

أعني ببر الديو أفهم خبري
وكل ذا تقريب لك فاعبر
واحذر نوساري وفشت قندس
هم أطرف الأوساخ خذ واقتبس
من فشت نوساري يا خليلي
تنظر جبال دون في الاكليل
وربما بالصحو تنظر جبلا
كقبة مرتفعة مكللا
على مغيب الواقع المجرب
فذاك من بر المغيب يحسب
لابد من سافر أرض شبره
يرى بوصفي نفعه وضره
وقندس عالق برّ المغرب
منه الجبال كلها بالقرب
ويشتبه في عدم القياس
ذا الخور في غب زجد للناس
لكن هذا الخور ماؤه غزير
يضرب إلى الحمرة والتكدير
وماء ذاك أبيض تعاينه
رقيق ما منه الجبال باينه[٧٦]

يتبين من هذا الوصف الطويل لابن ماجد ، ان المسافر بعد الديو يسير إلى خور القاري واصفا شاطئه بانه جاري وان مياهه تمور بين أبيض وأسود (صافية وكادرة) ، موضحاً وجود شعاب ورؤوس في هذا الخور ويسمى أطرافها بنوساري وفشت وقندس ، مشيراً إلى ان المسافر بامكانه أن يجد إلى الغرب من قندس جبلاً عالياً مرتفعاً يرى في الصحو (ويقصد جبل جلنار في اقليم جوزرات ، والذي يعد من اشارات سواحل جوزرات الدالة المهمة) .[٧٧] تستمر السفينة إلى منطقة ساحلية يسميها ابن ماجد شبره ، ثم يدخل المسافر إلى خور القاري ، الذي يصفه بأنه غزير وضارب إلى الحمرة مؤكدا هذه الناحية لانها الميزة التي ترشد المراكب إلى هذا الخور .

في الرأس الشمالي لخور القاري تحط السفن في ميناء كنباية في اقليم جوزرات[٧٨] ، وينبه ابن ماجد إلى ان اشارات هذا الميناء تتحول في كل عام .[٧٩] ولم نجد في مجاري ابن ماجد وصفا لطريق مباشر من موانيء الخليج العربي إلى كنباية وانما يذكر ان السفن تقدم من رأس الحد أو غيرها من موانيء الخليج العربي إلى زجد ، ومن زجد تسير على ساحل جوزرات إلى كنباية ،[٨٠] بعد أن تقطع ساحل الخليج القاري .

٣ ـ الطريق من موانيء الخليج العربي إلى موانيء اقليم كنكن في الساحل الغربي للهند :

ترتبط موانيء الخليج العربي باقليم كنكن ، الذي يقع بين برّ مليبار وكنباية ، وفوقه تقع الدكن . وترتبط كنكن فضلا عن المجرى التجارى القادم من جوزرات ، بخط بحري مباشر يأتي من مسقط إليها :

اذا طلقت مسقطا في الشلي
إلى حدود التيرما فافعل
ان كان قصدك كنكن العلياء
فالكل مجراها على الجوزاء[٨١]

وهناك طريق اخر من هرمز إلى كنكن العليا ، حيث يقول ابن ماجد :

ويخرج من هرموز كل مسافر
إلى كنكن والهند جمعا واليمن

وعندما يتكلم ابن ماجد عن اقليم كنكن فانه يساعد التجار في ذلك ، لانه يصف المجرى في هذا الاقليم والقياسات الخاصة به وعمق المياه ، فضلاً عن وصفه لموانىء ساحل كنكن ومحطاته بدقة . فهو يقول :

إذا طلقت مسقطا في الشلي
إلى حدود التيرما فافعل
لكنما الحكمة في القياس
وفي صفات البر والاجناس
وفي موارزها واخذ البلد
فخذه مني قط لا تعد
موارز الديو زمان المطلعي
يذكر خمسين اليك فاسمع
أما جبال كنكن ، رفاعا
تنظرها عن أربعين باعا
والماء يبيض من العشرينا
فكن على نتخاتها فطينا
فسوف أذكرها مع القياس
لتقتدي بها جميع الناس[٨٢]

وهكذا يميز ابن ماجد ساحل كنكن بجباله العالية ، ويذكر موانئه مثل دهنوه ، التي تعد محطة للسفن القادمة إلى هذا الساحل ، حيث يقول :

اعلم اذا اجنبت من سندان
وصار في الشمال ياربان
ترى منارة عالية دقيقة
فهي على دهنوه بالحقيقة[٨٣]

على أن ما يميز دهنوه ويرشد الملاح إليها ـ كما يوضح ابن ماجد ـ هو المنارة العالية الدقيقة التي فيها . وفوق ذلك فانه يصف الخور الذي تقع عليه هذه المحطة المهمة في ساحل كنكن ، بقوله :

وفشت دهنوه طويل ظاهر
أحجاره سود كن له محاذر
وبينه والبر هي طريق
للخشب الخفاف يا رفيق
ومنه تنظر للشجر والتل
فلا تميلن نحوها بالكل

فدهنوه اذن تقع على خليج طويل وواضح ، وفيه أشجار سوداء يحذر ابن ماجد منها ، كما يحذر المسافر من الميل نحو الأشجار والتلال التي يراها في المنطقة ، ويوجه المسافر بانه حال اختفاء الجبال العالية يصل إلى ميناء دهراوي في الكنكن أيضا ، ويصف ابن ماجد الطريق إلى هذا الميناء بانه غريب الموج يسير الربان في صراع معه .

اذا خفيتها ترى دهراوي
في المركب العالي كلفً ثاوي
وليس في تلك الطريق مثله
يضربه الموج غريب شكله
ومن حدود دون إليه
لا تطرح الأنجر قط فيه
من حد أربعة عشر باعا
لحد سبعة ابحرن وصارعا[٨٤]

ومن المناطق التي ترحل إليها السفن في كنكن والتي يذكرها ابن ماجد تانه والمهايم ، ومن المهايم إلى

أهم ميناء في كنكن وهو الديبل (جنوب كراتشي الحالية)، ويسميه ابن ماجد (دابول أو الديبول).[٨٥] والديبل ميناء مهم علت شهرته قبل القرن ٩هـ/١٥م بين التجار العرب بسبب سيطرته على مصب نهر السند، وما يحمل إليه من منتجات بلاد البنجاب وكشمير وغيرها. ومما زاد من أهمية هذا الميناء هو خضوعه لسيادة الدولة العربية الاسلامية، فضلاً عن موقعه الذي اتخذت منه السفن التجارية مركزاً ومحطة للانطلاق إلى المراكز التجارية الأخرى في ساحل الهند.[٨٦]

ويصف ابن ماجد ساحل الديبل وكيفية الدخول إلى خور مينائه ومجراه، بقوله:

ان شيت دابول الاشارة بوديا
على سهيليها بزام تانيا
صفاته راس اذا تبدى
كانه جمع ذراع مُدّا
وفوق كل ذا جبال الملّ
عالية لم توتصف يا خلي
وحازرون وراس هنزوالي
بينهم دابول خذ مقالي[٨٧]

على ان الراغب في الوصول إلى دابول، كما يقول ابن ماجد، يعرفها من رأس بوريا، الذي يبدو كأنه ذراع ممتد في البحر، وفي هذا اللسان نجد ان جبال المل تطل فوقه عالية لا توصف من ارتفاعها. كما توجد رؤوس أخرى في الطريق إلى دابول، مثل حازون وراس هنزوالي، وتقع دابول بين هذه الرؤوس. ويحدثنا ابن ماجد عن خور دابو في كتابه (الفوائد)، مبينا الطرق المؤدية إلى موانئه، حيث يقول:

«إذا جاوزت الديو وتوقه ومهايم ودانداز زفور وأنزلنا تأتي خور دابول. واشارتها جبل حازرون شماليها وجبل هيزوا إلى جنوبها، والخور بينهما بقرب رأس هيزوا. فأقرب من الجبل على اليمين، واشارتهم يضرب رأس جزر بوديا سافيليك بعيدة عنك مقدار مسيرة زام كمثل من لارك إلى جرون، وهو يشبه الدبوسة: فإذا خلفته، تأتيك جبال كثيرة، لا يكون فيها شيء غريب نصفه، مثل طبقة فوق طبقة إلى حدود سنجيسر وجزر دندباشي، وبعد غبة ساجوان كلها جبال. واشارة ساجوان، انها غبة رأسها عند دخولها تتركه يساراً والطوطة يمينا في ذلك الزمان. فإذا سرت، تأتيك سندا بور، وتدخل خورها في الفلق».[٨٨]

وهذه العناية بخور الدابول من قبل ابن ماجد إنما تدل على أهمية مينائه للمسافرين إلى ساحل كنكن، ويشير في الوقت نفسه إلى استمرار النشاط التجاري الخليجي في هذا الميناء على ما كان عليه قبل القرن ٩هـ/١٥م. ومن اهتمام ابن ماجد بالدابول التعليمات والارشادات التي يعطيها للداخل إلى خور دابول ووصفه لقياس مجراها.[٨٩] وإلى جانب وصفه لخط المجرى العام الذي يربط الدابول

بالخليج العربي ، فان ابن ماجد يصف طرقاً أخرى تبدأ من رأس فرتك (السواحل الجنوبية للجزيرة العربية) إلى دابول وهو خط مباشر .(٩٠)

٤ ـ الطريق الى برّ تلوان:

لا يعطي ابن ماجد كثيراً من التفاصيل عن هذا الساحل ، وهو الاقليم الثالث في التقسيم الجغرافي عند ابن ماجد للساحل الغربي للهند . وأهم ما يقوله انه الساحل الذي يقابل المسافر بعد الخروج من الديبل ، ويذكر أسماء محطات مثل دندباشي وازديوه ومنجلور ، ويعدها ابن ماجد من الرؤوس المشهورة على ساحل الهند ، ويبدو ان ازديوه ومنجلور من جزر هذا الساحل ،(٩١) حيث يقول :

أمـا بنجـراشي مـع جـداوري
ودنـدبـاشي سبعـة وسـاجـر
والجزر والحردة سبعة قيسوا
والبـعض قـالـوا انـه نفيس
أمـا ازاديـو فستـه فـادر
ومـرطبـان وقبـلي والشحـر
ايضـا وراس الخلب المعـروف
بـه كـذاك الجـاه ستـة يـوفي
وان يكن عند اعتدال الصرف
الجـاه خمس افـهمن وصفـي
فهؤلاء الـرؤوس يـا ضرغـامي
ذبـاب ودار زينـة ومـامـي
ومنجلـور ثـم رأس الـغـال
أولـه من شـاطىء الشمـال(٩٢)

ويبدو ان هناك مجار من الخليج العربي ، لا سيما من رأس الحد ، إلى دندباشي ومنجلور ، وذلك بدليل ان ابن ماجد يعطي لربابنة السفن قياس المسافات بين الخليج العربي وهذه الرؤوس .(٩٣)

٥ ـ الطريق من الخليج العربي إلى ساحل مليبار :

أما ساحل مليبار ، وهو الاقليم الرابع والأخير من ساحل الهند الغربي ، فقد نال هو والجزر الموجودة في مياهه اهتماما كبيرا من ابن ماجد . والسبب يعود إلى أهمية هذا الاقليم الهندي بالنسبة للتجارة الخليجية ، فهو مصدر خشب الساج ـ المادة المهمة في صناعة سفن الخليج العربي ، وإذا كان الكتاب العرب قبل ابن ماجد قد أعطوا اهتماما قليلاً بهذا الساحل(٩٤) فان ابن ماجد يزودنا بمعلومات تفصيلية عنه أكثر من أي اقليم آخر في ساحل الهند الغربي ، وذلك في كتابه (الفوائد) .

إذ يصف ابن ماجد ساحل مليبار من حيث طبيعة القشرة الأرضية ، فيتكلم عن الجبال الصغار والكبار ، كما يعدد الجزر القريبة من هذا الساحل . ففي الجبال العوالي في ساحل مليبار يقول ابن ماجد :

«وأما الجبال العوالي ، فهي متصلات ، وأشهرهن في هذه الأماكن قبة بدختن ، فإذا كنت ناتخا من البحر ، وهي عنك في مطلع العيوق ، فاعلم ان كاكاديوه تحتها وجنوبها جبال عوالي على قاب قات . وكذلك جبال على كاليكوت عوال . فاذا جاريت البرّ من كننور ، يأتيك خور درمافتن ،

ثم ميلي علوي ، ثم بدفتن ، ثم فندرينة ، ثم قاب قات ، ثم ميز عيب ، ثم كاليكوت» .(٩٥)

أما الجبال الصغار في ساحل مليبار ، فيصفها ابن ماجد بقوله :

«وأما قريب الساحل ، فاكام وجبيلات حمر ، بين قرطل واقفاف الساحل وهي على قرب فاكنور ، تراها من بعيد . فاذا قربتها ، عرفتها ، وهي تضرب بالحمرة ، وتنجذب أقفاف الساحل من هناك إلى حدود هيلي ، لا يصير فيها علو ولا انخفاض . فأول ما يلقاك خور منجلور ، ترى انقطاعه ، إذا كنت قريب البر ، وترى اقفافه مثل انقطاعة السفينة الكبيرة . وبعدها جبلة قنبلة ، وهي مسلوبة الأطراف تشبه جبل سيبان ، وهي التي يجعلونها هيلي دروع ، بقرب هيلي رأس ، بينهما مسيرة زام واحد . وأما هذه الجبلة ، فاذا خلفتها رأيت هيلي ، وربما ترى الاثنتين ، وانت بينهما ، إذا صارت هذه الجبلة في الغطية ، وجريت بريح طيبة ثلاثة أزوام أو أربعة ، فتأتيك هيلي رأس في الغطية . ومن مطرابيل التي على خور بادقلة إلى هذه الجبلة قريب اثني عشر زاما بريح المغيب صافية ، أو عشرة أزوام . فاذا خلفت هيلي رأس ، ترى غبّة كننور ، وبينها وبين هيلي خمسة رؤوس أكام ، عليها خضرة وطوط . ولهن من المشهورات ، مهرادي ، ثم خور بالافتن ، وهذه رأسان ، وبعده زامان ، ثم رأس كننور ، وهي قصر القبة» .(٩٦)

وهكذا يذكر ابن ماجد ، بان الجبال الصغيرة (الجبيلات) في ساحل مليبار تميل في لونها إلى الحمرة ، وبعضها يمتاز بحدة انحدار أطرافه ، والبعض الآخر بكونة ذا رؤوس .

أما الشريط الساحلي لاقليم مليبار فهو يضم مجموعة من الجزر ، التي يذكر ابن ماجد منها ازاديو ومطرابيل وخيزران وبادقلة وبهندور وفاكنور . وفي ذلك يقول :

«وأما الجزر الصغار مثل ازاديو ومطرابيل وتسمى مطرابيل الساحلية ، وهي غير مطرابيل البحرية ، فانها على دباقلة . وخيزران على خور هنور من جانب الجاه ، ترى رأسها من الدقل من خور هنور وبعدها باقلة . ومن هناك إلى حدود قنبلة ، ارتفع عن الأوساخ ، وخذ ماء خمسة عشر باعا ، فتنزل على بهندور وباسرور في ذيل جبل قرطل من الشمال . وهناك جبال أقرب من قرطل للساحل ، أشهرها وأعلاها القبة التي نور بهندور ، عليها الجاه ست الا ربعا . وبعدها فاكنور ، واشارتها ان عليها جبل قرطل ، متحدب كبير تراه بالصحو ، ولا تراه بالغبار» .(٩٧)

ومن الموانىء التي تنال اهتمام ابن ماجد الكبير في ساحل مليبار كاليكوت . إذ تعرف بكونها محطة تجارية مهمة ومعروفة للتجار والمسافرين إلى ساحل الهند . وهناك خط مباشر يربط الخليج العربي بكاليكوت ، حيث يبدأ من هرمز في رأس الخليج العربي وينتهي بكاليكوت في ساحل مليبار .(٩٨) كما يوجد خط مباشر أخر يربط كاليكوت برأس فرتك في الساحل الجنوبي لرأس الخليج العربي .(٩٩)

يصف ابن ماجد قياسات المجرى إلى كاليكوت،(١٠٠) ويكرس جزءا من أوصافه لهذا الميناء، فيقول انه يتميز بكثرة الاكام والشعاب والوسخ. ولذا يحذر راكبي السفن الكبيرة بضرورة الانتظار إلى الصباح عند الدخول إلى كاليكوت. ويؤكد كثيرا على الاكام الموجودة في المنطقة بقوله: «فترى غبة كاليكوت فانه ليس مثلها علامة، وهي أكمة عليها مسلوبة الأطراف بين الطوط وبين الجبال العالية».(١٠١)

ويصف ابن ماجد ميناء كولم، وهو مركز مهم للسفن المنطلقة من الخليج العربي، بل ومركز رئيسي للتجارة الهندية مع العالم. وكانت تلتقي في كولم السفن التجارية التي تقطع الطريق الساحلي من الخليج العربي إلى ساحل مكران ومن ثم إلى السند وجوزرات لتصل إلى كولم.(١٠٢) وذلك مع الرحلات المباشرة التي تقوم بها السفن من عمان (مسقط) عابرة المياه الممتدة بين الخليج العربي وساحل مليبار.

وكانت السفن الخليجية تقصد هذا الميناء للحصول على السلع التجارية المهمة فيه.

ويقدم ابن ماجد ارشادات مهمة لأصحاب الرحلات الذين يرومون الدخول أو الخروج بأمان إلى ميناء كولم. اذ ينصحهم فيها بالسير بجوار الساحل، ولا سيما في الليل، وأن لا يترك المسافر هذا الساحل بعيدا عن نظره أبدا، حيث يقول:

«فتأتي كولم، وتساير البرّ في سهيل والعقرب تارة، والاكليل تارة، كل رأس خرج عليك، انحرف عنه على نظر العين في موسم المطلعي، وان كان بالليل، فالزم الديرة إلى حدود كمهري. وكلها رؤوس وأشجار وآكام، وفوقها جبال عوال».(١٠٣)

وهكذا يصف ابن ماجدً الساحل بعد الخروج من كولم للوصول بأمان إلى آخر ميناء في ساحل الهند الغربي وهو كمهري، الذي يمتاز بكثرة الرؤوس والآكام والجبال العوالي والأشجار الموجودة فيه، كما يحدد المجرى إلى كمهري بقوله:

إلى بلد كولم مجرى البرّ
وبعضهم قال إلى كمهري
وقال الشولي إلى كمهري
في كولم العقرب فاحزم واجر
ومن كمهري في طلوع البار
لقابل حقق ولا تمار
في مطلع الواقع بالسوية
ومطلع الظليم في الغطية
ومن كمهري مطلق تسلم
في مطلع السماك جز واغنم(١٠٤)

ومن جزر المياه الهندية التي يعطيها ابن ماجد اهتماما خاصا هي مجموعة جزر الغال ـ مقابل ساحل كاليكوت، إلا أن معلوماته عن هذا الأرخبيل مأخوذة من نواخذة البلد.(١٠٥) ويظهر اهتمام ابن ماجد بجزر الغال من خلال وصفه للطرق الفرعية التي تربط جزر هذا الأرخبيل، وذكره للطرق الرئيسية التي تربط جزر الغال بساحل الجزيرة العربية الجنوبي.(١٠٦)

أما الطرق التي تربط ساحل الهند بجزر الغال فهي متعددة عند ابن ماجد، ويؤكد ان معلوماته عنها جاءت عن طريق التجريب والخبرة

التي اكتسبها بتكرار السفر إليها .[١٠٧] وتدلل هذه المعلومات مرة أخرى على أهمية هذه الجزر في حركة النشاط البحري بينها وبين بلاد العرب في القرن ٩هـ/١٥م .

وإلى جانب ذلك يذكر ابن ماجد عدداً من جزر الغال واصفا سواحلها وخلجانها ومياهها ، والمناطق الأمينة من سواحلها مثل جزيرة كفيني ، حيث يعدها من بين جزر الغال الكبيرة ، التي تمتاز أقسامها الجنوبية بكثرة أشجار النارجيل فيها .[١٠٨] ولم ينس الاشارة إلى جزر الغال الأخرى مثل تودي والباري وملكي .[١٠٩]

وبعد هذا كله ، أعطى ابن ماجد وصفا كاملا لكل الطرق الساحلية (ديرة المل) والطرق المباشرة (ديرة المطلق) إلى ساحل الهند الغربي . ولم تفته فرصة الاشارة إلى تذكير المسافرين القاصدين ذلك الساحل بطريق العودة إلى أوطانهم في الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية ، حيث يقول :

من ارض كاليكوت مع دابول
وجوزرات ومن الديول
ثم هراميز مع الاطواح
فافعل بصنع خالقي يا صاح[١١٠]

وأخيراً يذكرنا ابن ماجد بالطرق التي تدور حول الساحل الجنوبي لشبه القارة الهندية متجهة إلى السواحل الشرقية لهذا الاقليم ، وإلى جزيرة سرنديب (سيلان) حيث مصدر كثير من السلع والبضائع . وقد خصص جزءاً من أرجوزته المسماة «المعلقية» لوصف الطريق بين برّ الهند وبرّ سيلان ، حيث يقول :

فلا عجب فهذه الأزوام
من ارض كاليكوت يا همام
إن تبلغ الماية أو تزيدا
جوِّد لها التقمين يا رشيدا
شهودها عندك في القياس
جعلت لك ازوامها اساسي
خوفاً من السحايب الداماني
مع عدم القياس يا رباني
ترمد عن سيلان لم تحويكا
هذا قياس صادق ينجيكا[١١١]

ويعدد ابن ماجد المسالك والدروب التي تتفرع من جزيرة سرنديب (سيلان) إلى المناطق الأخرى في شمالها وجنوبها وشرقها ، وهي أوصاف متأتية من خبرته الشخصية .[١١٢] وجزيرة سرنديب ، كما يقول ابن ماجد : «جزيرة قريبة الاستدارة ، يدورها الماشي برجله مسيرة عشرة أيام أو أقل أو أكثر» .[١١٣] والظاهر ان السفن العربية كانت ترد إلى جزيرة سرنديب للحصول على منتجاتها المهمة .[١١٤]

الاشارات الملاحية والفلكية للطرق التجارية بين الخليج العربي والهند

قدم ابن ماجد لحركة التجارة البحرية بين الخليج العربي وشبه القارة الهندية خدمة عظيمة ليس في وصفه للطرق البحرية التي تربط المنطقتين ، بل لما قدمه من معلومات ملاحية وفلكية مهمة والتي لولاها لما كانت الرحلات التجارية بالكثافة التي

كانت عليها في القرن ٩هـ/١٥م . وكانت هذه الارشادات الملاحية والفلكية نتيجة لما عرفه ابن ماجد عن سابقيه من معارف تخص هذا الجانب ، فضلا عما كسبه بخبرته الطويلة خلال رحلاته الكثيرة إلى المراكز والمحطات عبر الطرق التي تربط الخليج العربي والهند .

لقد تنوعت ارشادات ابن ماجد الملاحية والفلكية ، وسوف نحاول أن نلخص أهمها في الصفحات الآتية :

١ - مصاعب الرحلة التجارية بين الخليج العربي والهند وأخطارها :

كانت الرحلات التجارية التي قام بها أبناء الخليج العربي إلى القارة الهندية في العصر الوسيط مليئة بالمشاق ، حافلة بالمفاجآت التي تثير الرهبة في النفوس . فعلى إمتداد الطرق البحرية بين الخليج العربي والهند واجه بحارة الخليج العربي هذه المصاعب والأخطار بالجرأة والخبرة وروح المغامرة العالية ، واستطاعوا بذلك السيطرة على مقاليد الملاحة والتجارة مع الهند عن جدارة واستحقاق .(١١٥)

تنوعت الأخطار والمصاعب التي سجلها ابن ماجد ، وحذر التجار والمسافرين منها ، منذ بداية الطريق من الخليج العربي إلى نهايته في الموانىء الهندية التي كانت تقصدها السفن التجارية ، كما أرشد ابن ماجد في كثير من الأحيان إلى السبل الكفيلة بتجنبها .

تكلم ابن ماجد عن المصاعب الملاحية في الخليج العربي ، فذكر منها كثرة تعاريج سواحل هذا الخليج ، والتي تشكل رؤوسا بارزة في البحر وخلجانا داخلة فيه . كما تكلم عن حركة المد والجزر التي تتحكم في الدخول إلى هذه الخلجان ، وعدّها من المخاطر التي تجابه الحركة الملاحية فيه . ففي أثناء عملية المدّ تتوقف المياه ، ويعقب ذلك انخفاض المستوى في هذه الخلجان في عملية الجزر مما يهدد السفن بالارتطام بالأرض واتلافها . لذا دعت الحاجة إلى معرفة خلجان السواحل الخليجية ومعرفة الأماكن الخطرة والآمنة فيها . وقد سبق أن أشرنا إلى وصف ابن ماجد للسواحل الغربية والشرقية للخليج العربي ، وبينا الطريق الذي رسمه عبرها والخلجان الآمنة التي تستطيع السفن أن ترسو فيها .

ويعد ابن ماجد أن أخطر الرؤوس في الساحل الغربي للخليج العربي هو رأس الحد ، الواقع في النهاية الجنوبية لهذا الساحل (في عُمان) ،(١١٦) وهناك رأس مسندم (في عمان أيضا) ، حيث يعد من المناطق الخطرة ، وذلك لوجود عدد من الجزر «شديدات الخطر قويات المدّ» ،(١١٧) قربه .

وحذر ابن ماجد من الجزر التي تتوسط الخليج العربي في قسمه

الجنوبي بسبب ضحالة المياه في سواحل بعضها،[118] وأشار أيضا إلى منطقة ري شهر في الساحل الشرقي للخليج العربي وعدها من المناطق الخطرة لضحالة مياهها.[119]

ومن النصائح التي وجهها ابن ماجد إلى الربابنة بشأن ذلك، انه نصحهم بالابتعاد في السير عن الساحل بعض الشيء حتى لا ترتطم سفنهم بالرؤوس، وأوصى بأن يكون الدخول إلى الخلجان في أوقات المدّ وليس الجزر.

واهتم ابن ماجد كثيرا بالمصاعب والأخطار التي تتعرض لها السفن في مياه الهند وسواحلها وذكر منها الطبيعية والبشرية. فقد ذكر الطوفانات الخطرة في المحيط الهندي. وقال عنها انها لا تحدث كل سنة، ولها علامات خاصة منها «تقطع الغيم كجلود البقر، والبرق، والسرطان بالماء وشدة حرارة الماء».[120]

ومن المصاعب التي تجابهها الرحلة التجارية في المحيط الهندي وهي في طريقها إلى سواحل الهند والتي حذر منها ابن ماجد تقلب الرياح وما يتبع ذلك من تغير المجرى.[121] وحذر في الوقت نفسه من شدة سرعة المياه لا سيما في الطريق الذي يربط سواحل الهند بجزيرة سرنديب (سيلان).[122]

أما الأمور التي حذر منها ابن ماجد ربابنة السفن في سواحل الهند الغربية، فهي كثرة الجزر، وضيق المسالك بين كثير من هذه الجزر.[123] وأشار في الوقت نفسه إلى كثرة الشعاب المرجانية، والتي يسميها بالأوساخ، حيث تكثر في ساحل جوزرات أول اقليم في ساحل الهند الغربي.[124]

أما الأخطار البشرية التي تتعرض لها الرحلات التجارية ما بين الخليج العربي والهند أيام ابن ماجد. فهي عمليات القرصنة الخطرة التي تأتي على الكثير من السفن المحملة بالبضائع الذاهبة والقادمة من الهند. وسوف نترك ابن ماجد يتحدث عن عمليات القرصنة التي عرفها بنفسه في القرن ٩هـ/١٥م، فهو يقول:

«فإذا خلفت كاليكوت، فعندك الطوط إلى قريب فناني، وتنقطع، ولا يبقى عندك إلا الأشجار بغير الطوط. واحذر من الكات كوري في تلك الأماكن. فانهم يأتون هنا في بعض الأحيان. وأما مساكنه الأصلية ووطنه، فبين كشي وكولم. وهناك غبّة كبيرة. وهم قوم يحكم عليهم سلاطينهم. وهم مقدار ألف رجل رماة، وهم أهل بحر وبرّ وسنابق».[125]

وهكذا نجد ان ابن ماجد يسمى القراصنة في مياه الهند بـ (الكات كوري)، ويحدد نشاطهم ومساكنهم بساحل مليبار، حيث كانوا تحت أمرة حاكم منهم، وان عددهم بنحو ألف

رجل من الرماة . وبذلك يخالف ابن ماجد ما كتبه الجغرافيون العرب الذين ذكروا بان نشاط القراصنة كان في سواحل السند وسموهم بـ (الميد والكرج) ، وذكروا ان السفن التجارية القادمة إلى هذا الساحل كانت تتعرض لغاراتهم المفاجئة .(١٢٦) أما ماركو بولو في القرن ١٣م (٧هـ) ، فقد ذكر ان نشاط القراصنة يتركز في ساحل جوزرات .(١٢٧)

ومن مقارنة بسيطة بين ما كتبه ابن ماجد عن القراصنة وبين ما كتبه الجغرافيون العرب وماركو بولو ، نجد ان عملية القرصنة قد انتقلت أيام ابن ماجد إلى ساحل مليبار ، على حين كانت في ساحل السند في القرون الاسلامية الأولى . ولعل السبب في ذلك يعود إلى ان كثافة النشاط التجاري هو الذي يحدد نشاط عمليات القرصنة . ففي أي اقليم من أقاليم شبه القارة الهندية تنشط فيه حركة التجارة تزداد فيه غارات القراصنة ، وهذا يعنى ان النشاط الكبير للتجارة قد انتقل أيام ابن ماجد إلى ساحل مليبار .

٢ - العلامات والاشارات البحرية :

ان معرفة العلامات والاشارات البحرية شرط أساسي من شروط فن الملاحة ، فمنها يستدل على معرفة المجاري المؤدية إلى الموانيء والمحطات المطلوبة وقرب البرور والجزر . والعلامات والاشارات على رأي ابن ماجد متنوعة ، حيث يقول عنها :

«ينبغي لصاحب الدرك ... أن يعرف جميع البرور ونتخاتها واشاراتها ، كالطير والحشيش والحيات والحيتان والموارز والأرياح وتغير الأمواج ، ومد البحر وجزره ، والتفقد في كل طريقة» .(١٢٨)

أ - طبيعة القشرة الأرضية :

ان معرفة طبيعة القشرة الأرضية للسواحل التي يسافر إليها المرء ضرورة من أجل الوصول إلى الميناء أو المحطة المطلوبة . ولذا نجد ابن ماجد يعطى هذا الجانب اهتماما كبيرا ، خصوصا في ساحل الهند الغربي ، حيث يصف ميزة القشرة الأرضية في هذا الساحل ، من حيث كثرة الجبال والتلال فيه . وقد عدّ هذه الجبال الكبيرة والصغيرة من العلامات المميزة لذلك الساحل وخير مرشد لمن عرفها للوصول إلى الموانيء والمحطات الواقعة على طول الساحل الغربي للهند .

ولعل من أشهر الجبال وأهمها في ساحل الهند الغربي التي أشار إليها ابن ماجد وعدّها من الاشارات الدالة جبل (جلنار) . حيث قال عنه :

«ليس في جوزرات جبل يشبهه ، فإذا رأيت قمته قطعة واحدة إلى ناحية مطلع العيوق ، فأنت في شوروار بلد التنبول . وان انقسم رأسه إلى قطعتين ، وكانت الشرقية أكبر فأنت

إلى الغرب من بشورروار ، وهذه العلامة ، كما يقول ، لم يسبق إلى الاستدلال بها أحد من المعالمة» .(١٢٩)

وعدّ ابن ماجد جبل دون من اشارات خور كنباية في جوزرات .(١٣٠) أما في اقليم كنكن ، وهو الاقليم الثاني في ساحل الهند الغربي ، فيذكر ابن ماجد جبال خور دابول ، كعلامات دالة ، حيث يقول :

«إن جاوزت الديو وقومه ومهايم وداندا رزفور وانزلنا تأتي خور دابول ، واشارتها جبل حازرون شماليها ، وجبل هيزوا إلى جنوبيها ، والخور بينهما بقرب رأس هيزوا . فأقرب من الجبل الذي على اليمين ، وإشارتهم يضرب رأس جزر بوريا سافليك بعيداً عنك مقدار مسيرة زام كمثل من لارك إلى جرون ، وهو يشبه الدبوسة» .(١٣١)

أما في الاقليم الثالث من ساحل الهند الغربي وهو تلوان ، فيصف ابن ماجد ساحله بانه سلسلة من الجبال المتتالية تبدو كأنها «طبقة فوق طبقة إلى حدود سنجيسر وجزر دندباشي ، وبعد غبّة ساجوان كلها جبال» .(١٣٢)

ويفصل ابن ماجد كثيرا عن الجبال العوالي والجبيلات في ساحل مليبار . وبما اننا فصلنا القول عنها ، لذا سوف أعدد أهم الجبيلات والجبال العوالي في هذا الساحل .

ولعل أهم الجبيلات التي يجدها المسافر هي جبيلات حمر وأكام قرب فاكنور وتستمر الجبال إلى خور منجلور . وبعدها يأتي جبلة قنبلة الحادة الأطراف ، ثم إذا أخلفت هذه الجبلة رأيت هيلي ، ومن ثم إلى كننور وبينها وبين هيلي خمسة رؤوس كلها أكام عليها خضرة وطوط . وأشهرها رؤوس مهرادي ، ورأس خور بالافتن ورأس كننور .(١٣٣)

وتتتابع الجبال الشوامخ من هناك ، وأبرزها قبة بدفتن ، وإلى الجنوب منها جبال عوالي تطل على قاب قات ، وكذلك جبال شوامخ فوق كاليكوت .(١٣٤) وعلامات كاليكوت ، كما يقول ابن ماجد ، أكمة تقع بين الساحل والجبال ، فإذا جئت بالليل فارصد الأكمة فليس لها هناك مثيل ولا أدل منها خصوصا في الظلام ، وهي منحدرة الأطراف .(١٣٥)

ويستمر ابن ماجد في وصف جبال ساحل مليبار ، مذكراً المسافر بان المنطقة الساحلية الواقعة بين ميناء كولم وميناء كمهري ، آخر موانىء ساحل مليبار ، «كلها رؤوس وأشجار وأكام ، وفوقها جبال عوال » .(١٣٦)

وبهذا عدّ ابن ماجد الجبال على اختلاف ارتفاعها وأشكالها من الاشارات والعلامات المميزة لساحل مليبار ، بل ولساحل الهند الغربي كله . وعدّ صخور وأحجار السواحل اشارات دالة أيضا . فساحل مسقط في عُمان يستدل عليه ، على حد قول ابن ماجد من «حجر على رأس بندرة يراه الغادي والجابي من أي مكان قصده . من الهند والسند ومن

هراميز أو مكران أو جاش والغرب . وعلى مغارب النسر الكبير ، عنده جزيرة حمراء عالية ، يقال لها الفحل . وتانك اشارتان تكفيان الجاهل فيه ان ورده بالليل أو بالنهار» .(١٣٧)

ب - المارزة (ثعابين البحر) :

تعد المارزة من الاشارات التي تعرف المسافر من الخليج العربي وهو في طريقه إلى الهند ، إلى قرب وصوله إلى سواحل الهند . إذ يذكر ابن ماجد المسافر من مسقط إلى ساحل السند بنوع من الحيات التي تميز هذا الطريق ، إذ يقول :

ومن حدود مسقط للسند
إلى زجد ترى المكان عندي
خمسة واربعين زاماً وافية
وبعد ترمي البلد تلق العافية
وربما أنت ترى الحيات
من قبل أربعين خذ صفاتي(١٣٨)

والمارزة (ثعابين البحر) من علامات ساحل اقليم كنكن في الهند ، اذ يعد ابن ماجد رؤيتها اشارة على قرب ساحل كاليكوت ، فيقول :

وان تنظروا اللزاق ثم الموارز
وبلدك تسعون بهنور صاير
فسيروا على الاكليل يوما وانتخوا
لهيلي وجاروا بركم للبشاير
ولزوه خوف المدّ ثم تأملوا
إلى المدّ مشهوراً وساق وثابر
وسيروا على المقدار بالليل واطرحوا
لسبعة أبواع بقرب البنادر
بنادر كاليكوت فيها اشاير
تروها بخن البار أو خن كاسر(١٣٩)

وليس ذلك فحسب ، بل يعد ابن ماجد الموارز من الاشارات التي لا تنقطع عن المسافر في طريقه إلى ساحل مليبار .(١٤٠) ويبدو ان الموارز نوعان ، برية وبحرية ، فالبرية تجدها في ساحل جوزرات وتشاهد قريبة من البر لذا تسمى بالبرية . وأخرى بحرية يجدها المسافر على بعد أكبر وعمق أكثر من الساحل أو الميناء الذي يريده ، وهذه نشاهدها في سواحل كنكن وتلوان .(١٤١)

جـ - لون الماء :

ومن العلامات والاشارات التي يستطيع راكب البحر أن يستدل بها على ميناء أو طريق بحري يريده بين الخليج العربي والهند لون الماء . ومن الأمثلة التي يوردها ابن ماجد قوله : «ان علامة غبتي الحشيش بجوار ساحل عمان الجنوبي إصفرار الماء .(١٤٢) أما لون الماء في ساحل جوزرات ، خصوصا في خور القادي فيميل إلى الحمرة ، وفي هذا يقول :

لكن هذا الخور ماؤه غزير
يضرب إلى الحمرة والتكدير(١٤٣)

وتعد قوة المياه برأي ابن ماجد اشارات مهمة ، وهذا ما يميز الأمواج العالية في ساحل كنكن .(١٤٤)

د - الأشجار والعنبر :

ومن العلامات التي يجدها المسافر

في ساحل الهند الغربي وجزره ، الأشجار العالية ، لا سيما أشجار النارجيل . ويذكر ابن ماجد انها من أشجار ساحل كنكن ،[١٤٥] وساحل مليبار ،[١٤٦] كما انها من علامات جزر الغال المقابلة لساحل مليبار .[١٤٧] ومن اشارات الطريق إلى جزر الغال ، كما يقول ابن ماجد ، وجود معدن العنبر .[١٤٨]

ولا تقتصر اشارات وعلامات ابن ماجد على ما يوجد في الطبيعة ، بل عدّ البنايات الكبيرة من الاشارات الدالة .. إذ عدّ منارة ميناء دهنوة العالية في كنكن من أول العلامات المميزة لهذا الميناء ، وفي هذا يقول :

اعلم اذا أجنبت من سندانِ
وصار في الشمال يا رباني
ترى منارة عالية دقيقة
فهي على دهنوة بالحقيقة[١٤٩]

٣ - الاشارات الفلكية :

قدم ابن ماجد للتجار المسافرين ما بين الخليج العربي وسواحل الهند ارشادات فلكية مهمة وبعضها جديدة ، لا تستطيع الرحلة التجارية الاستغناء عنها ولا تستطيع بدون معرفتها الوصول إلى الميناء أو المحطة التجارية التي تريدها . وسوف يكون اهتمامنا مركزاً على جوانب محددة من هذه الاشارات .

يلخص ابن ماجد ما يقدمه من ارشادات فلكية إلى المسافر في المحيط الهندي بالكلمات الآتية :

«اعلم أيها الطالب ان لركوب البحر أسبابا كثيرة ، فافهمها ، وتعلمها ، واجتهد عليها ، واعرفها . فأولها معرفة المنازل ، وبعدها معرفة الاخنان .. وبعدها معرفة المسافات والباشيات والقياسات والاشارات ، وحلول الشمس والقمر .. وينبغي لصاحب الدرك معرفة المطالع والمغارب والاستواءات وجلسة القياس وترتيبه ، ومطالع النجوم ومغاربها ، وطولها وعرضها . وبعدها وممرها ...» .[١٥٠]

وبذلك يعطي ابن ماجد الخطوط العريضة لكل ما يحتاجه الملاح من معرفة فلكية لقيادة السفينة بأمان إلى الجهة المقصودة .

والمعروف ان النجوم كانت هي الوسيلة الوحيدة التي يهتدي بها راكب البحر في أيام السفن الشراعية ، ومن خلال النجوم يستطيع تمييز الجهة المقصودة عن بقية الجهات . وقد بات ابن ماجد يرعى النجوم خمسين عاما ، فوضع قياساتها عن تجربة دقيقة . والقياس هو ارتفاع النجم عن الأفق ، إلى مقدار ما بين الأفق والنجم من الأصابع القياسية . ويستخدم قياس النجوم لمعرفة ما قطعه المركب من المسافة طولا وعرضا . والقياس عادة - كما يحدده ابن ماجد - يكون بالنظر إلى النجم الذي أمام الربان والنجم الذي خلفه .[١٥١]

ويمكن للباحث أن يضع قائمة لقياسات النجوم وأبراجها الخاصة بالطرق البحرية التي تربط الخليج العربي بالهند من خلال شعر ابن ماجد ونثره . فقد حدد لكل جهة وساحل وميناء قياسات خاصة . فهناك مثلا قياسات للنجوم التي تتحكم في الطريق البحري بين رأس الحد في عمان ورأس زجد في ساحل السند .(١٥٢) وقياسات خاصة للنجوم التي توصل إلى ساحل جوزرات ،(١٥٣) اذ ذكر ابن ماجد النجوم وأبراجها وامكانية اهتداء المسافر بها إلى ميناء الديبول في جوزرات ، وقياسات تلك النجوم .(١٥٤)

ويضع ابن ماجد في قائمة قياسات النجوم . قياسات لموانيء تلوان ، وساحل مليبار من أقاليم ساحل الهند الغربي .(١٥٥) ولا ينسى أن يوضح التي يهتدي بها المسافر من ميناء إلى آخر من موانيء ساحل الهند الغربي مع ذكر قياساتها .(١٥٦)

يستخدم ابن ماجد كغيره من الملاحين (الازوام) كوحدة لقياس المسافة التي تقطعها السفينة حسب النجوم . والأزوام هي الوحدة التي يقيس بها المسافر في البحر ، كالميل الذي يقيس به المسافر على البر .(١٥٧) وقد سجل ابن ماجد بصورة دقيقة عدد الازوام التي يجب قطعها في أي طريق ساحلي أو مباشر يربط الخليج العربي بالهند . فمثلاً قدر المسافة بين رأس الحد في عمان ورأس زجد في السند بـ (٤٠) زاما ،(١٥٨) وما بين مسقط وزجد بـ (٤٥) زاما ،(١٥٩) وما بين رأس الحد وميناء الديو في ساحل جوزرات بـ (٦٠) زاما ،(١٦٠) وما بين الخليج العربي وموانيء ساحل مليبار مائة زام .(١٦١)

الرياح ومواسم السفر :

لقد أصبح معروفاً الآن ان أبناء الخليج العربي كانوا قد أصبحوا سادة النشاط التجاري مع الهند ، بسبب معرفتهم لنظام الرياح الذي يتحكم في مناخ كل من الخليج العربي والمحيط الهندي . ويتلخص ذلك في نظام هبوب الرياح الموسمية صيفاً وشتاءً ، وارتباطهما مع نظام الرياح المحلية في دفع السفن الخارجة من الخليج العربي والداخلة إليه .(١٦٢)

لقد مكنت الرياح الموسمية تجار الخليج العربي من القيام برحلتين بحريتين في المحيط الهندي خلال العام . وقد أتاح لهم هذا السيادة على التجارة الشرقية مع الهند والصين . وصار لرحلات أبناء الخليج العربي إلى تلك المناطق مواعيد ثابتة ومعروفة في الذهاب والاياب تحدث عنها الكتاب العرب في عصور الازدهار الاسلامية .

أما ابن ماجد فقد عبر تعبيرا صادقا في مصنفاته عن فهم لطبيعة الرياح الموسمية والتيارات المعاكسة في المحيط الهندي . وأصبح بامكاننا أن نضع جدولاً تقويمياً يحدد لكل

ساحل وميناء الرياح التي تتحكم به وموسم السفر إليه في القرن ٩هـ/١٥م .

ويرى ابن ماجد ان خضوع الملاحة الشراعية لطبيعة الأحوال الجوية وتقلبات الطقس ، قد حتم على الملاح أن يكون ذا خبرة وتجربة واسعة في مثل هذه الأمور ، ليكون عارفا بمواسم السفر الملائم وغير الملائم ، فهو يقول :

«المعلم الماهر لا تخفى عليه جميع الأرياح ، ومواسم جميع الدنيا ، لانها مرتبة على الأرياح .. فاعرف مواقع جميع المواسم والأرياح» .(١٦٣)

ويحدد ابن ماجد مهب كل ريح من الأرياح ، وقال ان لكل ريح حالات ضعف وحالات شدّة يسميها الحايات (جمع حاية) وقوة الحاية أو ضعفها تنسب إلى ظهور الكواكب أو المنزلة التي يتفق طلوعها مع بداية هبوبها ، وتختلف الحايات من حيث الزمن ، فقد تستمر احداها قوية أسبوعين أو أكثر ثم تعقبها أخرى ضعيفة تبقى مدة أطول أو أقصر .(١٦٤)

ويمكن تلخيص ما قاله ابن ماجد عن مواسم السفر بموجب الرياح الموسمية بما يلي : «تخرج السفن من الخليج العربي قاصدة الهند مع الرياح الموسمية الجنوبية الغربية والتي سماها ابن ماجد بريح الدبور أو الكلوس . وتعود مع الرياح الشمالية الشرقية التي سماها بريح الصبا أو القبول . وتتباين تواريخ هذه الرياح على حسابات النيروز أو السنة الرومية وحسب موقع الموانىء والمحطات وحسب الظروف المناخية والمحلية» .(١٦٥)

وكانت مواسم السفر في المحيط الهندي تحسب ابتداءً من أول النيروز وهو وقت دخول الشمس برج الحمل وتوافق يوم ٢١ مارس (آذار) وهي نقطة الاعتدال الربيعي ، ومن هذا التاريخ تحسب مواسم السفر . فعندما يقول ابن ماجد في (مائة النيروز) فانما يعني بعد مائة يوم من نقطة الاعتدال الربيعي وهكذا .(١٦٦) وبموجب هذا الحساب فان الرحلة التجارية إلى سواحل الهند الغربية تبدأ من الخليج العربي في شهر تشرين الثاني وكانون الأول ، وتصل خلال أسبوعين إلى سواحل جوزرات وكنكن . وكان يجب على السفن الخليجية أن تغادر سواحل جوزرات وكنكن قبل أواخر حزيران وهو الوقت الذي تبلغ فيه الرياح الموسمية الجنوبية الغربية أقصى حدتها .(١٦٧)

أما ساحل مليبار ، وهو الاقليم الرابع من سواحل الهند الغربية ، فان الرياح الموسمية الجنوبية تبدأ مبكرة فيه وتستمر لفترة أقصر ، ولهذا يعدّ هذا الساحل من المناطق الخطرة منذ شهر أيار وحتى نهاية ايلول . وهذا يعني ان موسم الرحلات التجارية إلى المليبار يكون أقصر مما هو عليه في ساحلي كنكن وجوزرات . ومن هنا نجد ان السفن التجارية

الخليجية تستطيع الذهاب إلى جوزرات لمرات أكثر مما هو الحال بالنسبة لساحل مليبار ، وفي هذا يقول ابن ماجد :

«ان السفر من قلهات ومسقط إلى جوزرات يكون مرتين وثلاثاً وأربعاً وخمس مرات في السنة إذا لم تمكث في الموانىء ، ويضيف أيضا بان السفر من عمان إلى جوزرات لا ينقطع طوال العام إذا كان الربان ماهراً وقادراً على اتخاذ كافة التدابير لمواجهة صلابة ريح الدبور» .(١٦٨)

ويؤكد ابن ماجد بعد ذلك ان السفن تستطيع القيام خلال الموسم الواحد برحلتين او أكثر ذهابا وايابا ما بين الخليج العربي والهند بأمان .(١٦٩)

أما الموسم الذي تتوقف فيه الرحلات التجارية ما بين الخليج العربي والهند ، فقد حدده ابن ماجد من منتصف أيار إلى نهاية العشرين من أب تقريبا (من ١٩٥ النيروز إلى ٢٨٧ منه) ، وسماه بـ (موسم الفلق) ، إذ قال في الحاوية وهو يحدد هبوب رياح الدبور :

وينبغي معرفة الأرياح
ومغلق البحر مع المفتاح
فغلقه تمكث ربع عام
مدة تسعين من الأيام
اذ بدا الدبران وقت الفجر
ما ينبغي للفلك فيه يجري
حتى ترى الفجر استوى بالزبرة
فجز نواحيه معا وغزره
من أول الماتين يا فطينا
لأول الماتين والتسعينا
فهذه التسعون فيها الفلقا
حقيق من جاز بها ان يشقى(١٧٠)

وهذا يعني ان حركة السفن التجارية بين الخليج العربي والهند تتوقف ثلاثة أشهر في السنة بسبب صعوبة الرياح في المحيط الهندي . وخلال هذه المدة لا يتوقف نشاط التجار ، بل انهم يقضون هذه المدة في الموانىء والمحطات التجارية للقيام بعمليات البيع والشراء .

السلع التجارية المتبادلة :

على الرغم من ان قائمة التبادل التجاري بين الخليج العربي والهند كانت ضخمة بما احتوته من سلع سواء الكمالية أو الأساسية في عصور الازدهار الاسلامية ، وانها كانت السبب الرئيسي والأساسي في الرحلات التجارية الكثيفة بين الخليج العربي والهند ، فان ابن ماجد لم يزودنا بقائمة دقيقة وشاملة لهذه السلع وأماكن وجودها ، ولعل عذره في ذلك ان هذه السلع معروفة للتجار المسافرين إلى الهند منذ قرون عديدة وحتى أيامه ، ولهذا لم يكن همه تقديم شيء معروف للناس ، وإنما أراد أن يعرفهم على معلومات أخرى يحتاجونها في رحلتهم في الخليج العربي إلى الهند ، وهي باختصار ارشادات ملاحية وفلكية .

ومع ذلك ، فإننا نجد بين الحين

والآخر في شعر ابن ماجد ونثره اشارات إلى سلع ومنتجات بعض موانىء شبه القارة الهندية وجزرها . وينوه في الوقت نفسه بقلة هذه المنتوجات عبر الأزمنة المختلفة أو كثرتها .

يأتي الخشب في قائمة السلع الرئيسية التي استوردتها بلدان الخليج العربي من الهند ، لانه كان يستخدم في بناء السفن وفي عمل سقوف البيوت . والمعروف ان خشب الساج كان من أهم أنواع الأخشاب التي جلبها تجار الخليج العربي من الهند .(١٧١) وكانت أهم منابت الساج المفرط الطول هي سواحل مليبار في الساحل الغربي من الهند . وعلى الرغم من ان ابن ماجد لم يشر صراحة إلى خشب الساج ، لكنه أكد على وجود الأشجار في ساحل مليبار .(١٧٢)

أما النوع الثاني من الأخشاب الذي جلب من الهند إلى الخليج العربي فهو خشب النارجيل (وهو خشب أشجار جوز الهند) ، الذي استخدم هو الآخر في صناعة السفن وبناء البيوت . وقد ذكر ابن ماجد أماكن تواجد النارجيل في ساحل الهند الغربي وجزره ، فهو يتوفر في اقليم كنكن ، خصوصا في ثغر المهايم ، وفي هذا يقول ابن ماجد :

فان تخلفه ترى مهايما
معتزلة بالنارجيل دايما(١٧٣)

كما يشير ابن ماجد إلى وجود النارجيل في جزر الغال ، وذلك عند حديثه عن احدى الجزر الأخيرة المسماة جزيرة «كفيني» :

فمن صفاتها انها جزيرة
منقسمة في البحر كبيرة
ونخلها والناس والبنادر
على جنوبها فكن بالخابر
وعنهم في الجاه يا خليلي
نحو سهيل عوان نارجيل
كان كثيرا اول الزمان
وقلّ في ذا العصر يا رباني(١٧٤)

أما التوابل فقد كانت السلعة الرئيسية التي حفزت التجار العرب في التدفق على الساحل الغربي للهند منذ بداية نشاطهم التجاري مع هذا الاقليم . الا ان ابن ماجد ، وعلى الرغم من تفصيلاته الدقيقة لموانىء وثغور وجزر هذا الساحل ، فانه لم يشر إلى منتوجاته من التوابل المتعددة الأنواع . فالفلفل الذي اشتهر به ساحل مليبار حتى سمي «بيلاد الفلفل» لم ينل من ابن ماجد أي ذكر . والنوع الوحيد من التوابل الذي أشار إليه ابن ماجد هو القرفة ، حيث قال عنها انها من منتجات جزيرة سرنديب (سيلان) ،(١٧٥) التي اشتهرت بأجود انواع القرفة .

ومن السلع التجارية التي ذكرها ابن ماجد العاج ، الذي عدّ جزيرة سرنديب (سيلان) من أماكن توفره ،(١٧٦) علما بأن هذه المادة تعد من صادرات الهند التقليدية .

وتوفر جزيرة سرنديب للتجار أيضا

الياقوت النفيس ، وكذلك اللؤلؤ ، إلا أن مصائد اللؤلؤ هناك ، كما يقول ابن ماجد ، غير دائمة حيث تعمر في بعض السنين وتخرب في سنين أخرى .(١٧٧)

أما الذهب ، فان إشارة ابن ماجد إليه غير مقنعة ، إذ قال عنه : «وعلى جنوبي تلك الجزيرة ، الواقعة إلى الجنوب من سرنديب ، على مسيرة أربعة أيام في البحر أو أقل أو أكثر ، (جزر الذهب) . وقيل كان فيها أكسير في قديم الزمان ، ولم يكن فيها شيء منه في عصرنا هذا» .(١٧٨) وهذا يعني بالنسبة للمسافرين ان الذهب غير موجود في الساحل الجنوبي للهند على أيام ابن ماجد .

أما العنبر ، وهو من المواد العطرية التي يجلبها تجار الخليج العربي من جهات متعددة ومنها الهند ، فقد أشار ابن ماجد إلى مكان وجوده وقال بانه يتوفر في المياه الواقعة بين برّ العرب وجزر الغال (المقابلة لساحل مليبار في الهند) . وتكلم عن طريقة تكوينه قائلا : «ويمكن أن يكون حول تلك الشعب (ما بين الغال وسقطرة) معدن العنبر ، لان العنبر لا يتصور ولا يكون على البرور إلا في مكان حول ذلك المكان . واختلف الناس فيه ، ولم يدروا من أي شيء هو . فقيل من الشمع ، وقيل هو روث وحشي في جزر تلك الأماكن يرمي به السيل ، فيصير في الماء . ويزمن أو تبتلعه الحيتان ، فيصور الله تعالى فيه ذلك السرّ» .(١٧٩)

ومن المنتجات التي لم يتطرق لها ابن ماجد ، والتي كانت تشكل جزءا مهما في قائمة التبادل التجاري العربي الهندي ، المنتجات الزراعية والمواد المصنعة . فالمنتجات الزراعية من فواكه وحبوب ، والتي تكثر زراعتها في الهند ، كانت من مستوردات أقطار الخليج العربي ، وقد ذكر الجغرافيون والرحالة العرب ان الليمون والأترج والارز تقع على رأس قائمة المنتجات الزراعية الهندية المستوردة .(١٨٠) ومن السلع المصنعة التي استوردها سكان الخليج العربي من الهند ، الأقمشة الفاخرة ، والأحذية الجميلة لا سيما (نعال كنباية) ، إلا انها جميعا لم ترد في قائمة ابن ماجد للسلع المستوردة .

أما فيما يخص صادرات الخليج العربي إلى الهند ، فقد كانت من المؤكد اقل حجما إذا ما قيست بما استورد من الهند .(١٨١) إذ ذكرت المصادر العربية قبل ابن ماجد السلع التي حملها التجار من الخليج العربي إلى الهند ومنها الخيول التي كانت تحمل من عمان والبحرين وهرمز وكانت تصدر بأعداد كبيرة وأسعار عالية ، فضلاً عن التمور والمنسوجات واللؤلؤ وغيرها .(١٨٢)

جاءت قائمة الصادرات الخليجية عند ابن ماجد لتؤكد ما جاء عند الكتاب العرب الذين سبقوه ، وهي تحوي معلومات تخص السلع

الخليجية المنقولة إلى الهند . فقد ذكر وهو يصف مسقط إلى ان السفر من وإلى الهند والسند مستمر طوال العام من مسقط حيث تشحن المراكب من هذا الميناء بالبر والتمر والخيل وتباع فيه البزّ والسليط والرقيق والغلات وتقصده المراكب .(١٨٣) وبهذا حمل تجار الخليج العربي في أيام ابن ماجد إلى الهند ، منتجات هذه المنطقة من الخيل والتمر والمنسوجات ، والمنتوجات الزراعية الأخرى . ولا ينسى ابن ماجد أن يشير إلى الازدهار الذي كان عليه الساحل الغربي للخليج العربي أيامه في مجال الزراعة والثروة الحيوانية ، وذلك في معرض حديثه عن البحرين ،(١٨٤) وعن عمان .(١٨٥)

ومن السلع الثمينة التي كانت تحمل بكثرة من الخليج العربي إلى الهند أيام ابن ماجد اللؤلؤ . فقد أشار إلى أماكن وجوده في مياه الخليج العربي ، وأماكن صيده ، محددا منطقة القطيف وقطر وعمان ،(١٨٦) إلا انه أعطى مصائد اللؤلؤ في البحرين أهمية خاصة ، حيث قال :

«حولها (البحرين) معادن اللؤلؤ وعدة جزر كلها فيها اللؤلؤ ، تأوى إليها مراكب نحو ألف مركب» .(١٨٧)

ولعل فيما ذكره ابن ماجد اشارة واضحة إلى حجم انتاج اللؤلؤ وتجارته الواسعة في الخليج العربي أبان القرن ٩هـ/١٥م .

وهكذا يتبين لنا من قائمة السلع المتبادلة بين الخليج العربي والهند أيام ابن ماجد أنها تمثل استمرارية لما كانت عليه قوائم السلع المتبادلة من قبل . فقد استمر تجار الخليج العربي منذ القرون الاسلامية الأولى وحتى أيام ابن ماجد يحملون نفس السلع والبضائع من الهند وإليها ، على الرغم من حدوث نقص في تجارة مادة وزيادة في تجارة أخرى ، لكن هذا الأمر لم يؤد إلى توقفها . ويلاحظ ايضا استمرارية في رجحان كفة السلع والمنتجات الهندية ، على مثيلاتها القادمة من الخليج العربي حتى في أيام ابن ماجد ، إلا أن هذا النقص في الميزان التجاري ـ كما نقوله اليوم ـ بالنسبة لابناء الخليج العربي قد عوضه امتلاكهم لمعظم السفن الحاملة للبضائع عبر الطرق البحرية التي تربط الخليج العربي بالهند .(١٨٨) إذ ان تجارة نقل السلع الهندية إلى الأسواق التي تطلبها قد در أرباحا طائلة لتجار الخليج العربي ، فقد كانوا يجوبون بسفنهم الطرق بين الخليج العربي والهند مسيطرين على النشاط التجاري في كلا المنطقتين حتى مجيء البرتغاليين إلى مياه المحيط الهندي .

وأخيراً لا بد لنا من القول : ان أهمية ما صنفه ابن ماجد عن الخليج العربي والهند ، تتلخص في كونه قد عرف عن كثب كلا الاقليمين ، ووصفهما بدقة ، وأدخل تعديلات مهمة على فن الملاحة البحرية بين

الخليج العربي والهند . كما ان وصفه للطرق البحرية التي تربط المنطقتين ومصاعب وأخطار هذه الطرق ، قد عدلت كثيراً من رؤية الكتاب العرب القدامى إلى هذه الطرق . وبذلك يكون ابن ماجد قد قدّم خدمة جليلة لحركة التجارة بين الخليج العربي والهند في القرن ٩هـ/١٥م . ولم ينس معالمة المحيط الهندي هذه الخدمة ، فقد بقيت ذكراه حية بينهم حتى القرن التاسع عشر .

د. صباح إبراهيم الشيخلي
جامعة بغداد - كلية الآداب

مصـــادر البحـــث

(١) سليمان ابراهيم العسكري ، التجارة والملاحة في الخليج العربي في العصر العباسي (مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٩٧٢) ص ١٤ .

(٢) ابو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محيي الدين عبدالحميد (القاهرة ، ١٩٦٤) ج ١ ، ص ١١٣ .

(٣) عبدالله الماجد ، «الربان أحمد بن ماجد» ، مجلة العرب (السعودية) ، الجزء الثالث ، السنة الخامسة (تشرين الثاني ، ١٩٧٠) ص ٢٨٣ .

(٤) عطية القوصي ، تجارة الخليج بين المد والجزر في القرنين الثاني والثالث للهجرة ، المجلة الجغرافية الكويتية (الكويت) ، العدد ١٨ ، (حزيران ، ١٩٨٠) ، ص ٦ .

(٥) العسكري ، المصدر السابق ، من ص ٦٦ ـ ٧٠ .

(٦) مقبول احمد ، العلاقات التجارية بين الهند والعرب من القرن العاشر قبل الميلاد حتى العصر الحديث ، مجلة ثقافة الهند ، المجلد ١٦ ، العدد ١ (يناير ١٩٦٦) ، ص ٣٢ .

(٧) المقدسي البشاري ، احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ليدن ، بريل ، ١٩٠٦) ، ص ١٢ .

(٨) أحمد ، المصدر السابق ، ص ٢٣ .

(٩) حسن صالح شهاب ، فن الملاحة عند العرب (دار العودة، بيروت ، ١٩٨٢) ص ٢٧ .

(١٠) سلطنة عمان ، وزارة الثقافة والتراث ، عمان وتاريخها البحري (١٩٧٩) ، ص ٣٣ .

(١١) ان أحدث وأشمل وأدق ما كتب عن نسب ابن ماجد وحياته ، هو كتاب الاستاذ إبراهيم الخوري الموسوم «أحمد بن ماجد ، حياته ، مؤلفاته ، استحالة لقائه بفاسكو داجاما» منشورات مركز الدراسات والوثائق في الديوان الأميري برأس الخيمة ، سلسلة كتاب الأبحاث (مطبعة الأندلس ، دمشق ، ١٩٨٩) .

(١٢) المصدر نفسه ، ص ٢٩ .

(١٣) اغناطيوس كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم (القاهرة ، ١٩٦٥) ج ٢ ص ٥٧٣) : أنور عبدالعليم ، ابن ماجد الملاح (القاهرة ، ١٩٦٧) ، ص ١٣ .

(١٤) جبرائيل فران ، دائرة المعارف الاسلامية ، مادة أحمد بن ماجد ، ج ٣ ص ٣٩٨ .

(١٥) G.R. Tibbetts, Arab Navigation in the Indian Ocean before the coming of the Portuguese (London, 1971), p.17.

(١٦) فران ، دائرة المعارفة الاسلامية ، مادة أحمد بن ماجد ، ج ٣ ، ص ٤١١ ، الخوري ، أحمد بن ماجد ، ص ١٥٩ .

(١٧) المصدر نفسه ، ص ٥٥ ، ٧٥ .

(١٨) أحمد بن ماجد ، حاوية الاختصار في أصول علم البحار ، تحقيق وتحليل وترجمة إبراهيم خوري ، مركز الدراسات والوثائق في الديوان الأميري برأس الخيمة ، كتاب الأبحاث ، الجزء الثاني (مطبعة الأندلس ، دمشق ، ١٩٨٩) ، ص ٨٦ .

(١٩) ان مصنفات ابن ماجد المنشورة والمعروفة اليوم هي :

١ - «كتاب حاوية الاختصار في أصول علم البحار» ، وهو شعر ابن ماجد الملاحي الذي وصف فيه الملاحة الفلكية العربية في المحيط الهندي ، ويعد من أعظم مؤلفات ابن ماجد ، بل ان كل ما كتبه بعد الحاوية يعد توضيحاً لمعلوماتها .

٢ - «الاراجيز والقصائد» وعددها ٢٣ أرجوزة وقصيدة حبرها ابن ماجد في أوقات مختلفة ، وقد قام الاستاذ إبراهيم خوري مشكوراً بوضع قائمة بيّن فيها التاريخ الذي كتب فيه هذه الاراجيز والقصائد . وعلى أية حال ، فان هذه الاراجيز والقصائد تعطينا صورة واضحة عن حوض المحيط الهندي والجوانب الأساسية المختلفة للملاحة فيه .

٣ - «كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد والفصول» ، ويعد هذا الكتاب خاتمة أعمال ابن ماجد وثمرته الناضجة . وهو الذي كتبه نثرا عام ٨٩٥هـ/١٤٨٩ - ١٤٩٠م . وهو على رأي أحد الباحثين المحدثين «المفتاح الحقيقي لدراسة الملاحة العربية» . خوري ، أحمد بن ماجد ، ص ٨٣ ، ١٤٨ .

(٢٠) ابن ماجد ، الفوائد ، من ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .

(٢١) المصدر نفسه ، ص ١٤١ .

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ١٩٦ .

(٢٣) أحمد بن ماجد ، الاراجيز والقصائد ، تحقيق وتحليل إبراهيم خوري (مطبعة الأندلس ، دمشق ، ١٩٨٩) ص ١٨٢ .

(٢٤) G.R. Tibbetts, Arabia in the fifteenth century navigational texts, Arabian studies, ed. by R.B. Serjeaut and R.L. Bidwell (London, 1,74), p. 97.

(٢٥) الفوائد ، ص ١٩٦ .

(٢٦) المصدر نفسه ، من ص ٢٠٨ ـ ٩ .

(٢٧) لقد درس البروفسور بول كونيتش ، نص ابن ماجد عن البحرين ، موضحاً ما يحتويه من معلومات جغرافية وتاريخية . وقد راى ان ذكر ابن ماجد لما تحتويه البحرين من ٣٦٠ قرية ، انما هو نقل عمن سبقه من الكتاب ، كما يرى ان هذا العدد من القرى يدل على سعة سلطة البحرين التي لم تشمل الجزيرة فقط على ايام ابن ماجد او قبله ، وإنما تضم مناطق واسعة من شرق الجزيرة العربية انظر : «وصف البحرين لأحمد بن ماجد ١٤٩٠م» مجلة الوثيقة ، العدد الرابع ، السنة الثانية ، يناير ، ١٩٨٤ ، ص ص ١٩٢ ـ ١٩٧ .

(٢٨) يؤكد ابن ماجد ما جاء في كتب التاريخ والجغرافية والرحلات العربية من كون البحرين كانت مركزاً تجارياً قديماً ، اشتهرت بوجود اللؤلؤ ، فتوارد التجار على شراء هذه السلعة . انظر : محمد بن عبدالله اللواتي ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور علي المنتصر الكتاني مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٩) ج ١ ، ص ٣٠٤ ، حسين السليمان الناصر ، النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية اواخر العصور الوسطى ، ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ (مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٧) ص ٣٧ ، ٧٥ .

(٢٩) الاراجيز والقصائد ، ص ٣٠٥ .

(٣٠) الفوائد ، ص ١٩٦ . ويشير ابن ماجد إلى وجود طريق بري يربط البحرين براس مسندم ، ويقدر المسافة بمسيرة شهر في البرّ . (الفوائد ، ص ١٩٦) . وذكر ابن بطوطة هذا الطريق في رحلته . وقال عنه انه مقطوع في ايامه

لكثرة الرمال فيه ، واستعيض عنه بالطريق البحري (رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ٣٠٥) .

(٣١) الاراجيز والقصائد ، ص ص ١٨٢ ـ ٣ .

(٣٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٤ .

(٣٣) المصدر نفسه ، ص ١٨٥ .

(٣٤) المصدر نفسه .

(٣٥) المصدر نفسه ، ص ١٨٢ .

(٣٦) المصدر نفسه ، ص ١٨٥ .

(٣٧) المصدر نفسه ، ص ص ١٨٦ ـ ٧ .

(٣٨) الفوائد ، ص ١٩٦ .

(٣٩) المصدر نفسه ، ص ص ١٩٦ ـ ٧ .

(٤٠) الاراجيز والقصائد ، ص ١٧٤ .

(٤١) الفوائد ، ص ١٩٧ .

(٤٢) المصدر نفسه ، ص ١٩٦ .

(٤٣) Tibbetts, Arabia.. P.89,93.

(٤٤) الاراجيز والقصائد ، ص ١٧٢ .

(٤٥) المصدر نفسه .

(٤٦) المصدر نفسه ، ص ٢٦١ .

(٤٧) المصدر نفسه ، ص ٢٦٥ .

(٤٨) الحاوية ، ص ٣٤ .

(٤٩) الفوائد ، ص ٢١٦ .

(٥٠) احتلت قلهات مكانة تجارية مهمة في العصر الوسيط ، وهذا ما اكده الرحالة العرب والاوروبيون . يقول ماركو بولو عنها : كانت قلهات مركزاً كبيراً لاستقبال السفن التجارية من الهند ، وتوزيع بضائعها إلى المناطق الداخلية في عمان . رحلات ماركو بولو ، ترجمة توفيق جاويد (القاهرة ، ١٩٧٧) ص ص ٣٤٠ ـ ٣٤١ . واكد ابن بطوطة هذه المكانة ايضا في

رحلته . انظر : ج/١ ص ٢٩٦ .

(٥١) الفوائد ، ص ١٨٥ .

(٥٢) المصدر نفسه .

(٥٣) الحاوية ، ص ٣٤ .

(٥٤) الفوائد ، ص ١٢٤ .

(٥٥) الاراجيز والقصائد ، ص ١٨٠ .

(٥٦) المصدر نفسه ، ص ١٨١ .

(٥٧) المصدر نفسه .

(٥٨) المصدر نفسه ، ص ١٨٢ .

(٥٩) المصدر نفسه ، ص ١٨٣ .

(٦٠) المصدر نفسه ، ص ١٨٤ .

(٦١) المصدر نفسه .

(٦٢) الاراجيز والقصائد ، ص ص ١٨٥ ـ ٧ .

(٦٣) الفوائد ، ص ١٩٥ ، و٢١٤ و٢١٧ .

(٦٤) المصدر نفسه ، ص ٢١٢ .

(٦٥) الفوائد ، ص ١٩٥ .

(٦٦) المصدر نفسه ، ص ٢١٧ ، الاراجيز والقصائد ، ص ١٤ .

(٦٧) المصدر نفسه ، ص ٢٥٩ ، ١٥ .

(٦٨) شهاب ، فن الملاحة ، ص ٢٩٣ .

(٦٩) الاراجيز والقصائد ، ص ١٧٢ .

(٧٠) حاوية الاختصار ، ص ٦٩ .

(٧١) المصدر نفسه ، ص ٦٣ .

(٧٢) المصدر نفسه ، ص ٦٩ .

(٧٣) المصدر نفسه ، ص ٦٢ .

(٧٤) الاراجيز والقصائد ، ٢٦١ . الحاوية ، ص ٦٩ .

(٧٥) الاراجيز ، ص ١٧٣ .

(٧٦) المصدر نفسه ، ص ص ١٧٣ ـ ٤ .

(٧٧) الفوائد ، ص ١٧٦ .

(٧٨) المصدر نفسه ، ص ١٩٤ .

(٧٩) المصدر نفسه ، ص ١٧٧ .

(٨٠) الحاوية ، ص ٦٥ .

(٨١) الاراجيز ، ص ١٧٤ .

(٨٢) المصدر نفسه ، ص ص ١٧٤ ـ ٥ .

(٨٣) المصدر نفسه ، ص ١٧٥ .

(٨٤) المصدر نفسه .

(٨٥) الحاوية ، ص ٤٣ ، الاراجيز ، ص ١٧٨ .

(٨٦) العسكري ، المصدر السابق ، ص ١٢٩ ، ١٥٣ .

(٨٧) الاراجيز والقصائد ، ص ١٧٨ .

(٨٨) الفوائد ، ص ١٧٩ .

(٨٩) الاراجيز ، ص ١٧٨ .

(٩٠) المصدر نفسه ، ص ٢٦٠ .

(٩١) حاوية الاختصار ، ص ٧٠ .

(٩٢) المصدر نفسه .

(٩٣) المصدر نفسه ، ص ٦٤ ، الاراجيز ، ص ٢٥٩ .

(٩٤) جورج فضلو حوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى ، ترجمه وزاد عليه الدكتور السيد يعقوب بكر (مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٨) ، ص ٢١١ .

(٩٥) الفوائد ، ص ١٨١ .

(٩٦) المصدر نفسه ، ص ص ١٨٠ ـ ١٨١ .

(٩٧) المصدر نفسه ، ص ١٨٠ .

(٩٨) المصدر نفسه ، ص ١٨٢ .

(٩٩) الاراجيز ، ص ٢٥٨ .

(١٠٠) المصدر نفسه ، ص ص ٢٥٩ ـ ٦٠ .

(١٠١) الفوائد ، ص ١٨٢ .

(١٠٢) الحاوية ، ص٤٣ ـ ٤٤ .

(١٠٣) الفوائد ، ص ١٨٣ .

(١٠٤) الحاوية ، ص ٤٤ .

(١٠٥) الفوائد ، ص ٢٠٦ .

(١٠٦) الاراجيز ، ص ٦٨ ، ١٥ .

(١٠٧) المصدر نفسه ، ص ص ٧٦ ـ ٧٧ .

(١٠٨) المصدر نفسه ، ص ٦٨ .

(١٠٩) المصدر نفسه ، ص ص ٦٨ ـ ٦٩ .

(١١٠) المصدر نفسه ، ص ١٤ .

(١١١) المصدر نفسه ، ص ١١٢ .

(١١٢) الحاوية ، ص ٤٤ ، ص ص ٤٦ ـ ٧ .

(١١٣) الفوائد ، ص ٢٠٦ .

(١١٤) المصدر نفسه .

(١١٥) العسكري ، المصدر السابق ، ص ٢٠٥ ، حوراني ، المصدر السابق ، ص ٢٠٦ .

(١١٦) الفوائد ، ص ١٩٦ .

(١١٧) المصدر نفسه .

(١١٨) الاراجيز ، ص ١٨٤ .

(١١٩) المصدر نفسه ، ص ١٨١ . يبدو ان ابن ماجد قد نسي ان يذكر ضحالة المياه في منطقة البصرة والتي كانت السفن تتجنبها قبل ايام ابن ماجد . عن طريق الخشبات التي عملتها الدولة العربية الاسلامية في تلك المنطقة لتحذر السفن منها . حوراني ، ص ٥٦ .

(١٢٠) الفوائد ، ص ١٧٥ .

(١٢١) الاراجيز ، ص ٧٦ .

(١٢٢) الحاوية ، ص ٤٧ .

(١٢٣) الاراجيز ، ص ٧٦ .

(١٢٤) المصدر نفسه ، ص ١٧٣ .

(١٢٥) الفوائد ، ص ص ١٨٢ ـ ٣ .

(١٢٦) حوراني ، المصدر السابق ، ص ٢١٠ .

(١٢٧) رحلات ماركو بولو ، ص ٣١٩ .
(١٢٨) الفوائد ، ص ص ٣١ ـ ٣٢ .
(١٢٩) المصدر نفسه ، ص ١٧٦ .
(١٣٠) المصدر نفسه ، ص ١٧٧ .
(١٣١) المصدر نفسه ، ص ١٧٩ .
(١٣٢) المصدر نفسه .
(١٣٣) المصدر نفسه ، ص ص ١٨٠ ـ ١٨١ .
(١٣٤) المصدر نفسه ، ص ١٨١ .
(١٣٥) المصدر نفسه ، ص ١٨٢ .
(١٣٦) المصدر نفسه ، الاراجيز ، ص ٢٦٠ .
(١٣٧) الفوائد ، ص ١٩٧ .
(١٣٨) الاراجيز ، ص ١٧٢ .
(١٣٩) المصدر نفسه ، ص ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠ .
(١٤٠) الفوائد ، ص ١٧٥ .
(١٤١) شهاب ، فن الملاحة ، ص ص ١٦٣ ـ ٤ .
(١٤٢) الفوائد ، ص ١٩٧ .
(١٤٣) الاراجيز ، ص ١٧٤ .
(١٤٤) المصدر نفسه ، ص ١٧٥ .
(١٤٥) الاراجيز ، ص ص ١٧٥ ـ ٦ .
(١٤٦) الفوائد ، ص ١٨٣ .
(١٤٧) الاراجيز ، ص ٦٨ .
(١٤٨) الفوائد ، ص ١٧٥ .
(١٤٩) الاراجيز ، ص ١٧٥ .
(١٥٠) الفوائد ، ص ص ٣١ ـ ٢ .
(١٥١) حسن صالح شهاب ، علوم العرب البحرية من ابن ماجد إلى القطامي (دراسة مقارنة) (الكويت ، ١٩٨٤) ، ص ص ٧٧ ـ ٩ .
(١٥٢) الاراجيز ، ص ٢٦٨ .
(١٥٣) المصدر نفسه ، ص ١٧٠ .

(١٥٤) الحاوية ، ص ص ٤٣ ـ ٤ ، الفوائد ، ص ١٠١ ، ٢٤٥ ، الاراجيز ، ص ١٧ ، ١٣١ ، ١٧٨ .

(١٥٥) المصدر نفسه ، ص ص ٢٦٨ ـ ٩ ، ص ١٣٤ .

(١٥٦) الحاوية ، ٦٣ ـ ٤ .

(١٥٧) شهاب ، العلوم البحرية ، ص ٧٧ . ويمكن تحويل الازوام إلى درجات وإلى أميال أيضا ، ويقدر الدرجة بخمسة أزوام إلا ثلثا .

(١٥٨) الحاوية ، ص ٦٣ ، الفوائد ، ص ١٢٥ .

(١٥٩) المصدر نفسه ، ص ١٧٢ .

(١٦٠) المصدر نفسه ، ص ١٣٢ ، الحاوية ، ص ٦٥ .

(١٦١) المصدر نفسه ، ص ٦٤ .

(١٦٢) حوراني ، المصدر السابق ، ص ص ٢٢٠ ـ ١ .

(١٦٣) الفوائد ، ص ٣٢٩ (الطبعة القديمة) .

(١٦٤) شهاب ، فن الملاحة ، ص ١٨٨ .

(١٦٥) الفوائد ، ص ٢١٤ وما بعدها .

(١٦٦) انور عبدالعليم ، المعارف البحرية ، وتطور الملاحة المصرية في القرنين التاسع والخامس عشر الميلادي ، نشرت في كتاب : «تاريخ البحرية المصرية» (جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٣) ص ١٩٨ .

(١٦٧) الفوائد ، ص ص ٢١٤ ـ ٥ . انظر ايضا عمان وتاريخها البحري ، ص ٩٢ .

(١٦٨) الفوائد ، ص ٢١٦ .

(١٦٩) المصدر نفسه ، ص ٢١٦ ، ٢١٩ .

(١٧٠) الحاوية ، ص ص ١٣ ـ ١٤ .

(١٧١) حوراني ، المصدر السابق ، ص ٢١١ .

(١٧٢) الفوائد ، ص ص ١٨١ ـ ٣ .

(١٧٣) الاراجيز ، ص ١٧٧ .

(١٧٤) المصدر نفسه ، ص ٦٨ .

(١٧٥) الفوائد ، ص ٢٠٦ .

(١٧٦) المصدر نفسه .

(١٧٧) المصدر نفسه .

(١٧٨) المصدر نفسه ، ص ٢٠٧ .

(١٧٩) الفوائد ، ص ص ١٧٥ ـ ١٧٦ .

(١٨٠) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ١ ، ص ٢٩٤ ، ج ٢ ، ص ٤٦٤ .

(١٨١) احمد ، العلاقات .. ص ٤١ .

(١٨٢) العمري ، المسالك والممالك ، نشر الاستاذ خورشيد احمد فاروق جزء (١) منه باسم «ضوء جديد على تاريخ الهند من مخطوط عربي» ، ثقافة الهند ، العدد ١ ، المجلد ١١ (يناير ، ١٩٦٠) ص ١٥ : الناصر ، المصدر السابق ، ص ٢٥١ .

(١٨٣) الفوائد ، ص ١٩٦ .

(١٨٤) المصدر نفسه ، ص ص ٢٠٨ ـ ٩ .

(١٨٥) المصدر نفسه ، ص ١٩٦ .

(١٨٦) المصدر نفسه ، ص ٢٨ ، الاراجيز ، ص ١٨٥ .

(١٨٧) الفوائد ، ص ٢٠٨ .

(١٨٨) المصدر نفسه ، ص ص ٢٢١ ـ ٢ .

البحرين

رؤية روسيّة لتاريخ الخليج "١"

تأليف ف. ل. بوديانسكي   ترجمها من الروسية رضوان ابراهيم

حرصا من الوثيقة على أن تحشد حول تاريخ البحرين والمنطقة كل الأبحاث والدراسات المتاحة فإنها الى جانب ذلك تحرص على أن تقدم مختلف وجهات النظر حول الموضوع المطروح وقد سبق أن قدمنا حول فترة واحدة مختلف وجهات النظر من المؤرخين العرب والعثمانيين والأوروبيين والهنود والمغاربة وغيرهم وفي هذه الدراسة نقدم ولأول مرة وجهة نظر جديدة للروس . فقليلة هي الدراسات الروسية التي كتبت حول المنطقة وقليلون هم الباحثون الروس الذين كتبوا حول منطقة الخليج . والكاتب الذي يقدم هذا البحث هو أحد العلماء الروس وأحد العناصر البارزة في أكاديمية العلوم السوفيتية قبل تفكك الاتحاد السوفيتي وهو يقدم في

في مقابر البحرين رؤوس سهام



هذه الحلقة والحلقات التالية دراسة حول تاريخ البحرين من منظور روسي .

ونحب هنا ان نؤكد ان وجهات النظر المطروحة إنما تمثل رؤية صاحبها للأحداث وليست بالضرورة هي الحقيقة الثابتة كما انها ليست بالضرورة هي وجهة نظر المجلة وإنما يجيء حرصنا على هذا الحشد بهدف توفير أكبر قدر ممكن من الدراسات لتكون بيد الدارسين من أبناء المنطقة والعالم العربي وقراء «الوثيقة» ليبدأوا بعد ذلك جهدهم المأمول في فرز هذه الدراسات واخضاعها للمعايير العلمية الموضوعية عند تصديهم لكتابة تاريخ المنطقة .

(الوثيقـة)

من السّيليكون عمرها ١٠٠ ألف عام

جزيرة المائة ألف مقبرة

بدأت المناقشات تدور حول جزر البحرين ذات المقابر العالية في السنوات المائة الغابرة ، ومع انه من الصعب أن نحدد الوقت الذي اصبحت فيه البحرين ولأول مرة موضوعا للدراسة ، إلا ان ذلك ربما حدث قبل ظهور الأوروبيين في الخليج ، إذ لم يكن لهؤلاء الأوروبيين فضل في كشف هذه المقابر أكثر أو أقل من مجرد الوصف التفصيلي الذي به أصبحت البحرين تشتهر لسنوات طويلة باسم «جزيرة الموتى» ، وقد كان لهذه التسمية الكئيبة المقبضة ما يبررها على ما يبدو في الجزء الشمالي من الجزيرة الكبرى في مجموعة جزر البحرين ، ويتضح ذلك من الحشد الهائل من الآكام الصناعية التي وجدت تحتها هذه المقابر .

وكان الانجليز هم الذين احتفظوا ـ بدافع الكثير من الغيرة ـ بهذه المشارف الصعبة المنال للوصول الى الهند ، وهم الذين منعوا تغلغل الأجانب ـ ومن بينهم العلماء ـ في الخليج وحجبوا هذا الاكتشاف أمدا طويلا .

وفي الحفريات الأولى عام ١٨٧٩ توصلوا الى افتراض ان هذه الآكام الصناعية إنما هي شواهد للمقابر .

والدراسات السطحية التالية للمقابر قام بها علماء الآثار الانجليز مثل كورنفول ، وديوراند ، وبنت ، وغيرهم ـ هذه الدراسات أثارت مجموعة من الأسئلة التي بقيت بلا اجابة .

وفي مجموعة مقابر البحرين المطمورة تحت أكداس التراب والرمال تم العثور على أضرحة حجرية ، بعضها يرتفع حوالي عشرة أمتار ، ويتكون من طابقين .

وتخطيط هذه الأضرحة يتسم بسمة واحدة ، هي الممر الثابت الذي يسير بارتفاع نحو الغرب ، وينتهي بمدفن ذي تجويفين في كل جانب ، وكانت جميع الأضرحة مشيدة من الحجارة المبطنة بالجص ، ولها أجزاء خشبية مستقلة ، وذلك على الرغم من ان مجموعة الجزر كانت خالية من الغابات .

ومع ان كثيرا من الأضرحة التي وجدت كانت قد نهبت ، إلا انه قد تسنى لهم أن يجدوا الى جانب رفات الموتى تمائم ذهبية ، وعظاما لحيوانات الأضاحي ، وتمائم مصنوعة من البرونز ، والفضة والحديد وهي ذات زخارف دقيقة ، كما وجدوا صناديق مصنوعة من سن الفيل ، وقطعا من الفخار الشفاف المصنوع من الطين الأحمر ، وجرارا عليها زخارف ، وهكذا ..

وهذه الأدوات ـ كما يتضح من مادتها ، ومن تشكيلها الفني ـ كانت مجلوبة الى البحرين من أماكن نائية ، والأهمية الكبرى لهذه المكتشفات تنحصر في انه لم تظهر أضرحة مثل

هذه في أية منطقة من مناطق العالم سوى في مجموعة جزر البحرين .

وهنا يبرز سؤالان : من الذي بنى هذه الشواهد ؟ ومتى بنيت ؟

قبل عام ١٩٥٤ كانت بعض البعثات الأثرية تعمل في مجموعة جزر البحرين ، ولكن جميع محاولاتها للعثور على بقايا القرى والمقابر المعاصرة لها - باءت بالفشل ، وكان كل ما أمكن اثباته هو انه قد تجمع في البحرين عشرات الألوف من الأضرحة ، ومن هذا نشأ الاسم الجديد لها ، وهو جزيرة المائة ألف مقبرة .

ويفترض معظم العلماء انه منذ حوالي ألف سنة قبل العصر الذي نحن بصدده ، قام سكان الساحل العربي من الخليج بتحويل البحرين الى مكان لدفن الموتى من المواطنين ، والقليلون فقط من المتخصصين هم الذين وضعوا هذا الافتراض موضع الشك ، ومن بين هؤلاء المؤرخان الأثريان ، الاستاذ ت. بيبي ، والاستاذ ب. ف. جلوب .

ففي ديسمبر ١٩٥٣ كان رئيس هذه البعثة السابق الاشارة اليها الى رمال شرقي الجزيرة قد زار البحرين بهدف ان يثبت ان الجزيرة كانت في وقت ما مركزا للثقافة القديمة ، وان حملها لاسم «جزيرة الموتى» انما هو بسبب اخفاق علماء الآثار فحسب ، ففي بداية عمل العالم الدانماركي تيسر له أن يجد وسط البحرين رؤوس سهام من السليكون ، يرجع عمرها الى مائة الف عام ، وكانت هذه أول ضربة توجه الى الافتراض الذي سماها باسم «جزيرة الموتى» .

ومن عام ١٩٥٤ بدأ بيبي وجلوب ينقبان تنقيبا ضخما في مناطق قرية باربار ورأس الكوالا ، كما تم في نفس الوقت كشف بعض المدافن وفحص المناطق المحيطة بها ، وكانت المهمة الثانية للعالم الدانماركي هي العثور على آثار السكان العرب قبل الاسلام ، لكن انتصاره الحقيقي جاء متأخرا ، فعند الحفر في التل المسطح الواقع تحت قلعة البحرين القديمة في منطقة المنامة ، وجد علماء الآثار هناك آثار مدن قديمة ، وقد انشئت كل منها على أطلال الأخرى ، وحينما اكتشف الجزء الأكبر من التل اصبح من الواضح ان افتراض تسميتها «جزيرة الموتى» قد سقط الى الأبد ، ففي أقدم الطبقات كانت تكمن آثار مدينتين تنتميان الى الألف الثالث قبل الميلاد ، أي انهما ترجعان الى عصر نشأة المدافن ، ومن العسير ان نقدر أهمية اكتشاف بيبي وجلوب ، فقد عثرا على حضارة أصيلة غير معروفة ، وهي قديمة في منزلة قدم حضارة أشور في أرض ما بين النهرين ، أو موهيندودار في الهند ، وهذه الحضارة تكشف عن تاريخ مجموعة جزر البحرين وتشهد بأن البحرين كانت دائما «جزيرة الأحياء» .

وبهذه الصورة وجدت على أرض

البحرين قبل العصر المشار اليه بثلاثة ألاف سنة مدن مكونة من بيوت حجرية واسعة ، تقع على امتداد شوارع مستقيمة ، في مربعات قائمة الزوايا ، لها اسوار حجرية عريضة ومرتفعة ، يبلغ ارتفاعها اربعة امتار من الأساس وتحيط بالمدينة وهي على درجة من المتانة بحيث تحصن المدينة ضد الهجمات البرية والبحرية ، وكان لسكان الجزيرة ميل خاص الى البناء المتين، وبهذا تشهد بقايا المدن والأعمدة - كما في منطقة باربار - وهي معابد ذات أفنية واسعة مرصوفة وذات مذابح كبيرة ، وأحواض للاستحمام الخاص بالطقوس .

وهذا الميل يؤكد مرة أخرى اشتراك هؤلاء الناس في عمل جبار لانشاء المدافن تحت الأضرحة .

وفن بناء المدن القديمة مهارة تجمع بين الحرفة والمهارة الصناعية ، وهي تسيطر بمنتهى الاتقان على أعمال الفخار المصنوع من الطين الأحمر ، وهو ينظم أشكال الآنية المرسومة ، التي لا تتميز عن الصناعة السومرية والهندية فحسب ، بل حتى عن الفخارالبحريني المتأخر والمصنوعات المطبوعة منه في شكل أزرار بقيت فريدة في نوعها .

ومن الواضح ان الأدوات المصنوعة من المعادن والعاج وحجر اللازورد والمواد الأخرى إنما هى أجنبية الأصل ، تشبه ما هو موجود في أرض ما بين النهرين ، والهند ، واثار البحر المتوسط ، كما تشبه المصنوعات الفخارية البحرينية ، وقد استطاعت أن تثبت أن سكان الجزيرة كانوا يتميزون بأنهم ملاحون وتجار متمرسون .

وما يزال من الصعب أن نقول الى أي شعب تنتمي هذه الثقافة الأثرية الأولى المعبرة عن البحرين ، وهناك أسس كثيرة لافتراض أنه من الممكن أن تنتمي الى العرب ، غير أن الذي يبرز بلا منازع أنه توجد بين جزر البحرين الحالية تلك الجزيرة التي تشبه الأسطورة ، وهي جزيرة ديلمون التي جاء ذكرها في نصوص السومريين المدونة بالخط المسماري ، كما جاء ذكرها كمركز لدولة كبيرة نسبيا ، يدخل ضمنها شبه جزيرة قطر ، وساحل الاحساء في شبه الجزيرة العربية ، ولم تتح الفرصة بعد لتحديد طبيعة العلاقة بين سومر و «المملكة الخالدة» ، وهي ديلمون (١) ، وقد أكسب السومريون الخليج أهمية ضخمة ، وذلك باخضاع سواحله وجزره . ففي الفترة من عام ٢٧٩٥ الى عام ٢٧٣٩ قبل الميلاد كان السومريون يقومون بتجهيز بعض الحملات لاخضاع السكان المحليين ، وقد أنشأوا طريقا للتجارة من الخليج الى البحر المتوسط يمر بدجلة والفرات .

وحوالي عام ٢٢٦٠ قبل الميلاد غزا حاكم أوروك لوجالزاجيس جميع

البلاد ، من البحر الأدنى الى البحر الأعلى [٢] ، وأنشأ طريق التجارة المنظم .

والنقوش النيبوريسية تنقل الينا أنه منذ حكم حاكم أكاد سرجون للسومريين قامت علاقات وثيقة بينهم وبين جميع جزر الخليج ، ومن بينها جزيرة ديلمون ، وتوطدت هذه العلاقات عام ٢١٣٢ ، حينما تسلم حاكم أور مقاليد القيادة فيما بين النهرين ، وظلت هذه العلاقات قائمة منذ بداية الألف الثاني قبل الميلاد حتى تولى حامورابي (١٧٩٢ - ١٧٥٠) حكم مملكة بابل القديمة .

ويبدو أن موقع ديلمون الجغرافي الملائم ، ووقوعها على طريق التجارة ذي الأهمية الكبيرة - قد أفاد سومر ، كما أفاد مدينة الدولة في مرحلة مبكرة من التطور هناك ، وكذلك في مرحلة أكثر تأخرا ، حينما قامت فيما بين النهرين اتحادات حكومية ، وأصبحت ضئالة الموارد الطبيعية - وخاصة عدم توفر المعادن - أصبحت محسوسة بدرجة كبيرة .

ولقد احتاج حكام سومر الى ثروة جزيرة ديلمون ، وواحتها المزدهرة ، وأماكنها الغنية باللؤلؤ ، وحاولوا أن يخضعوها أكثر من مرة .

والحفريات الأثرية التاريخية في جزيرة البحرين تؤيد المعلومات القائلة بأن العاصمة الملائمة لديلمون كدولة ، لم يخربها الغزاة ذات يوم ، وأنها ظلت مهجورة لأمد طويل ، لكنه بكل تأكيد أعيد بناؤها مرة أخرى ، وقد منعت الحروب المستمرة سومر أن تظفر بالسيادة على منطقة الخليج ، وخاصة على جزيرة ديلمون .

وفي نهاية الألف الثاني قبل الميلاد ، وبعد سقوط مملكة بابل القديمة - وخاصة في فترة استيلاء الجبليين على بابل (١٥١٨ - ١٢٠٤) - قامت على أراضي مجموعة جزر البحرين الحالية دولة مستقلة ، لكنها اضمحلت عند بداية الألف الأول قبل الميلاد ، وظهر على هذه الجزر تجار التمر .

ولقد لعب الفلاحون الشجعان والوسطاء المبتكرون للتجارة بالمقايضة وتجار التمر على تخوم الألف الأول والثاني - لعبوا دورا ممتازا في الحياة الاقتصادية لمنطقة البحر المتوسط ، وفرضوا سيطرتهم على طرق التجارة المحلية الأساسية ، ثم خرجوا الى المحيط الأطلسي والبحر الأحمر ، كما خرجوا في نفس الوقت - على ما يبدو - الى الخليج .

وقد أضطر بائعو التمر للاستيلاء على آثار دولة ديلمون ، وسرعان ما عقدوا معاهدات للصلح مع السكان المحليين ، وأسسوا المحطات التجارية ، واستقروا في مجموعة الجزر هذه بصورة دائمة ، ولأمد طويل ، وهذه العلاقات بينها وبين أرض ما بين النهرين تركزت بادىء الأمر في التجارة ، ولكن حينما هزمت بابل على يد الحاكم الأشوري

سنحاريب (٧٠٥ ـ ٦٨٠) أشير إليها في المراجع الأشورية بـ سحابة من الغبار تصيب ديلمون ـ أبدوا اهتماما كبيرا بالحياة السياسية ، وأصبحوا يتحدثون بلغتين ، كذلك في نضال أشور ضد عيلام ساعد تجار التمر سنحاريب في تنظيم حملة بحرية عبر الخليج ، وفي النهاية كف الأشوريون عن العدوان على المحطات التجارية لتجار التمر ، التي أقاموها في الجزر ، مكتفين بالأتاوة التي تدفع لهم عن انتاج الصناعات البحرية ـ وخاصة عين السمك ، أي اللؤلؤ ـ وسلع ما وراء البحار ، وقد ساعد كل هذا بدوره على تطور الملاحة البحرية لتجار التمر في الخليج .

ويشهد هيرودوت وجوستين بأن جزيرة تيل (تيلوس) وجزيرة عرادا (البحرين والمحرق الحاليتين) قد اكتسبتا من تجار التمر أهمية جديدة كمركزين للتبادل التجاري ، وقد حققت عمليات التجارة العابرة أهدافها بالنسبة لتجار التمر .

وكانت بلدان البحر المتوسط تصدر الى منطقة الخليج الحبوب والزيوت النباتية ، والنبيذ ، والمنسوجات الكتانية ، والمعادن ، والأسلحة والعطور ، والعملة النقدية ، ومن أواسط الجزيرة العربية كانت تستورد المر ، والبخور ، والبلسم ، والمستحضرات الطبية ، ومجموعة السلع الافريقية .

وكانت السفن تحمل اليها من الهند العبيد ، وسن الفيل ، والطلاء ، والأصباغ النباتية ، والأرز ، والتوابل ، وسكر القصب ، والغزل ، والمنسوجات القطنية ، ومن الصين كانت تستورد الحرير ، والغراء ، والجلود ، والحديد .

ولقد حاول تجار التمر أن يستخدموا الجزيرة لا كمركز تجاري فحسب ، لأن المعلومات اليونانية والرومانية تنبىء أن تجار التمر قد أطلقوا المياه الجوفية الموفورة في مزارع القطن بجزيرتي تيل (تيلوس) ، وعراد .

وهذه المعلومات قريبة جدا من الواقع فمن المعروف ان فلاحة تجار التمر للمزارع لعبت دورا محدودا في التطوير الاقتصادي لبلاد البحر المتوسط . لكن .. كم من الوقت استمر نشاط تجار التمر ؟

يبدو انه استمر لمدة غير معلومة ، فقد كان خروجهم من منطقة الخليج مرتبطا ـ على ما يبدو ـ بالأحداث التي سادت ما بين النهرين في النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد ، في بداية القرن السادس هزم نابوخذ نصر الثاني (٦٠٤ ـ ٥٦٢) ق.م ـ حاكم مملكة بابل الجديدة ـ هزم أشور ، وأخضع بنفسه ما بين النهرين ، وبلدان الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، وكانت قد خلت قرونا طويلة من طرق التجارة المأمونة ، التي تعمل ما بين الشرق والغرب .

وبعد أربعين عاما سقطت بابل ضحية للعدوان من جانب فارس

واتحاد الميديين والفرس (٥٥٨ ـ ٥٢٩) ، وكان احتلال الأكمينيين لما بين النهرين ثم سميريا ولوتيفيا مصحوبا بتحويل طرق التجارة الى جهة البحر الأحمر ، ومنذ ذلك الحين بدأت الأنباء تتوالى عن استئناف النشاط الايجابي لتجار التمر على سواحل افريقيا الشرقية ، لكن الغزوات التالية لقمبيز ملك الفرس (٥٢٨ ـ ٥٢٢) أبعدت التزاحم على الخليج لأمد طويل ، فسارت التجارة في الخليج الى التدهور ، وظهر بعد هذا ميناء (العجير)[٣] على الساحل الجنوبي للخليج في نهاية القرن السادس ، وكان الهاربون بعد هزيمة بابل قد أنشأوه ليكون ـ كما زعموا ـ مركزا للتجارة العابرة هناك ولكنه لم يصل الى أبعد من المستوى السابق .

وقد دبر الاسكندر المقدوني (٣٣٦ ـ ٣٢٣ق.م) محاولة لانعاش التجارة في الخليج فقام ـ باعتباره نصيرا للتجارة الاغريقية ـ باتخاذ مجموعة من التدابير لتطوير الملاحة في الخليج ، وكانت الحملة البحرية الشهيرة لنيكارغوس قائد اسطول الاسكندر احد هذه التدابير، ونيكارغوس واحد من أوائل الاغريق الذين قطعوا الطريق البحري من الهند الى بلاد ما بين النهرين ، متبعا ساحل المحيط الهندي والخليج ، وقد انحدر الاستعمار والغزو الاغريقي الى ساحل الخليج وحول الجزيرة العربية ، ولكنهما لم يحققا الغاية بعد موت الموحي بهما .

كل هذه الأحداث وجدت أصداءها في تاريخ مجموعة جزر البحرين .

وبانسحاب تجار التمر من الخليج ، وخاصة بعد ظهور السفن الاغريقية والرومانية هناك ـ فقدت مجموعة جزر البحرين أهميتها كمركز تجاري ، وإذا لم تكن قد غرقت في الخمول فان الفضل في ذلك يرجع الى مغاصات اللؤلؤ الساحلية وبراعة السكان المحليين في استغلالها . وقد ورد تنويه حول هذه الفترة في مذكرات نيكارغوس التي سبقنا في النقل عنه كل من ايراتوسفين وبليني، كما ورد في رسائل لمؤلف مجهول ، أو معروف مثل «بيريل» ، والنقوش المدونة على الجدران ، وهناك مراجع كثيرة العدد ، وبعض مراجع أخرى تقدم أساسا لافتراض ان عصر التدهور الاقتصادي والسياسي في هذه الجزر قد استمر حوالي ثلاثمائة عام على وجه التقريب ، وفي القرن الثالث قبل الميلاد فقط ، وحينما قامت فيما بين النهرين دولة هلينية للسلوقيين على أنقاض امبراطورية الاسكندر المقدوني ـ أخذت مجموعة الجزر تستعيد أهميتها السالفة بالتدريج .

ولقد كان انتعاش طرق التجارة في الخليج نتيجة النهضة الاقتصادية الجديدة لبلدان البحر المتوسط ، وتوطيد العلاقات بين مجموعة دول جنوبي الجزيرة العربية وجنوبيها الشرقي وبين العالم الخارجي .

في هذه الحالة لعب السلوقيون دورا بارزا فهم الذين أبدوا الاهتمام الكبير

بانعاش طريق التجارة بين الخليج والبحر المتوسط .

أما انتيكونوس الثالث (٢٢٣ ـ ١٨٧) فقد قام بحملة على امتداد ساحل الجزيرة العربية حتى ميناء العجير واستولى على سوريا ، ثم قدم خطة لنسف العلاقات التجارية بين مصر البطلموسية وبين جنوب شرقي أسيا عبر البحر الأحمر .

والحقيقة أن السلوقيين كانوا يميلون الى دعم طريق التجارة البري بسرعة ، وذلك باستخدام طرق القوافل القديمة ، ومن بينها طريق الحرير العظيم ، غير أن هذا الطريق لم تكن له أهمية حاسمة ، فقد أخذت طرق التجارة البحرية التي أعيد تعميرها في الخليج تنمو بسرعة ، وقد وقعت تحت سيطرة العرب .

وكان تثبيت العرب في منطقة الخليج مرتبطا بهجرة القبائل السامية من شبه الجزيرة العربية في نهاية الألف الأول قبل الميلاد .

وكانت القبائل العربية تمارس غاراتها على أطراف الامبراطورية السلوقية ، وقد أفادت دولة الباراكس في مصب نهري دجلة والفرات من مركز سباسن الهاراك[٤] .

وكان قيصرها هيسبارين قد غزا ـ عام ١٢٨ ـ ١٢٧ قبل الميلاد ـ بابل ، وأرض الكوفة ، وجنوب خوزستان الحاليتين . ومع أن الهاراك سقطت عام ١٣٦ تحت ضربات البارثيين ، فقد تمسك العرب بحدود غزواتهم ، ومن بينها جزر البحرين ، والنتائج التي أسفرت عنها حفريات بيبي وجلوب وكذلك بقايا الآثار التي خلفتها القوى العربية السابقة على الاسلام في جزر البحرين ـ ألقت كثيرا من الضوء على هذه الفترة من تاريخها .

ولم تبد قيادة البارثيين في طريق الغزو عزمها على احتلال منطقة الخليج ، أما السلوقيون فقد مارسوا نضالهم التنافسي ضد مصر بطريقتهم الخاصة ، فضمنوا لأنفسهم تأييد العرب ، ونظموا التجارة البحرية مع الهند ومنطقة البحر المتوسط .

وباصرار نظم العرب الملاحة في سواحل الخليج ، ثم أمنوا العلاقة بين الموانىء المحلية والعالم الخارجي . ومن بين هذه الموانىء المدينة التجارية الضخمة التي كانت تشغل مكانة مرموقة بشهادة المؤرخ الطبري (٨٣٨ ـ ٩٢٣ م) تلك المدينة القائمة على جزيرة أوال ، وهي مدينة البحرين الحالية .

ولقد تقدمت جزر البحرين في بداية العصر الذي نتحدث عنه الى المكانة الأولى في الخليج ، وساعد على ذلك وجود سوق مزدهرة للؤلؤ ، وطورت زراعة الواحات ، والحرف ، والصناعات البحرية . وساعد تصدير حاصلات الانتاج المحلي على ازدهارها ، وعند ذلك الوقت ظهرت الدولة العربية الجديدة ، وكانت الحياة الاقتصادية تتوقف منذ البداية على نجاح النضال بين بارثيا ومصر بسبب الطريق الى الهند .

وقد أحرز استمرار سياسة السلوقيين مع استبداد البارثيين نجاحا أكبر مما أحرزه أسلافهم ، فحوالي عام ٧٠ قبل الميلاد نظموا الرقابة على أهم شريانين تجاريين ، الأول من الفرات ، فآسيا الصغرى ، مارا ببلاد ما بين النهرين ، حتى يصل الى الخليج ، والثاني طريق الشمال ، من الفرات الى الشرق واصلا بين «طريق الحرير العظيم» وبين فرع الطريق الى الهند . ولكلا الطريقين أهمية كبرى بالنسبة لبارثيا ، وقد عززا بجميع الوسائل ، وظلا مزدهرين حتى ذلك الوقت الذي وقفت فيه بارثيا أمام عدوها اللدود ، ممثلا في شخص الرومان .

وفي الستينات قبل الميلاد استولت روما على شرق البحر المتوسط ، وبذلك أنزلت ضربة قاصمة بتجارة بارثيا .

وفي الأربعينات ـ بعد فترة انقطاع قصيرة ـ اشتد نضال البارثيين ضد روما ، فقد اعتدى الرومان بطريقة مكشوفة على بلاد ما بين النهرين ، وهي الاقليم الأوسط لبارثيا ، وقد تميز انتقال مصر الى روما بتطور عاصف في التجارة اليونانية الرومانية مع الهند والجزيرة العربية .

وابتداء من الثلاثينات قبل الميلاد ، وعلى امتداد مائة عام على وجه التقريب ، أصبحت حلقة الاتصال الأولى والأساسية لطرق التجارة اليونانية الرومانية هي موانيء جنوب الجزيرة العربية وهرمز .

وأخيرا دخلت منطقة الخليج مرحلة الأزمة الاقتصادية في جانب منها ، مما أثار نزاعا خطيرا بين القبائل العربية المحلية والبارثيين .

ولقد ازداد الموقف سوءا في حدود العصر الذي نتحدث عنه حين تفاقمت عملية انحلال بارثيا ، وفي عام ١١٦ نجح الامبراطور تراجان في الاستيلاء على ما بين النهرين ، حتى وصل الى الخليج ، ولو أن انتصاره هذا على ادريان (١١٧ ـ ١٣٨) كان انتصارا عابرا ، فقد اضطر الرومان أن يتقهقروا إلا أنه أصبح من الواضح أن البارثيين أضعف من أن يسترجعوا المواقع الضائعة التي فقدوها وكان ظهور الرومان من جديد في شواطيء الخليج عام ١٩٥ برهانا كاملا على هذا ، وكان من نتيجة ذلك أن انقطعت العلاقات بين عرب الخليج والبارثيين .

وفي القرن الثالث ـ كما جاء في أخبار الطبري عن العرب ـ أنهم شقوا عصا الطاعة على الساسانيين الأوائل ، وأصبحوا يقومون بغارات على سواحل ما بين النهرين وفارس ، وقد أبدى عرب البحرين بسالة خاصة ونادرة ، فهم الذين استطاعوا في دولتهم أن يستغلوا موقع الجزر ، فأقاموا حصونا على الجزر ، واستخدموا الأساطيل ، وكيفما كان التنظيم الحربي لعرب البحرين فمن الممكن أن نحكم بأن مملكة الساسانيين الأولى تحت حكم أردشير (٢٢٦ ـ ٢٤١) ، الذي انتصر على

حاول علماء الآثار البحث عن سر جزيرة الموتى..

فاكتشفوا أن البحرين كانت جزيرة الأحياء

بارثيا وميديا احتاج الى عام من الحصار لكي يكسر مقاومة السكان ، وينزل الى الجزيرة ، ولكن هذه الحملة التي صاحبتها الأعمال التأديبية ، ومحاولة الاستيلاء على زمام الرقابة والاشراف في الخليج ـ لم تنجح ، بل اضطر الفرس الى أن يتخلوا عن جزر البحرين ، وأخذ العرب يوالـون غزواتهم للمناطق الساحلية في بلاد فارس .

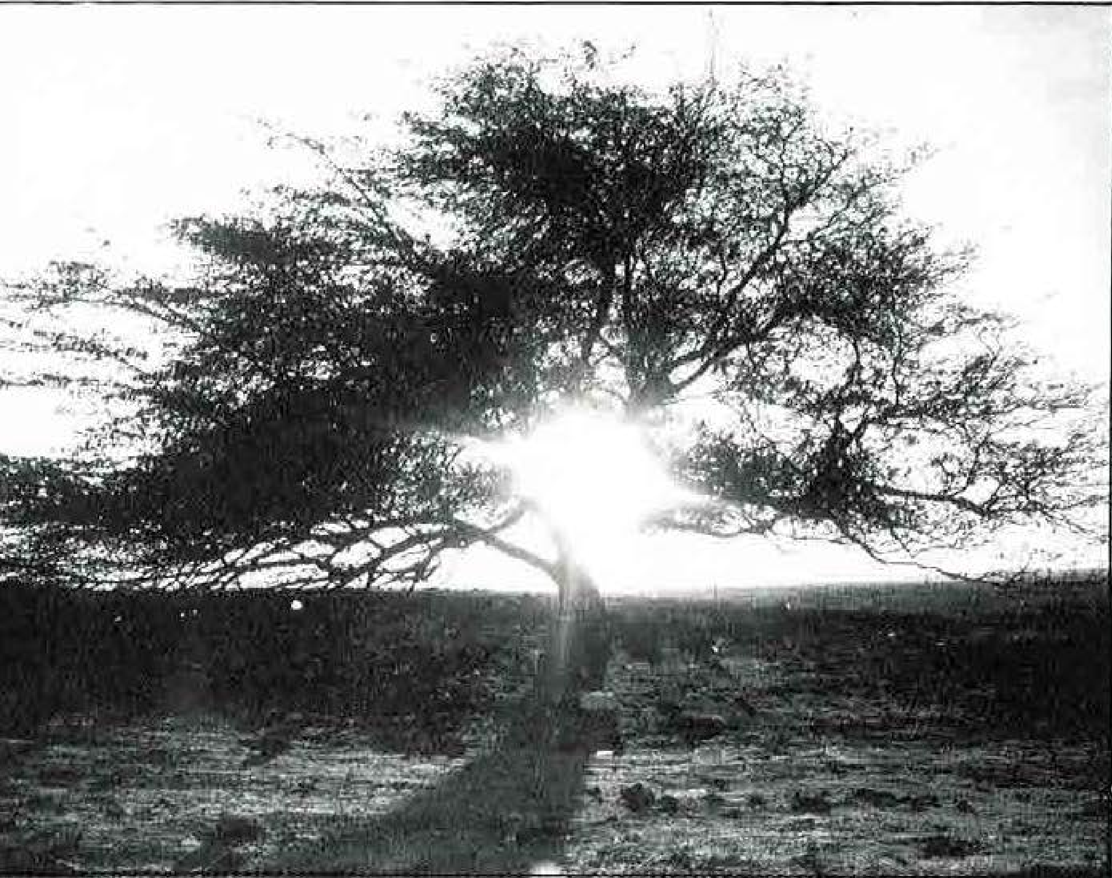
ومع سابور الثاني (٣٠٩ ـ ٣٧٩) بدأت الحرب الحقيقية ضد عرب الخليج الذين استطاعوا أن ينشئوا دولة قوية كانت تضم جزر البحرين ، وتتاخم جزءا من شبه الجزيـرة العـربيـة ، وهنـا قـرر الفـرس ـ مضطرين ـ أن يوقفوا ملاحتهم في الخليج .

وقـد استطاع سـابور الثـاني ـ حينما أحرز النصر على الرومان ـ أن ينزل الهزيمة بعرب البحرين ابان احدى غزواتهم الدورية لبلاد فارس ، ثم استغل هذا النجاح ، فواصل الهجوم ، وقذف بجيشه عبر الخليج ، واحتل ميناء القطيف ، وحاصر الجزر من البر والبحر ، وسرعان ما اقتحم الفرس حصون البحرين ، وأصبح السكان المحليون منهزمين أو أسرى ، وقطع الفرس غابات النخيل ، وقطعوا أشجار الحدائق ، وطمروا الآبار ، وأحرقوا السفن .

وفي وقت متأخر ظهر على الجزر أوائل المهاجرين من الفرس الذين كان عليهم أن يثبتـوا استعمـارهم ، وينشئوا هناك مركزاً للتجارة البحرية العابرة .

أما محاولة الفرس احتكار طرق التجارة التي تربط الشرق بالغرب ، فقد كان يعوقها النضال المتواصل ضد روما ثم بيزنطة الذي حقق بعض النجاح المتبادل.

وفي نهاية القرن الخامس ، ثم في خلال القرن السادس أصبح جنوب الجزيرة العربية واحدا من ميادين النضال ، حين رفضت بيزنطة عام ٥٤٢ مسـاعدة اشراف اليمن في المحـاولات التي قامـوا بها لكي يتخلصوا من نير الحبشة ، فبرزت



فارس على المسرح ، وبهذا احتشدت القوى حول «الجزيرة العربية السعيدة» .

ولقد جلب هذا الاصطدام على السكان المحليين كوارث لا يحصيها العد ، وبدأت بالحركة التجارية الحرة الجبارة للقبائل العربية التي وصفها أنجلز بأنها «أول عمل للشعور القومي الذي استيقظ»[٥] .

ومن جديد اتجهت القبائل العربية نحو الشرق ، وفي أواسط القرن السادس وصلت الى الخليج ، ومن جديد عادت منطقة الخليج مسرحا للصدام بين العرب والفرس ، وعند هذا لعبت جزر البحرين دورا في الدرجة الأولى كنقطة ارتكاز للاسطول العربي .

ولقد نجح الشاه الفارسي كسرى الأول أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٩) بصعوبة في أن يصد هجمات العرب ، وأن يبدد اسطولهم ، وأن يستعيد مجموعة الجزر ،

وكانت مدينة قلعة البحرين والمحرق قد تحولت الى مكان لحشد فصائل الجيش الضخمة .

وبمعاونة كسرى الأول تم اخماد المقاومة في منطقة الخليج ، ثم في جنوب الجزيرة العربية ، وفي عام ٥٧٢ تم احتلال اليمن ، أما خلفاؤه - وخاصة كسرى الثاني ابرويز (٥٩٠ - ٦٢٨) فقد واصلوا سياسة الفتوحات ، ونجحوا في فرض الرقابة على طرق التجارة القديمة الى الهند والصين .

دخول الاسلام للبحرين

ان مبلغ علمنا بالمعطيات الخاصة بالبناء الاجتماعي والسياسي لمجتمع البحرين في بداية العصر الذي نحن بصدده ضئيل جدا ، إذ يكاد يكون من غير المعروف كيف ومتى نشأت الوحدة السياسية في جزر البحرين .

والإشارات الخاصة التي تضمنتها كتب الطبري وغيره من علماء الشرق في القرون الوسطى ، تقدم أساسا لافتراض أن عرب البحرين بدأوا فيما بين القرنين الثاني والثالث يحسون بالنفوذ الخطير لفارس الساسانية ، حيث انتشرت علاقات الرق انتشارا واسعا .

ولقد تزايد هذا النفوذ في القرن الرابع ، حينما كان الفرس يحتلون هذه الجزر ، ولكن بعد سلسلة من الفشل في تنظيم التجارة البحرية المستقلة في الخليج ، لجأ حكام الفرس إلى تجارب هؤلاء العرب وصناعاتهم ،

وبفضل مساعدة العرب انتعشت العلاقات التجارية في أواسط القرن السادس بين موانىء البحرين والهند ، وقد كان للهند أهمية كبيرة بالنسبة للعرب .

وكانت تقوية هذه الجزر واصلاحها مرتبطين بتقسيم العمل في المستقبل ، أو بتعبير آخر بسير التطور المقبل في الزراعة ، والحرف ، والصناعات البحرية وغيرها .

وفي نهاية القرن السادس اختير نظام جديد للكية الأرض واستثمارها ، وهو نظام يتميز به الاقطاع القديم .

ولقد ساعدت العلاقات المستمرة بين قبائل الجزيرة العربية التي ظهرت لديها المقايضة المالية ، وبين نفوذ فارس ، حيث بدأ فساد مجتمع الرق والتشكيل الاقطاعي .. ساعدت هذه العلاقات على تطور علاقات الربا والقروض والسلع النقدية ، وأخيرا انتاج السلع في البحرين ، كل هذا لعب دوراً كبيراً في تاريخ البحرين المقبل ، والمندفع على الأثر إلى دوامة الأحداث السياسية .

فلقد كان النضال شديداً من أجل «الجزيرة العربية السعيدة» بين الحبشة وبيزنطة وفارس في القرن السادس ، بسبب الأزمة الاقتصادية العنيفة في شبه الجزيرة العربية ، وخاصة الانحراف الذي استدعته طرق التجارة البحرية في ناحية من شبه الجزيرة ، وتدهور التجارة العربية ، وقد انعكس ذلك بقوة على رفاهية جميع مراكز التجارة العابرة المحلية ، وخاصة مكة .

وفي نفس الوقت ـ على وجه التقريب ـ وصلت أزمة الاقتصاد البدوي ذروتها التي سيطرت على القبائل العربية في أواسط الجزيرة العربية التي تتميز على الدوام بظروف جغرافية قاسية جدا ، وقد ساعد كل هذا على احتدام التناقضات

الاجتماعية الداخلية في شبه الجزيرة العربية .

وقد أدت التناقضات الداخلية والسيطرة الأجنبية إلى نفس التأثير الحقيقي على أيديولوجية السكان المحليين ، وفي النهاية أحدث الانتشار الواسع الذي نالته الحنيفية في الجزيرة العربية في القرنين السادس والسابع ـ تمهيدا للدخول في الديانة التوحيدية الجديدة وهي الاسلام .

وفي عام ٦٣٠م ـ كما يشهد الطبري ـ قدم إلى جزر البحرين مبعوث النبي محمد (ﷺ) ، وهو العلاء الحضرمي الذي طور نشاط الدعوة لصالح الاسلام بين سكان الجزيرة وهم أعضاء قبيلة عبد القيس من بني بكر ، وقد أتت جهود العلاء أكلها ، وكان الجزء الأساسي لمجتمع البحرين مستعدا لقبول الاسلام . ولكن زعماء القبائل ثاروا ضده ، ولم تكن ثورتهم حرصا على مصير الدين القديم بقدر ما كانت من أجل الوضع الاقتصادي والسياسي الخاص بهم .(٦)

وكان دخول المسلمين الى جزر البحرين احدى الضربات الأولى لفارس الساسانية الهرمة ، ثم هجم العرب على ما بين النهرين ، في بداية عام ٦٣٧ في عهد الخليفة عمر وأوقعوا الهزيمة بجيش يزدجرد الثالث واستولوا على عاصمة فارس .

وكان الذي استفاد في النهاية هو العلاء حاكم البحرين الذي عبر الخليج عام ٦٣٩ بعزم راسخ على احتلال كل الساحل الفارسي ، الا انه عندما اصطدمت الوحدات شبه العسكرية لعرب البحرين بالجيش النظامي ليزدجرد هزمت بسرعة ، وتراجع العلاء بجزء من جيشه إلى مصب شط العرب ، لكن الفرس لم يستطيعوا أن يستفيدوا من هذا النصر ، ففي عام ٦٤١ وقع جيش يزدجرد من جديد في هزيمة كبرى ، وفي السنة التالية هرب يزدجرد إلى مرو في الشرق ، وهنا كان يجرى الاستعداد الايجابي في جزر البحرين لحملة جديدة . وفي عام ٦٤٤ تلقى عرب البحرين الامدادات ، ونزلوا على الساحل الفارسى ، وفي معركة أمام ريشهر شتتوا بقية جيش شهريك نائب فارس . وفي عام ٦٤٨ أصبحت فارس خاضعة للعرب لكن بعد ثلاث سنوات عادت الامبراطورية الساسانية .

وتحول البحرين من موقع النضال ضد المسلمين الى حصن للنضال في سبيل انتصار «الدين الجديد» في الشرق كله يشير إلى تأثيره الحقيقي على حياتها الاقتصادية والسياسية .

فالانتصارات العربية ، وما تلاها بعد ذلك من انتشار التجارة العربية في كل مكان ساعدت على تطوير الحياة المدنية ، وانحلال النظام الطبقي ، وفوضى تصفية الملكيات العقارية الكبيرة في المرحلة الابتدائية .

والحرية الليبرالية للعصر الذهبي للاسلام ـ التي غيرت استبداد فارس الساسانية وخاصة الغاء الضرائب

والأتاوات القديمة ، وادخال التجارة الحرة وغيرها - كانت لها أهمية خاصة بالنسبة لسكان البحرين الذين أعادوا لمجموعة الجزر ازدهارها القديم في الحرف والصناعة والزراعة والتجارة ، لكن مرحلة التطور المستقل نسبيا لم تستمر طويلا .

ولقد تغير الوضع بالنسبة للخلفاء الأمويين ، فتحولت البحرين إلى اقليم من أقاليم الخلافة .

وخلال الحكم الأموي في عصره الأول اتسع نطاق الفتوحات إلى حد كبير ، وسرعان ما أصبحت الخلافة دولة ضخمة مترامية الأطراف ، تضم كثيراً من البلدان والأقاليم ، وبدأت العلاقات الاقطاعية تنمو وتتطور في أجزاء كثيرة من أرضها ، وبدأت القلاقل .

وفي نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن كانت الخلافة محوطة بالانتفاضات الجدية المضادة ، والتي تتميز بالأصرار العنيد ، لكنها لم تخرج عن حدود الأقاليم .

ومع خلفاء السلالة العباسية تحسن وضع البحرين بعض الشيء ، خاصة بعد أن تحولت بغداد إلى عاصمة للخلافة ، وقد أسست عام ٧٦٢ ، وبذلك أصبح الخليج ميدانا للعمليات التجارية العابرة الضخمة .

وحسب معلومات أحد الجغرافيين الفرس ، أصبح ازدهار الواحات في مجموعة الجزر التي دخلت ضمن الخلافة معروفا على نطاق واسع ، كما اتسع المجال بدرجة كبيرة لنظام منشآت الري ، وكانت زراعة الواحات بالمحصول الأساسي وهو نخيل البلح أحد الأعمال الأساسية للسكان المحليين ، ومع ذلك فان التطور المحدود توصل إلى صور أخرى للزراعة ، كما توصل إلى تربية الماشية ، وقد أخبر قدامة موظف الادارة المالية للخلافة ان أثمان المنتجات الزراعية التي كانت تصل من البحرين إلى بغداد تجاوزت خمسمائة ألف دينار في العام .

وفي هذه الجزر ازدهرت الصناعات التي كانت تقوم على المواد الأولية ، ومن بينها الغزل والنسيج ، وأعمال الفخار ، وتصنيع المعادن ، وبناء السفن الصغيرة . وكان صيد الأسماك وصيد اللؤلؤ يحتل مكانة ممتازة بين هذه الصناعات . وعن هذا المجال الواسع يسجل الرحالة والتاجر العربي سليمان الكثير في مذكراته ، وهو الذي زار الخليج والبحرين في النصف الأول من القرن التاسع .

ومما تجدر الاشارة إليه انه قد ارتسمت في ذلك الوقت بوضوح ملامح التطور للعلاقات الاقطاعية في مجموعة الجزر وهي ملامح طبيعية في كل أنحاء الخلافة .

وقد ظهرت البوادر الأولى للملكية الفردية في الأرض والماء ووسائل الانتاج ، كما نشأت حالات في نطاق الصناعة والمصانع الصغيرة المنظمة ، كذلك ساعد التطور على انتشار الربا .

أما التجارة العابرة التي كانت تعود بالأرباح الكبيرة على التجار

والأعيان فقد ساعدت على الاستقطاب المستمر للمجتمع وزيادة التناقضات في داخله .

وعلى تخوم القرنين الثامن والتاسع كانت الخلافة العباسية محوطة بالثورات الشعبية الجبارة ، مما جعلها تتفتت إلى أجزاء ودويلات .

وفي هذه السنوات تكونت هناك جماعة سرية للاسماعيليين ، ويعتبر أبو عبدالله الملقب بالقرمطى مؤسسا لها .

وفي عام ٨٩٠ وصلت الرحلة الأولى للقرامطة إلى منطقة مدينة واسط فيما بين النهرين وكانت الثورة برئاسة حمدان القرمطى ، وتحت قيادته حاول القرامطة أن يحققوا على الطبيعة بعض شعاراتهم التي أبرزوها من قبل ، ومن بينها الاشتراكية في جزء من الممتلكات ، ومصادر الدخل لكل عضو من أعضاء المجتمع ، والمساواة في توزيع الأموال اللازمة للاستهلاك ، وهكذا .

ولقد أظهروا أنفسهم في صورة التابعين للاسلام «الحقيقي» ، واعترفوا بالدور القيادي للرؤساء الاسماعيليين وحدهم ، وهم - كما يزعم الطاهريون - من أحفاد علي وفاطمة .

وفي عام ٨٩٤ ثار القرامطة الذين تغلغلوا سرا في جزر البحرين وطردوا الوالي ، وأعلنوا استقلالهم عن الخلافة . ولو نجح جند الخليفة فيما بين النهرين في أن يظفروا بالثوار لاخضعوا قرامطة البحرين ، لكن ذلك بدا مستحيلا .

وفي عام (٨٩٨) استرد قرامطة البحرين قواهم ، وتحولوا إلى الهجوم ، وقد ظهر دعاتهم في كثير من المراكز المأهولة بالسكان على ساحل الأحساء ، وشبه جزيرة قطر وعمان .

ثم نزلت فصائل من قرامطة البحرين على القارة ، وأصبحت مدينة الاحساء عاصمة للدولة ، ومركزا للحركة القرمطية ، ثم تزايدت بعد ذلك أهمية هذه المدينة بصورة ملحوظة ، كما نجح الخليفة المكتفى في أن يحطم بنفسه انطلاقة كبيرة لقرامطة ما بين النهرين (٩٠٣ - ٩٠٦) .

وفي بداية القرن العاشر تكونت في البحرين دولة للقرامطة ، ففي عام ٩٠٠ أعترف سكانها بالقيادة الروحية والزمنية لأبي سعيد الجنابي (٩٠٠ - ٩١٣) الذي كان معروفا باعتباره أحد أنصار الراحل أبي عبدالله الذي كان على رأس الدولة ، وقد كان أبو سعيد منظما موهوبا ، إذ سرعان ما شكل القوى القرمطية ، وخاصة الفصائل التي ترافق الإبل ، وقد علمها تكتيك الهجمات العنيفة والجامحة ، والتحول السريع من الهجوم إلى الدفاع ، مما جعلها تشكل تهديدا خطيرا للخلافة .

وبهدف تصفية القرامطة وجه إليهم حاكم بغداد حملة تأديبية ضخمة ، ولكن أبا سعيد أبادها ، وفي النهاية اضطر الخليفة أن يذهب بنفسه لملاقاتهم ، وقد اتخذ طرقا جديدة لمحو دولة القرامطة .

وفي عام ٩١٣ نجا أبو سعيد من يد قاتل مأجور وأخذ يمارس ارهابا شخصيا للخليفة المقتدر، وكان يرجو بذلك أن يضعف القوة الهجومية المضادة للبحرين لكنه أساء التقدير.

ولقد عبأ القائد الجديد أبو طاهر سليمان (٩١٣ - ٩٤٣) اتباعه واستأنف سياسة الغزو، وطورها، وسرعان ما انتشر سلطانه على مساحات كبيرة من الأقاليم.(٧)

ففي عام ٩١٩ جرد حملة من ٦٠٠ من الفرسان و٩٠٠ من المشاة، وبهم اغتصب مكة وقتل الحجاج الذين كانوا هناك، ونهب المقدسات ومن بينها الكعبة، ومن الغنائم التي نقلها أبو طاهر إلى البحرين «الحجر الأسود المعروف».

وفي عام ٩٤٩ أفلح رجال الدين الاسلامي المكيون في أن يفتدوا الحجر الأسود بمبلغ كبير من المال، وأن يعيدوه إلى مكانه.

وفي النصف الثاني من القرن العاشر دخلت دولة القرامطة في البحرين مرحلة الازدهار الأعظم، وفي أساس البناء الاجتماعي والسياسي لهذه الدولة وضعت تجربة لاصلاح المجتمع الاسلامي في العصور الوسطى، وهي جعله أكثر قبولا لدى الجمهور الأساسي من السكان. ولقد رفض القرامطة العقيدة الأساسية الرسمية للاسلام، وأعطوا أنفسهم الحرية في تأويل «النصوص المقدسة»، وأعلنوا مجموعة من المبادىء الخاصة بهم عن التسامح الديني، وقد أثرت هذه الملامح المميزة لفلسفتهم تأثيرا كبيرا على المسلمين.

ولقد أثارت «زندقة» القرامطة عليهم جماعات كثيرة من المدافعين عن الاسلام، وكان القرامطة ينسبون المغزى الفكري لحركتهم إلى أنبياء مختلفين مما شوه هذا المغزى.

وقد اعترفت الحكومة الأساسية وطائفة القرامطة بالداعية الرئيسي منذ البداية، وكان من أوائل الدعاة أبو سعيد وأبو طاهر، ثم الدعاة الستة المختارون، وهؤلاء الحكام الستة والستة المساعدون لهم كانوا يديرون الدولة، ويتصرفون في الشئون الداخلية والخارجية ويحسمون المسائل الدينية المختلف عليها، ويعينون رئيس الجند والموظفين، ويشرفون على الحياة الاقتصادية والسياسية والروحية في البلاد.

وكان الأساس الاقتصادي للدولة يقوم على نظام الرق في ممارسة شئون الزراعة، والملكية الخاصة للأدوات ووسائل الانتاج - بما فيها العبيد - أما الملكية العامة للأرض فيتساوى في توزيعها أعضاء الطائفة وأعضاء النشاط الزراعي في حالات المساعدة المتبادلة.

ولقد نجح القرامطة في بذل الجهود الجبارة للتوصل إلى حلول خاصة لمجموعة من المسائل الهامة، الأمر الذي ضمن لدولتهم ازدهارا نسبيا.

ان ناصر خسرو يكتب: «حينما كنت في الحسا كان هؤلاء الأمراء - أي الدعاة - يملكون ثلاثين ألفا من

العبيد الذين اشتروهم بالأموال ، وكانوا يستخدمونهم في كل أنواع الأعمال الزراعية والبستانية .

ولم يكن الشعب يدفع أعشارا ولا ضرائب ، وإذا وقع شخص ما في ضيق ، أو كانت عليه ديون يعجز عن الوفاء بها أعطى سلفة لاصلاح أموره ، وإذا أخذ شخص ما نقودا من آخر عن طريق الدين ، فلا يتقاضاه الدائن شيئا .

وبجانب الديون فلكل غريب صاحب حرفة أن يتسلم بمجرد وصوله إلى الحسا مبلغا صغيرا من النقود اذا لم يكن له راتب مضمون ، وذلك لكي يستطيع أن يشتري المواد والأدوات اللازمة للعمل ، وإذا باع انتاجه في هذه الحالة أعاد النقود التي اقترضها بنفس القدر الذي تسلمها به .

وإذا كان الشخص يملك بيتا مهدما أو طاحونة ، ولا يملك نقودا لاصلاحهما فان الحاكم يوفر له عددا من الأرقاء يقومون بترميم بيته أو طاحونته ، ولا يجبى منه شيء بسبب هذا ، وتوجد في الحسا طواحين مملوكة للدولة ، تطحن دقيق الفلاحين ، ولا يجبى منهم شيء في مقابل ذلك ، ومحتويات الطاحونة وأجور العمال تتكفل بها الدولة .

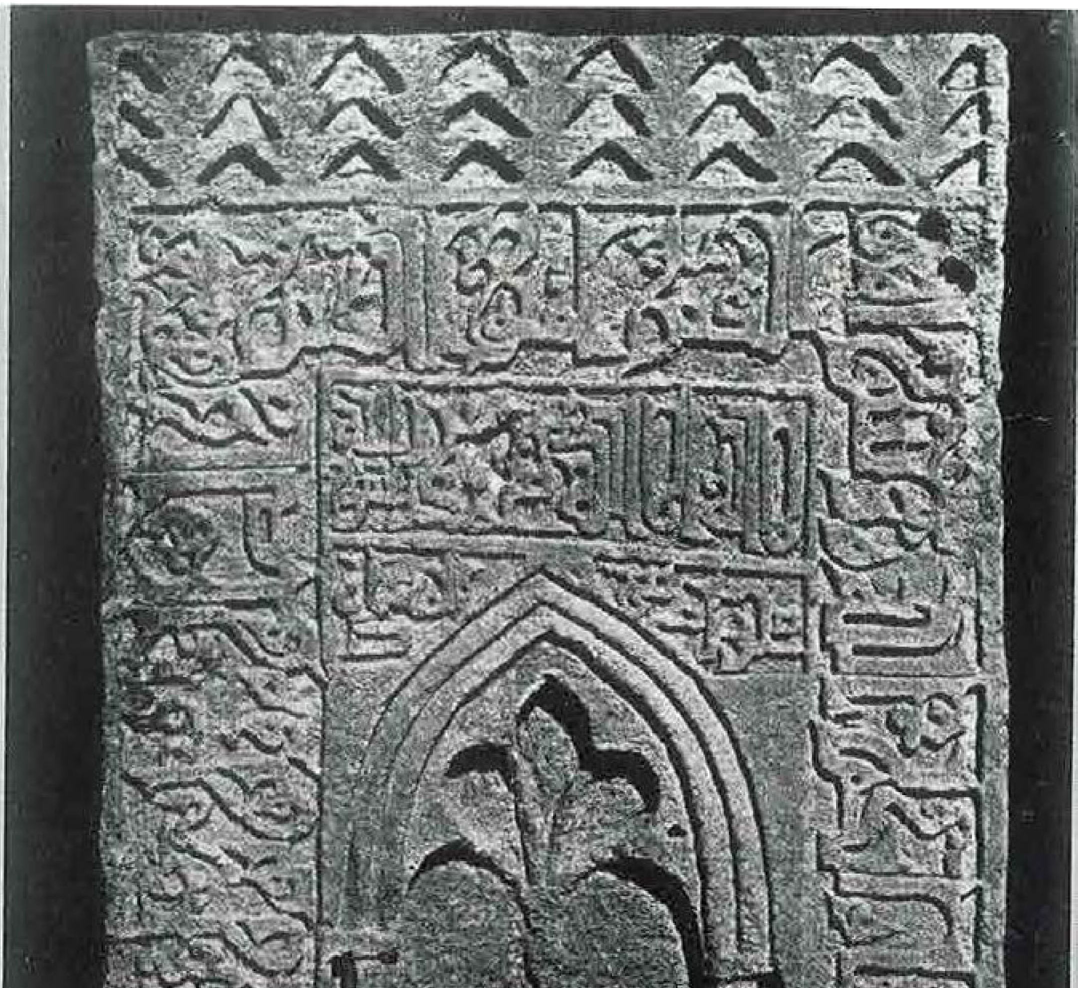
وهذه اللوحة التي رسمها ناصر خسرو للحياة الاجتماعية في البحرين على عهد القرامطة يظهر فيها عنصر التكامل ، ولكن ينبغي الا ننسى أن ناصر خسرو كان - أولا - أجنبيا بالنسبة للكثيرين فبدا له ما كان في مجموعة الجزر أحسن مما هو في حقيقة الأمر ، وكان اسماعيليا - ثانيا - بمعنى انه شخص تقترب عقيدته من أفكار القرامطة .

لكن من مجرد تسجيل قصته هذه عن القرامطة يبدو من الطريف جدا ان الشعبية والتجسيد الواضح لدولتهم ظهرت في عاصمة الحسا ، فهو يقول : «انها مدينة جميلة جدا ، ومحصنة جيدا ، ومتمتعة باحترام جميع المدن الكبيرة ، يسكنها عشرون الف شخص ، وهم قادرون على الخدمة العسكرية» .

ولقد كان الفرع الأكثر تطورا في اقتصاد دولة القرامطة في البحرين هو الزراعة ، وقد ازدهرت زراعة الواحات الواسعة المستندة إلى منشآت الري - حسب معلومات ناصر خسرو - كما في جزر البحرين والمحرق وسترة وغيرها ، كذلك كانت غابات النخيل تحيط بالمدن والقرى في الأراضي اليابسة ، وكان محصول البلح كبيرا جدا إلى حد انهم كانوا يطعمونه للماشية .

وفي ظل غابات النخيل كانت تتكاثر الحدائق والبساتين ومزارع البطيخ ، وكانت تزرع المحاصيل اللازمة للصناعة والطعام ، كما كانت تزرع الحبوب والفول وغيرها ، وفي الحدائق كانت تنمو أشجار الحمضيات والرمان والموز .

وقد وصل التطور الكبير كذلك إلى تعهد الماشية ، كتربية الإبل ، والحمر



البيضاء ، والأغنام ، والماعز ، وكان ناتج تربية الماشية ، والمحاصيل الزراعية يكفي لاستهلاك السكان ، ويفيض منه ما يكفي للتصدير . وقد ازدهرت الحرف في كثير من المدن والقرى ، وكان من منتجات الحسا النسيج ـ نسيج «الفوط» ، وهو النسيج المبطن بأهداب القطن ، الذي كانت تصنع منه البرانس والمناشف والشيلان ـ وكانت صناعة الفخار والأسلحة تحظى برواج كبير في الشرق ، وكانت تلعب الدور الخطير في الاقتصاد المحلي ـ على حد معلومات ناصر خسرو ، والرحالة العربي أبو

إشارات كثيرة ترجح أن الثقافة

الأثرية الأولى في البحرين تنتمي للعرب

سعيد حسان ، مما كان يحدث في منطقة الخليج في أواسط القرن العاشر - كانت تلعب هـذا الدور الصناعات البحرية ، فكان السمك المجفف ، ودروع السلحفاة ، واللؤلؤ تشكل جزءا لا بد منه للتصدير ، وكانت سفن القرامطة تمخر مياه الخليج ، وتبحر في المحيط الهندي ، وكان مرفأ البحرين يستقبل الأساطيل القادمة من الهند ، ومن سيلان ، ومن جنوبي الجزيرة العربية ، ومن شرقي أفريقيا .

ولم تدم فترة ازدهار دولة القرامطة إلا لأمد قصير ، وكان السبب عدم جدوى المحاولة الهجومية للقرامطة على الرغم من المسيرة الطبيعية لتطور التاريخ ، واعادة احياء نظام الرق الجماعي ، وبهذه المسيرة تخلصت من مجموعة المشاكل المعقدة الناشبة في الشرق العربي من عملية تشكيل العلاقات الاقطاعية هناك .

ولم ينجح القرامطة في أن يجنبوا أنفسهم نفوذ المحيطين بهم ، فقد ظهرت بوادر «الانحلال» داخل مجتمع القرامطة ، وبقدر ما كان هؤلاء المختارون الأوائل يعتبرون خلفاء أبي سعيد ، فقد كانت سلطتهم من بداية التطبيق لا تمثل شيئا ، لانهم كانوا مشغولين بمناصبهم ، ومع مرور الزمن أصبحوا وراثيين ، فقد غيرت الهيئة الحاكمة قوانين الطائفة وحولتها بالتدريج إلى استغلال مكشوف للأعضاء البسطاء من الطائفة ، وهم صغار التجار ، والحرفيون ، والفلاحون ، والبدو الرحل الخاضعون لهم .

وتشكيل الارستقراطية القرمطية كان يصحبه بالطبع ظهور التناقضات الطبقية وتفاقمها ، وسرعان ما فقدت طائفة القرامطة - المتنقلة من الباطن ، والباقية في الدائرة المعادية - قواها ونفوذها .

وتحرج الموقف أكثر من مرة ، لان قبائل البدو المعادية كثيرا ما وصلت في ذلك الوقت من أعماق الجزيرة العربية ووسطها إلى حدود دولة القرامطة ، وبدأت تقوم بالاغارة على أراضي هذه الدولة ، فجرتها إلى نضال طويل

ومـدمر ، وفي نفس الـوقت كـان القرامطة يهددون الفرس من ناحية الخليج ، مما وحد ضدهم محتلوهم الأوائل من سلالة البويهيين الذين لم يخضعوا فارس وحدها في نهاية القرن العـاشر - إلى جانب خـراسـان ، وسجستان ، وطبرستـان - ولكنهم أخضعوا كذلك ما بـين النهرين ، وعمان ، وكل جنوب الجزيرة العربية بما فيها اليمن .

ففي عام ٩٨٥ أبيد أتباع القرامطة في بلاد ما بين النهرين ، وتبع ذلك أن قل نفوذهم في عمان ، وبعد ثلاث سنوات اقتحمت فصائل ضخمة من البـدو حدود دولـة القرامطـة في البحرين ، واحتلت إلى حين واحدة من أهم مدنها وهي مدينة القطيف ، ولو انهم طردوا بسرعة ، وقد أوقعت هذه الأحـداث أضرارا بـالغـة بنفـوذ القرامطة في الجزيرة العربية ، وعند نهاية القرن العاشر وجدوا رقابهم في طوق محكم نسبيا ، وقد حاولوا أن يحطموا هذا الطوق ، فعبأوا جميع قوى الدولة ، وقاموا بحملة ضد ممثل البويهيين في خلافة بغداد ، وهو الطائي ، لكن جيشهم سحق عام ٩٨٧ - ٩٨٨ ، وأصبـح المـوقف خطيرا ، وأدرك حكام القرامطة هذا فلجـأوا إلى معـونـة الفـاطميـين (٩٠٩ - ١١٧١) ، الذين أخضعوا بلاد المغرب ، ومصر ، وسـوريا ، وفلسطين ، وغربي الجزيرة العربية ، وكـانت العلاقـات الاتحاديـة بين الدولتين متفاوتة في القوة والحجم ، ومن الطبيعي أن تتحول سريعا إلى تبعية من هؤلاء القرامطة للفاطميين ، لكن حتى هذا لم يعد على القرامطة بالنتائج المرجوة ، فقد كان سلاطين الفاطميين ، يجبون الضرائب بانتظام من حلفائهم القرامطة ، مع انهم لم يبدوا أيا من المحاولات لمساعدتهم ، لانهم لم يشاءوا أن يزيدوا العلاقات بينهم وبين فارس توترا .

وقد كان هذا التوتر ينفرج عندما تتعرض فارس لغارة جائحة من الأتراك السلاجقة الذين قهروها فيما بين عام ١٠٤٠ وعام ١٠٥٠ ، وفي عام ١٠٥٥ استولوا على بغداد ، وطالما صمم السلجوقيون على أن يعبروا الخليج لهزيمة دولة القرامطة في البحرين ، ولكن ذلك كان مستبعدا من هذه الناحية .

في ذلك الحين بوجه خاص زار ناصر خسرو جزر البحرين ، وشهد اكتمال دولة القرامطة وقوة حيويتها ، لكنه لم يلاحظ التهديد الكامن في العدوان من الخارج ، ذلك العدوان الذي كان يقوم به البدو الرحل ، وهم من انصار «العقيدة الحقيقية» من جهة ، وهم من جهة أخرى ممثلو الاسلام الرسمي ، وصنائع السلجوقيين .

كذلك في عام ١٠٥٧ - ١٠٥٨ ، أي بعد سبع سنوات من رحلة ناصر خسرو ، ثار واحد من القادة المحليين لقبيلة عبدالقيس ، وهو أبو البهلول ، ضد عقائد القرامطة مطالبا باعادة النظام السابق للاسلام الرسمي في البحرين ، ولقد أصبح ميناء القطيف

هو مركز المعارضة ، وبدأ النضال في سبيل السلطة ، وسرعان ما فقد هؤلاء ومشايعوهم مساندة المواطنين البسطاء المحرومين ، لانهم اغتصبوا السلطة عمليا ، ففقدوا كل حقوقهم .

وكان هذا الانقلاب عملا نهائيا في تاريخ دولة القرامطة في البحرين ، فقد أنهك قواها ، واستغل هذا كل من الخليفة القائم ، والادارة الخاضعة للحكام السلجوقيين الذين اتخذوا كل الوسائل ضد تقوية نفوذ الفاطميين في منطقة الخليج ، فوجهوا ضد القرامطة قوات ضخمة ، وفي موقعة على ساحل الحسا انهزمت القوات شبه العسكرية للقرامطة .

وقد صاحب عودة جزر البحرين إلى الخليفة إبادة عامة لسكان الجزيرة «المرتدين» ، وبعدها اختفى القرامطة إلى الأبد من منطقة الخليج .

ف. ل. بودیانسکي
اكاديمية العلوم السوفيتية ـ موسكو



الهوامش

(١) في أساطير السومريين وتقاليدهم ان جزيرة ديلمون تشبه «جنة الفردوس» و «عالم الخلود» ، حيث يوجد ماوى بطل السومريين شبه الخرافي جلجامش، وزيو أودرا ، وهما شخص واحد وهو أحد الناجين من الطوفان العالمي .

(٢) في نقوش السومريين المنقوشة بالكتابة المسمارية يسمون البحر الأبيض بالبحر الأعلى ، أما الخليج فيسمونه البحر الأدنى .

(٣) ميناء جيرا ـ الذي لم يعد موجودا الآن ـ أقيم على الساحل العربي للخليج بالقرب من مجموعة جزر البحرين مباشرة، وهو ميناء العقير أو العجير الحالي.

(٤) من أخبار نيارك (القرن الرابع قبل الميلاد) وبليني أخيرا (٢٢ ـ ٧٩ ميلادية) ان نهري دجلة والفرات كانا حينئذ يصبان في الخليج كل على حدة وان مدينة سباسن الهاراك كانت تقع على مصب دجلة اي في مكان غير بعيد من ملتقى دجلة والفرات الحالي .

(٥) ك. ماركس ، وف. انجلز ، مجموعة الرسائل ، موسكو ، ١٩٥٣ ، ص٧٤ ـ ٧٦ .

(٦) واضح من هذه الفقرة ان الكاتب لم يتعمق كثيراً في التاريخ الاسلامي ، فكل المصادر والمراجع العربية والأجنبية مجمعة على ان سكان البحرين اقبلوا جميعا على الاسلام عند عرضه عليهم . أما الموقف المعارض ضده فجاء في البحرين بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم و في اطار حركة الردة وربما كان ذلك هو ما يعنيه الكاتب هنا .

(المحرر)

(٧) كان ضمن ذلك جزء من ارض ما بين النهرين حتى الكوفة والبصرة وشاطىء الحسا ، وشبه جزيرة قطر ، وجزء كبير من عمان .

رواد الإصلاح

في العصر الحديث

٤

محمد رش

١٢٨٧ - ١٣٥٤هـ

ولد محمد رشيد رضا ، سنة ١٢٨٧هـ = ١٨٦٥م ، في قرية صغيرة من قرى طرابلس الشام ، تسمى (القلمون) ، وترعرع في بيت اسلامي نبيل ، ارضعه منذ نعومة اظفاره الاسس والمبادىء الاسلامية الصحيحة على خطى السلف الابرار ونهجهم . لذا لا عجب ان يحتل مكانة عالية مرموقة بين اقرانه ، لتفوقه - وعلى امتداد مسيرته العلمية - بكافة مقرراته الدراسية العلمية منها والأدبية ، حيث ظهرت آيات نبوغه في العلوم الاسلامية والعربية مبكرا ، مع براعة مشهودة في علوم المنطق والرياضيات والفلسفة ، مع اجادة للغتين التركية والفرنسية .

وقد أهلته هذه المكانة العلمية والتربية الاسلامية الشريفة ، لأن يصبح من عداد علماء الدين الاسلامي المرموقين ، الذين سبقوا زمانهم ، وكان معينه الذي لا ينضب وزاده الفكرى الثر ، مستمدا - طوال حياته - من القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة .. وكثيرا ما ساءه ما كان الناس عليه من بدع وخرافات واضاليل ، لا يقرها الشرع ، ولا تتفق مع الاسلام في شيء .. فكان جهاده الأول تعليم الناس أمور دينهم ودنياهم ، ومحاربة الافكار الجامدة ، التى تكبل حرية العقل ، وتنال من عالمية الاسلام وشموليته ، وكان يؤمن (رحمه الله) بأن الخطوة لاصلاح الوضع في العالم الاسلامى ، تتمثل في رفض المسلمين للصورة التى الفوها منذ ان وقعوا اسرى الانحطاط ، الذي عرفوه في العصور المتأخرة .. وعليه يجب أن يكون التغيير لهذا الواقع الاسلامي المريض جذريا وذلك بالقيام



يد رضا

١٨٦٥-١٩٣٥م

بقلم : الدكتور
فهمي توفيق مقبل

بمراجعة شاملة لفهم كنه وظيفه الدين الاسلامى ، على اساس العودة الى الاصول ، وفي ضوء قراءة جديدة للواقع .

وقد واجه رضا في طريقه نحو الاصلاح نفس العثرات والخصوم ، الذين وقفوا فى وجه الكواكبي واضطروه للسفر الى مصر ، حيث لم يجد مفرا في النهاية للتخلص من مضايقات السلطة الشديدة من الرحيل الى القاهرة سنة ١٣١٦هـ (١٨٩٨م) ليحتل مكان الصدارة بين اخوانه العلماء والحكماء من اهل مصر ، ومن لاذ بديارهم فرارا من قبضة المستبدين الطغاة ، وليقترب بالتالى اكثر من مواقع المفكرين المصلحين الاسلاميين ، الذين ارتبط بهم على نحو سابق ارتباط التلميذ باساتذته الأوفياء الامناء ، امثال جمال الدين الافغانى ، ومحمد عبده ، وقد وجد (رحمه الله) فى الشيخ محمد عبده خير عزاء ، بعد ان فقدا كلاهما استاذهما الداعية الاسلامي الكبير جمال الدين الافغانى ، وقد اتاح له هذا الالتحام ، باستاذه الجليل (وريث الافغانى) الشيخ محمد عبده ، القيام بدور محمود في ميدان الاصلاح الدينى والاجتماعى والسياسي .. الخ . ليتفوق احيانا على استاذيه خصوصا فى علم الحديث . وقد شرع محمد رشيد رضا منذ اللحظة الأولى التى



الافغاني



محمد عبده

وطأ فيها أرض مصر جهادا متواصلا لا يهدأ ليلا أو نهارا ، موقفا وقته كله فى خدمة دينه ووفاء لمبادئه ، التى كانت هى نفس المبادىء التى جاهد فى سبيلها استاذاه الافغاني وعبده ، والرامية للتجديد والاصلاح الاسلاميين ... ومن اجل مواصلة المسيرة بقوة واندفاع الى الامام ، انشأ مجلة المنار ١٣١٦هـ (١٨٩٨م) بتوجيه من استاذه الشيخ محمد عبده صاحب التجربة الصحفية العريقة ، وقد حدد رضا اهداف مجلته بالشعار الذي صدر به الصفحة الاولى ووضعه تحت اسم المجلة مباشرة ، حيث يقول ان « المنار »: « مجلة اسلامية تبحث فى جميع شئون الاصلاح الدينى والمدنى والسياسي ، وتقوم بفريضتى الدعوة الى الاسلام ، والدفاع عنه ، وجمع كلمة المسلمين » . وبالجملة فقد اختط رضا لنفسه منهجا توفيقيا يجمع بين تجربته وتجربة استاذيه عبده والافغانى ، وبخاصة بعد ان فقد الآن كليهما وبقى في الميدان مثل السيف فردا .

وبعد وفاة الشيخ عبده استقل رضا تماما فى المنار ، وقادها على نفس الطريق الذي خطه استاذه الراحل ، فتطورت فى عهده حتى ذاع صيتها فى الخافقين ، وذاع معها صيته هو نفسه ، وصار يشار اليه بالبنان ، وتوج مفكرا دينيا ومصلحا اسلاميا موثوقا ، يحظى بمكانة عربية واسلامية عالية ، وقد عمل رضا من هذا الموقع المسئول كمفكر اسلامى سلفي حديث على صياغة نظرية اصلاحية تستند اساسا على الافكار التى استلهمها من استاذيه ، وتفضى

لايجاد حلول اصلاحية مستنبطه من العقيدة الاسلامية ، ليتمكن العالم الاسلامى من الصمود فى وجه التحديات التى تستهدف وجوده من الاساس ، خصوصا بعد انهيار صرح الدولة العثمانية ، واكتواء الامة بنار الاستعمار الغربى ومن ثم تحصينه ليقوى على احتواء اعصار الغزو الثقافي والعسكري ، عاملا فى نفس الوقت على ايجاد نظرية اسلامية اصلاحية ، قادرة على ان تفرض نفسها على اجيال الشباب الاسلامى المعاصر ، خصوصا مزدوجى الثقافة ، ومن ثم حمايتهم من النظريات والمؤثرات الاجنبية ، التى كانت تدق ابواب عالمنا العربى والاسلامى بقوه ، مثل الماركسية والرأسمالية والقومية والعلمانية .. الخ ..

لقد استطاع رضا بحق ان يفرض نفسه في اواخر سنى حياته زعيما من زعماء الاصلاح الحديث ، يلتف حوله صفوة من علماء الامة واساتذتها ومفكريها .. ومع انه استطاع ان يميز نفسه عن استاذيه الافغانى وعبده ، وتجاوزهما فى أكثر الاحيان فكرا واسلوبا وتصميما على بلوغ الاهداف ، الا أنه لم يستطع ان يفرض نفسه كصاحب مدرسة مستقلة بالفعل ، وظلت مدرسته الفكرية فى نظر اصدقائه وخصومه ، هي نفس المدرسة التى تخرج فيها الشيخ محمد عبده .

وبعد كفاح طويل ومرير انهكت فيه الروح والجسد ، اسلم الشيخ رضا روحه الى بارئها سنة ١٣٥٤هـ (١٩٣٥) ، بعد ان اضاف صفحات باقية خالدة الى صفحات تاريخ امته الاسلامية المجيدة ، وقد اجمع اساتذته وتلامذته وعارفو فضله على سعة علمه ، وعظيم خلقه ، وكريم خلاله ، ونبيل سجاياه .. هذا وقد خلف رضا تراثا علميا قيما ، يتجلى فى اثاره الحية « مجلة المنار » « وتفسير القرآن الحكيم » الذي كان قد بدأه الشيخ محمد عبده ، واثار جليلة اخرى ، ظهر فيها بكل وضوح نفسه الاسلامى الغيور ، ودقة الباحث الأمين مع اسلوب راق متميز وجهد مخلص موقوف لنفع الناس من ابناء الامة دون تمييز ، رحم الله الشيخ محمد رشيد رضا وجزاه عن امته خير الجزاء .

اعمالـــه

الكتب (والكراسات) :

- خلاصة لمسألة زيد وزينب ورد شبهه (القاهرة ١٣١٩هـ = ١٩٠١م) .
- شبهات النصارى وحجج الاسلام ، (القاهرة ١٣٢٢هـ = ١٩٠٤م) . طبعة ثانية دار المنار (القاهرة ، ١٣٦٧هـ = ١٩٤٧م) .
- محاورات المصلح من المقلد ،

(القاهرة ١٣٢٥هـ = ١٩٠٧م) .
- المسلمون والقبط والمؤتمر المصرى ، (القاهرة ١٣٢٩هـ = ١٩١١م) .
- عقيدة الصلب والفداء ، (القاهرة ١٣٣١هـ = ١٩١٢م) .

- فتويان من فتاوى المنار الاصلاحية (القاهرة ، ١٣٤٠هـ = ١٩٢١م) .
- الخلافة والامامه العظمى ، (القاهرة ١٣٤١هـ = ١٩٢٢م) نشرت اولا على حلقات فى المنار ، تجدها فى المجلدين ٢٣ ، ٢٤ .
- انجيل بارنابا ، (القاهرة ١٣٤٤هـ = ١٩٢٥م) .
- الوهابيون والحجاز ، (القاهرة ١٣٤٤هـ = ١٩٢٥م) .
- تفسير سورة يوسف ، (القاهرة ١٣٤٥هـ = ١٩٢٦م) .

- بالاشتراك مع محمد عبده ، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) في ١٢ جزءا ، (القاهرة ١٣٤٥هـ = ١٩٢٧م) (ط ٤) عن دار المنار بمصر (القاهرة ١٣٧٣هـ = ١٩٥٤م) .
- مجموعات التوحيد النجدية ، (القاهرة ١٣٤٦هـ = ١٩٢٧م) .
- الوحدة السياسية والاخوة الدينية ، (القاهرة ١٣٤٦هـ = ١٩٢٧م) (طبعة ثالثة ، دار المنار ، القاهرة ١٣٦٧هـ = ١٩٤٧م) .
- ترجمة القرآن وما فيها من مفاسد ومنافاة الاسلام ، (القاهرة ١٣٤٨هـ = ١٩٢٩م) .
- السنة والشيعة والرافضة ، فى مجلدين (القاهرة ١٣٤٨هـ = ١٩٢٩م) .
- تاريخ الاستاذ الامام محمد عبده ، ٣ مجلدات ، (القاهرة ١٣٥٠هـ = ١٩٣١م) .
- حقوق النساء فى الاسلام ، (القاهرة ١٣٥١هـ = ١٩٣٢م) ، طبعة جديدة صادره عن دار التراث الاسلامى ، (القاهرة ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م) .
- ايضاح مسألة معينة (القاهرة ١٣٥١هـ = ١٩٣٢م) .
- نداء الى الجنس اللطيف يوم المولد النبوى الشريف ، (القاهرة ١٣٥١هـ = ١٩٣٢م) (طبعة ثانية ، دار المنار ، القاهرة ١٣٦٧هـ = ١٩٤٧م) .
- الوحى المحمدى ، (القاهرة ١٣٥٢هـ = ١٩٣٣م) طبعة ثالثة ، دار المنار ، (القاهرة ١٣٥٤هـ = ١٩٣٥م) .
- تفسير سورة الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ، (القاهرة ١٣٥٣هـ = ١٩٣٤م) .
- ذكرى المولد النبوى ، (القاهرة ١٣٥٤هـ = ١٩٣٥م) .
- الفاروق عمر بن الخطاب ، (القاهرة ١٣٥٥هـ = ١٩٣٦م) .
- محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، (القاهرة ١٣٥٧هـ = ١٩٣٨م) .
- الامام علي بن ابي طالب كرم الله وجهه رابع الخلفاء الراشدين (القاهرة ١٣٦٦هـ = ١٩٤٦م) .

ـ خلاصة السيرة المحمدية وحقيقة الدعوة الاسلامية (القاهرة ١٣٦٦هـ = ١٩٤٦م) .

ـ يسر الاسلام في اصول التشريع العام ، (القاهرة ١٣٧٦هـ = ١٩٥٦م) .

ـ الاسلام والمدنية ، (بيروت ١٤٠٧هـ = ١٩٨٦م) .

المقالات :

توطئه :

كل المقالات المهمة التى كتبها محمد رشيد رضا فى حياته (وبخاصة في مصر) والتى تحتل عصارة جهده واجتهاده الاسلامى كانت في الاصل اسهاماته الفكرية الرائدة التى عبر عنها من خلال مجلته (المنار) التى جمعت فى ٣٥ مجلدا فى العام (١٣١٥ ـ ١٣٥٤هـ = ١٨٩٨ ـ ١٩٣٥م) (×) .

وقد ذكرنا فيما تقدم أهم أعماله التى نشرها في كتب أو كراسات مستقلة . وللفائدة العلمية المنشودة نصطفى هنا عددا محدودا من المقالات المهمة على سبيل المثال والتعريف بالكنز الاسلامى العظيم والتراث الباقي المتجدد الذي خلفه المغفور له الشيخ محمد رشيد رضا (رحمه الله) :

ـ « القول الفصل : محاورة فى سعادة الامة » في المنار المجلد ١ ، العدد ٢ ، (القاهرة ١٢١٦هـ = ١٨٩٨م) ، قارن كذلك المنار ، المجلد ٧ (١٣٢٢هـ = ١٩٠٤م) ، ص ٥٧٤ .

ـ « مدنية العرب » ، في المنار ، المجلد ٣ ، (القاهرة ١٣١٨هـ = ١٩٠٠م) ص ٢٨٩ ـ ٢٩٤ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ، ٣٨٥ ، ٣٩١ ، ٩٠٩ ، ٩١٤ ، ٥٢٩ ، ٥٣٥ .

ـ « الترك والعرب » ، في المنار ، المجلد ٣ ، (القاهرة ١٣١٨هـ ـ ١٩٠٠م) ص ١٦٩ ـ ١٧٢ ، ١٩٣ ـ ١٩٨ .

ـ « بحث فى المؤتمر الاسلامى » ، فى المنار ، المجلد ١٠ (القاهرة ١٣٢٥هـ = ١٩٠٧م) ، ص ٦٧٣ ـ ٦٨٢ .

ـ « فاتحة السنة الثانية عشرة » ، في المنار ، المجلد ١٢ ، (القاهرة

(×)بعد وفاة الشيخ محمد رشيد رضا (رحمه الله) استانف الاستاذان محمد شفيع رضا ومحيى الدين رضا اصدار المجلة ، وترجح بعض المصادر ان جماعة الاخوان المسلمين اشتروا امتياز حق النشر بنفس الاسم ، وتؤكد فهارس دوريات دار الكتب في القاهرة ، ان « المنار » استمرت في الصدور بعد هذا التاريخ المشار اليه ، وتحتفظ الدار بمجموعة مجلدات « المنار » من سنة ١٨٩٨م وحتى سنة ١٩٤٠ . للمزيد انظر الدراسة التى اجرتها جريدة الشرق الاوسط حول الدوريات الاسلامية منذ بدء صدورها وحتى اليوم ، العدد ٣٨٦١ ، ٢٤ حزيران (يونيو) ١٩٨٩ = ١٤٠٩هـ ، ص ٢٣ ـ ٢٤ .

١٣٢٧هـ = ١٩٠٩م) ، ص ١ - ١٥ .

- « الاصلاح والدعوة الى الوحدة » ، في المنار ، المجلد ١٢ ، (القاهرة ١٣٢٧هـ = ١٩٠٩م) ص ٧٤٢ .

- « المسألة العربية » في المنار ، المجلد ٢٠ (القاهرة ١٣٩١هـ = ١٩٧١م) ص ٣٣ - ٤٧ .

- « الحالة السياسية العامة في مصر » ، في المنار ، المجلد ٣٠ (القاهرة ١٣٤٦هـ = ١٩٢٧م) ، ص ١٤٥ - ١٤٧ .

اعماله المترجمة :

Translations

Al-Khilafa wa al-Imama al-Uzma¯, Fr. trans, Le Califat dans la doctrine de Rashid Rida¯ by H. Laoust, (Beirut, 1938).

'Islam and the National Idea', in S. Haim, Arab Nationalism: An Anthology, (Los Angeles and London, 1962), pp. 75-77.

دراسات عن محمد رشيد رضا بالعربية

الكتب :

- احمد ابراهيم العدوى : رشيد رضا الامام المجتهد ، (القاهرة ١٣٨٤هـ = ١٩٦٤م) .

- احمد الشرباصي : رشيد رضا صاحب المنار ، عصره وحياته ومصادر ثقافته ، المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ، الكتاب ٥٨ (القاهرة ١٣٨٩هـ = ١٩٧٠م) .

- حسيب السامرائي : رشيد رضا المفسر ، مطبعة جامعة بغداد ، (بغداد ١٣٩٧هـ = ١٩٧٦م) .

- السيد احمد رجب : مكانة المرأة في تفسير المنار ، رسالة دكتوراه ، كلية الاداب ، جامعة عين شمس ، (القاهرة ١٤٠٢هـ = ١٩٨١م) .

- شكيب ارسلان : السيد رشيد رضا وإخاء اربعين سنة ، (دمشق ١٣٥٦هـ ١٩٣٧م) .

- عاهدة فخر الدين : الامام محمد رشيد رضا والصهيونية ، رسالة ماجستير ، الجامعة اللبنانية ، (بيروت ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م) .(××)

- فهد الرومي : منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ، مؤسسة

(××) انتحل انيس الابيض جزءا من هذه الرسالة ونشرها تحت نفس عنوان الرسالة «الامام محمد رشيد رضا والصهيونية» ، في مجلة الامة القطرية ، العدد ١٩ ، ايار (مايو) (١٩٨٢م = ١٤٠٣هـ) ص ٣٢ - ٣٨ . وقد تداركت المجلة الامر ونبهت عليه في افتتاحية العدد ٢٧ ، ك ٢ (يناير) (١٩٨٣م = ١٤٠٤هـ) ص ١ .

راجع ايضا : F.T.Mukbil,op,cit.,p.220,n.4

الرسالة ، (بيروت ١٤٠١هـ = ١٩٨١م) انظر هنا ص ١٧٠ - ٢٠٨ .

- محمد الصالح المراكشي : محمد رشيد رضا - من خلال مجلة المنار (١٨٩٨ - ١٩٣٥) اطروحة دكتوراه دولة في الاداب ، مقدمة لكلية الاداب والعلوم الانسانية بجامعة تونس ، (تونس ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م) .

- وجيه كوثراني (تقديم ودراسة) : مختارات سياسية من مجلة « المنار » لرشيد رضا ، دار الطليعة ، (بيروت ١٤٠١هـ = ١٩٨٠م) .

- يوسف ايبش (جمع وتحقيق) : رحلات رشيد رضا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، (بيروت ١٣٩١هـ = ١٩٧١م) .

المقالات :

- في الشرق الاوسط (جريدة) : « العروة الوثقى على رأس قائمة من الدوريات نصفها توقف عن الصدور - ٢٠٠ جريدة ومجلة اسلامية صدرت في العالم منذ عام ١٨٨٤م » - في العدد ٣٨٦١، ٢٤ حزيران (يونيو) (١٩٨٩م = ١٤٠٩هـ) . دراسة صحفية تتضمن قائمة بالدوريات الاسلامية منذ بدء صدورها وحتى اليوم .

- عبدالهادي بو طالب : « المغرب كان مهيئا بطبعه لتقبل فكرة السلفية وكثير من علمائه تميزوا بالجهر بالعودة إلى الاصول الاسلامية » ، من كتابه ذكريات وشهادات ووجوه ، تنشره على حلقات جريدة الشرق الاوسط ، العدد ٣٤٧٣ (١ حزيران) (يونيو) (١٩٨٨م = ١٤٠٨هـ) ص ١٦ .

- محسن عبدالحميد : « موقف صاحب المنار من المفسرين » في مجلة كلية الاداب ، جامعة بغداد ، العدد ١٣ (بغداد ١٣٩٠هـ = ١٩٧٠م) .

- ياسر فرحات : « مطلوب انقاذ التراث الاسلامي : الخطر يهدد تراث محمد عبده ورشيد رضا » ، في الشرق الاوسط العدد ٣٤٨٩ ، ١٧ حزيران (يونيو) (١٩٨٨م = ١٤٠٩هـ) .

دراسات عن محمد رشيد رضا بلغات اجنبية

رابعا :

(أ) الكتب :

a. Books

Badawi, Zaki.
The Reformers of Egypt - A Critigue Al-Afghani, ᶜAbduh and Ridha, (The Muslim Institute Papers, 2, Slough, U.K. 1976), esp. pp. 47-71.

Hourani, Albert
Arabic Thought in the Liberal Age, 1798 - 1939, (London, 1962), esp. pp. 222-244.

Kerr, N.G.
Muhammad ᶜAbduh and Rashid Rida, Ph.D. thesis, J. Hopkins University, (Washington, 1958).

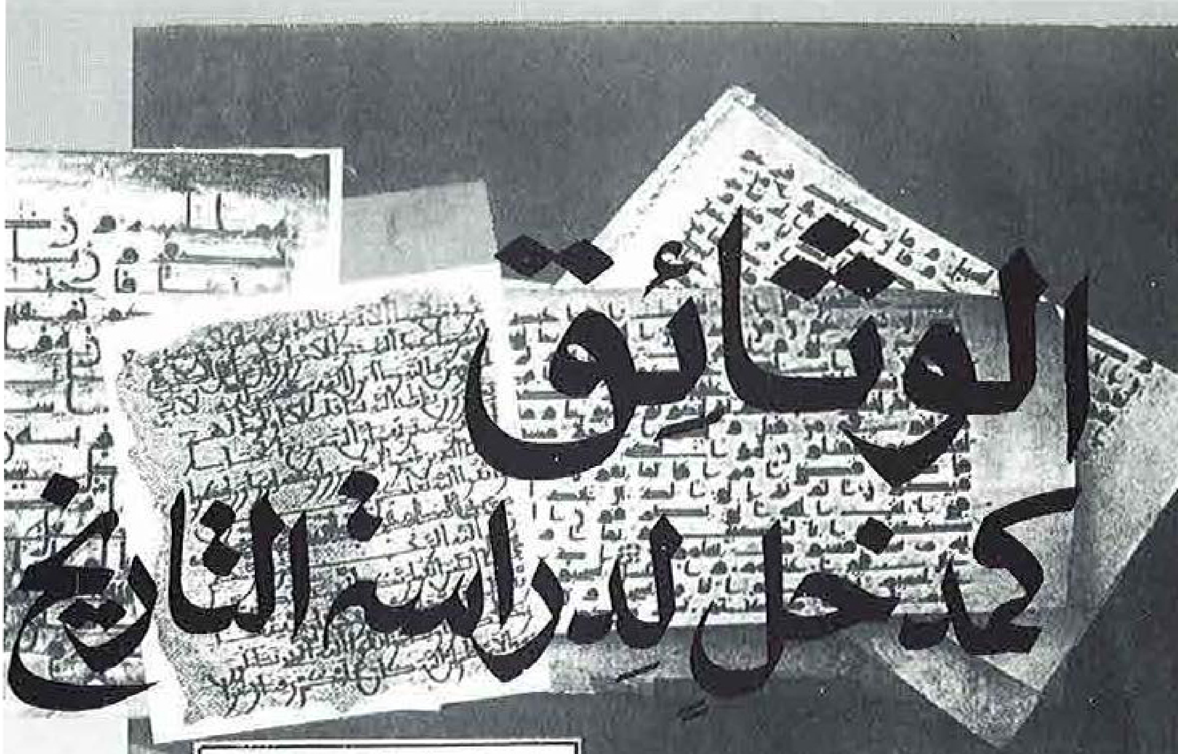
Rida''s Relations with Jama¯al al-Di¯n al-Afgha¯ni¯ and Muhammad Abduh', in The Muslim World, lxvi, (1976), pp. 272-286.

Kerr, M.H.
'Rashi¯d Ri¯da and Islamic Legal Reform: An Ideological Analysis', in The Muslim World, 1, (1960), pp. 109-118 and 170-181.

Kerr, N.G.
Islamic Reform: The Political and Legal Theories of Muhammad Abduh and Rashid Rid¯a, (California, 1966).

b. Articles

Busool, A. Nimr.
'Shaykh Muhammad Rashi¯d



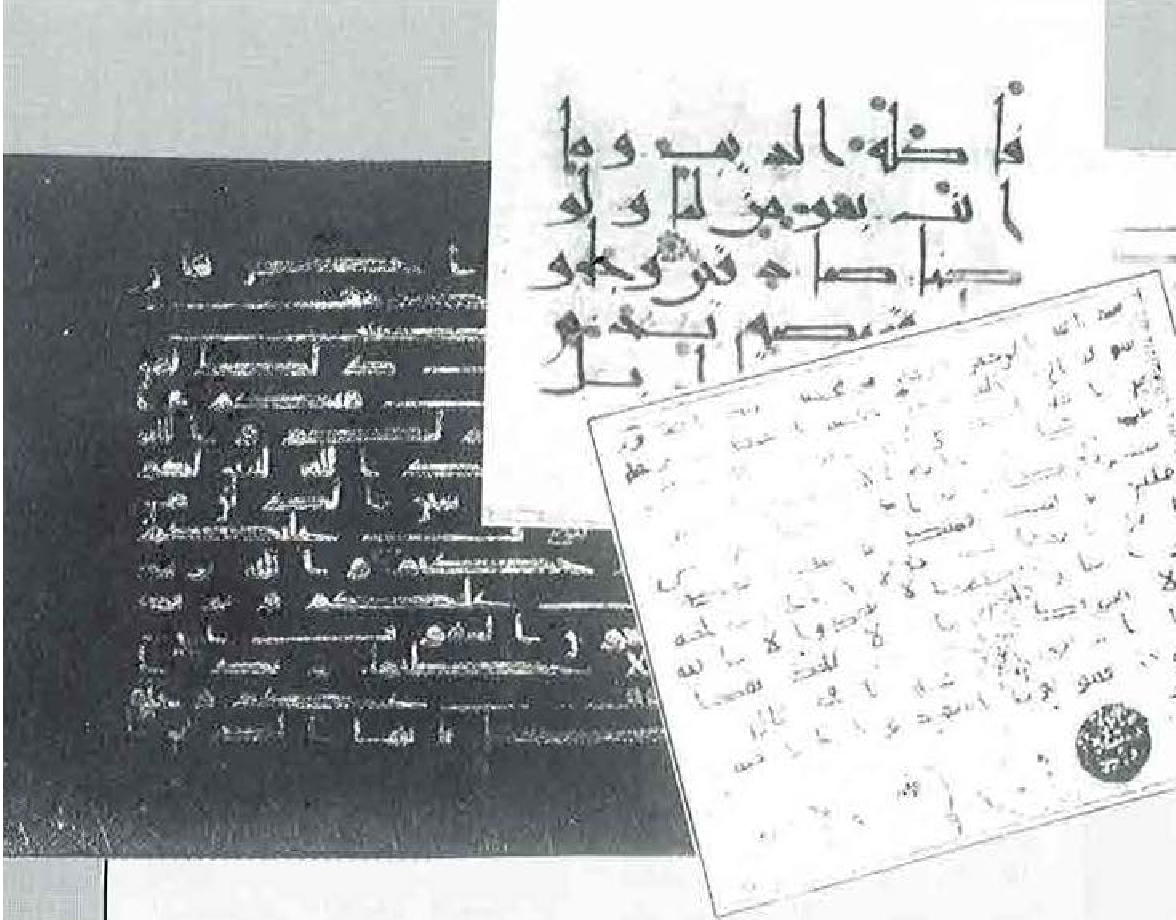
الوثائق كمدخل لدراسة التاريخ

د. خيرى علي ابراهيم

دراسة تجريبية

من الأمور الهامة لجعل التاريخ مجديا وقريبا من تفكير انسان اليوم الذي لم يعش ذلك الماضي الذي يتحدث عنه التاريخ.. ان نسبغ على الماضي في المجتمع أو المجتمعات الانسانية جسرا من الحقيقة التي يشعر بها القارىء أو الدارس للحقائق التاريخية حتى يستطيع فهم المجتمع وطبيعة التغير ويقف على القوى المؤثرة فيه والمشكلات التي يواجهها لأن هذا الماضي هو الأساس والاستمرار الذي يقوم عليه الحاضر. فكلما أدرك الانسان واقع مجتمعه والمجتمعات المعاصرة وتاريخها الماضي أدى ذلك لا الى تفسير الماضي فحسب وانما لفهم الماضي الذي لا يزال ممتدا في الحاضر من حياتنا. وليس هذا شأن المجتمعات فقط وانما هو شأن الافراد فالفرد يستفيد من خبرته الماضية لكي يواجه موقفا جديدا من حاضره وسلاحه في ذلك ذاكرته التي تدرك المواقف الماضية المتشابهة مع الحاضر.

والمجتمعات مثل الأفراد.. فكما ان الفرد عدته ذاكرته في ادراك الماضي ليتوافق مع الحاضر.. فالتاريخ هو سلاح المجتمع وعدته لفهم الحاضر وتفسيره. فالنظم الحكومية والقوانين والأفكار والعادات والتقاليد المختلفة وأساليب حياة الأفراد وعلاقاتهم الاجتماعية وجميع مظاهر حياتهم في الوقت الحاضر لا يمكن فهمها فهما صحيحا الا في ضوء تاريخ تلك النظم



والعلاقات في المجتمع في العصور الماضية (**عبدالحميد السيد**).

ويتضح من ذلك القول أن أى مشكلة سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية يواجهها المجتمع في العصر الحاضر لابد من القاء الضوء عليها من نافذة تاريخها الماضي لمعرفة أصولها والطرق التى يمكن بها معالجة هذه المشكلة.

كذلك فان تفسير الحاضر على ضوء الماضي يساعد كثيرا بل هو الأساس في التخطيط للمستقبل سواء كان للفرد أو المجتمع.

ودراسة التاريخ من الوثائق تعد جسرا لفهم الماضي ويساعد على تهيئة الفرد لفهم التاريخ وتفسيره للحاضر الذي يعيش فيه على ضوء الماضي.. وبذلك تعين الوثائق التاريخية دارس التاريخ على تذوق المدنية والحضارة التى يتمتع بمزاياها ويقاسى من عيوبها، كما أنه يخرج بالتاريخ من ظاهرة الجمود واللاوظيفية في حياتنا كما يدعي البعض (**أبو الفتوح رضوان**).

فالوثائق تجعل دراسة التاريخ حيوية لأنها تنقل القارىء أو الدارس الى مواقع الأحداث فيتعرف على الحقائق ويستقر في ذهنه وقائع التاريخ في عصور ما قبل التاريخ مثلا.. فالوثائق تضفى على التاريخ حقيقة يلمسها الفرد لأن التاريخ لا يُرى ولا يُلمس كالظاهرة الجغرافية أو الظاهرة الاقتصادية (**رضوان ٢**).

ومن ناحية أخرى فإن الوثائق في دراسة التاريخ بها من المادة العلمية والأثرية ما يساعد على إثارة التفكير مما يجعل دارس التاريخ أو القارىء في مكان المؤرخ فيقف على طرقه في التحقيق ومهاراته في الاستنباط ووسائله في النقد والحكم على الأحداث والشخصيات.

وثائق دراسة التاريخ :

قد يعتقد البعض أن وثائق التاريخ هي تلك القطع من الآثار المكتشفة في مناطق ظهور الحضارات القديمة، أو نصوص المعاهدات والمراسلات بين الدول في العصور المختلفة، وذلك يتناول :

١ ـ نصوص المكاتبات الرسمية أو التقارير التى تنشرها الدولة في فترة معينة، وتشمل النصوص أيضا تلك المكتوبة على قطع الآثار والمخطوطات ونصوص المعاهدات بين الدول والأفراد وأصحاب المسئولية من نظم الحكم. أما عن الشق الأول وهو نصوص المكاتبات الرسمية للدولة، فانها تعنى العلاقات بين الدولة وغيرها من الدول في الخارج.. وتتمثل في المراسلات التى توضح اتجاهات وسياسة الدولة وما يمر بها من أزمات أو فترات رواج أو أحداث تاريخية بعينها، وقد تكون تلك المراسلات أو المعاهدات سرية فتحتفظ بها الدولة ولا تعلنها.. وقد تكون غير ذلك فتنشرها وتذيعها فتصبح وثيقة من وثائق دراسة التاريخ، ومن الجدير بالذكر ان بعض الدول العظمى التى كونت امبراطوريات في التاريخ ولها علاقات وثيقة وتاريخية مع الدول التى استعمرتها قد أثرت الاحتفاظ بنصوص اتفاقياتها ومعاهداتها ومراسلاتها بصورة سرية مدة طويلة من الزمان.. الا أنها بعد زوال سيادتها ونهاية عصور الامبراطوريات اذاعت ما لديها من وثائق في هذا الشأن مما أثرى المكتبة التاريخية.. نذكر من ذلك ان انجلترا قد أعلنت توفير وثائق الامبراطورية البريطانية في القرنين التاسع عشر والعشرين، كما أتاحت تركيا فرصة الاطلاع على وثائق الامبراطورية العثمانية.. وقد أفاد المؤرخون من ذلك الأمر فخرجت علينا دراسات تاريخية جديدة من واقع الوثائق والنصوص التى كانت سرية في وقت من الأوقات.. من ذلك ما كتبه المؤرخون عن «الصهيونية» من وجهة النظر البريطانية، والعلاقات العربية مع الدولة العثمانية من واقع وثائق الامبراطورية العثمانية.

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نذكر بعض الجهود المخلصة في مجال حفظ الوثائق والنصوص عن طريق دور الحفظ الخاصة والعامة والارشيفات والأجهزة الحديثة مثل الكمبيوتر والميكروفيلم، وفي معظم الدول اصبحت تلك الوسائل من مظاهر التقدم والحضارة وجميعها اصبحت تحت تصرف الباحثين والدارسين

للتاريخ هذا الى أننا - في كثير من الأحيان - نجد كتبا ارشادية أعدت بعناية وفهارس شاملة ودقيقة وأجهزة تصوير الوثائق مما ساعد على اتساع نطاق توزيع وتبادل وحفظ الوثائق حتى لا تتعرض للتلف، ولعل في ذلك كبير الأثر في دراسة التاريخ باستخدام الوثائق والنصوص.

أما عن الشق الثاني وهو النصوص المكتوبة على قطع الآثار والمخطوطات وأهميتها في دراسة التاريخ فنستطيع ان نتناوله من ناحيتين :

أولا : النصوص المكتوبة على قطع الآثار

كشفت لنا النصوص المكتوبة على قطع الآثار تاريخ الفترة الطويلة التى سبقت عهد الانسان بالكتابة والتى يسميها المؤرخون بفترة ما قبل التاريخ، وهي فترة أطول بكثير من عصر التاريخ المدون، ولها نفس الأهمية من حيث حضارة الانسان وما حققه من تطور في جميع نواحي حياته حتى يستطيع تحقيق التكيف مع البيئة التى يعيش فيها وقد زودتنا نصوص ووثائق الآثار بعرض للأدوات الثقافية للانسان والتى استخدمها في نفس الوقت الذي تجمع عليه أراء المؤرخين بأنه تاريخ ظهور الانسان على سطح الأرض. وتذهب النصوص المدونة على بعض الوثائق الدينية الى ان ظهور الانسان تم يوم الجمعة سنة ٤٠٠٤ ق.م **(تاريخ الكتابة التاريخية - ترجمة محمد عبدالرحمن برج - مراجعة: سعيد عبدالفتاح عاشور)**.

ويستنبط يوم الجمعة مما ورد في القران الكريم من تكريم وتعظيم ليوم خلق الانسان : ﴿يايها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ صدق الله العظيم سورة الجمعة - (**آية ٨**).

والكتابة على الآثار قد تكون كتابة بآلة حادة مثل المسمار على ألواح من الطين التى يتم معالجتها في أفران حتى تجف وتثبت الكتابة عليها، وهذا ما اشتهرت به حضارة الرافدين القديمة وانتقلت بعد ذلك الى المناطق المجاورة في حضارة دلمون والحضارة الفينيقية ببلاد الشام.

ومن الآثار المكتشفة في حضارة دلمون القديمة حجر ديوراند الذي اكتشفه الكابتن البريطاني ديوراند عام ١٨٧٩م في البحرين، والذي أزاح الستار عن طريق ما كتب عليه من نصوص تاريخية عن موقع حضارة دلمون، فالوثائق التى يذكرها هذا الحجر والمدونة بالنقش المسمارى تقول «قصر ريموم خادم أنزاك اله أجاروم» ويحمل النقش سعفه نخيل ولعلها هي رمز الآلة أنزاك الذي ربما كان هو اله النخيل في دلمون.

القيمة العلمية للوثائق المدونة على الآثار :

اذا فحصنا عن معنى كلمة «آثار» في اللغة العربية لوجدنا أنها تشير الى كل ما خلفه الانسان القديم من آلات وأدوات واشارات ورموز تدل على أعماله وحضارته وتصرفاته وحياته في المجتمع.

ومن هنا تأتي أهمية النصوص والوثائق المدونة على قطع الآثار، فكل رمز منها أو حرف أو اشارة يدل على معنى نستطيع بواسطته التعرف على حياة الأسلاف، وتكمن أهمية الوثائق الأثرية في أنها حفظت لنا حضارة الأقدمين عبر السنين حتى عصرنا الحاضر.

ومن هنا تتضح الأسباب التي جعلت الدول تسلك السبل للكشف عن آثارها ومعناها والحفاظ عليها من التلف فأقامت لها المتاحف ودور العرض وتوصلت الى الطرق التي تحافظ بها على تلك الآثار التي تعتبر واجهة الدولة الحضارية في أعماق التاريخ.

واذا تطلعنا الى حضارة البحرين القديمة كمثال لأهمية الوثائق المدونة على الآثار نجد ان هناك بعض النقوش المسمارية ترجع الى عام ٢٥٠٠ ق.م. في بلاد ما بين النهرين تؤكد ان سفن دلمون (البحرين) كانت تنقل الأخشاب من أراض أجنبية الى أرض دلمون كما كانت هذه السفن تحمل التمور والنحاس كتجارة لها في البلاد التي تطل على البحار البعيدة.

من هذا النص المسماري نستطيع ان نتعرف على حضارة دلمون كأهم مركز للتجارة القديمة في منطقة الشرق حيث كانت من الموانىء الهامة التي ترسو فيها السفن للتزود بالماء والطعام ونقل التجارة منها واليها.

كما تذهب النقوش المسمارية أيضا الى ذكر أرض دلمون وتصفها بأرض الخلود أو الشباب الأبدي وبأنها أرض المياة العذبة كما أنها تنتج الحبوب.. وتعود وتصفها بأنها ميناء العالم.. ان هذه الوثائق الأثرية تلقي الضوء على حضارة دلمون في تاريخ الشرق الأدنى القديم، ومن وجهة النظر التربوية نستطيع ان نضمن كتبنا المدرسية بعض النصوص والوثائق التي تحكي تاريخ حضارة دلمون بدلا من السرد التاريخي للأحداث والوقائع التاريخية.. وأهمية ذلك بالنسبة لدارس التاريخ هي انه يستنتج من الوثائق الأحداث التاريخية مما يجعل من التاريخ مادة علمية تقوم على الفحص والتفسير والاستنتاج مما يضفي على التاريخ الحيوية المطلوبة لدراسته.

فكم من الفائدة تتحقق لو تضمن الكتاب المدرسي أسطورة جلجامش الآتية :

«فقد جلجامش صديقه أنكيدو، ثم بدأ يفكر في الخلود فاستشار بعض

الحكماء في مملكته فأشار عليه أوتنابشتيم بالسفر الى دلمون. وبعد سفر شاق طويل وصل الى دلمون وهناك غاص في مياهها العميقة كما يغوص الغواصون للحصول على المحار، وانتزع زهرة الخلود من أعماق البحر في دلمون، وبينما هو مستلق من عناء التعب.. جاءت الحية وسرقت منه سر الخلود»

من النص الوثائقى السابق لأسطورة جلجامش يمكن ان نلقى الضوء على حضارة دلمون ونستنتج الحقائق التاريخية الآتية :

١ ـ كانت دلمون تشتهر بأنها أرض الخلود.

٢ ـ كانت تتوفر في دلمون المياه العذبة.

٣ ـ كان يعمل أهل دلمون بالغوص لصيد الأسماك والمحار.

٤ ـ اشتهرت دلمون بأنها أرض الزراعة.

ويمكن لدارس التاريخ ان يستنتج بعض القيم الأخلاقية التى يشملها النص الوثائقي، فالتاريخ ليس الهدف منه تسجيل الوقائع التاريخية ولكن الى جانب ذلك فان فيه عظة وعبرة نستنتجها أيضا من تلك الوقائع.. وحيث أن تربية النشء تحتاج الى تكامل البناء التعليمي للمساهمة في اعداده وتربيته جسمانيا وعقليا واجتماعيا ونفسيا فإن القيم التى نستنتجها من التاريخ يجب أن تساهم ايجابيا في هذا المجال. ومن أسطورة جلجامش السابقة نستطيع ان نستنتج القيم الأخلاقية الآتية :

١ ـ الوفاء للأصدقاء.. فقد كان جلجامش وفيا لصديقه انكيدو.. وعندما فقده حزن عليه حزنا عميقا.. ثم استشار بعض الحكماء في مملكته لكى يكتب له الخلود.

٢ ـ الخلود.. والحياة الخالدة.. تكون بأعمال الخير.. والابتعاد عن الشر والأذى للآخرين.

٣ ـ العمل ضروري للانسان لكي يعيش.. الغواصون عملهم شاق.. ولكن العمل حياة البشر.

فدراسة التاريخ باستخدام مدخل الوثائق يحيى الماضي ويسبغ عليه صفة الحقيقة، كما أنها تجعل دارس التاريخ يفكر ويضع نفسه مكان المؤرخ، فيقف على طرقه في تحقيق الوقائع ومهاراته في الاستنباط ووسائله في النقد والحكم على الأحداث والشخصيات.. فيستخلص العظات والعبر التى ننشدها من دراسة التاريخ وتستقر في ذهنه وشخصيته وتصرفاته بعض صفات الذين أعجب بهم من الشخصيات الوطنية أو الدينية أو الاجتماعية ويسلك سبلهم وقيمهم في الحياة والمجتمع.. وفي نفس الوقت ينأى عن صفات البعض الآخر وتصرفاتهم وأعمالهم اذا كانت بعيدة عن السلوك القويم والصفات الحميدة التى تتطلبها الحياة والمجتمع فتتكون لديه القيم الرشيدة من دراسة التاريخ.

ثانيا: النصوص المكتوبة في المخطوطات

هي كل ما تناوله السلف من مواد علمية أو اجتماعية أو انسانية بالمناقشة والتحليل أو التسجيل عن طريق الكتابة بخط اليد بالمداد أو الوسائل الأخرى التى كانت تستخدم في ذلك الأمر.. ويكون ذلك على الورق سواء كان الورق بالمعنى المعروف في الوقت الحاضر أو الورق الذي كان يعرف في الزمن القديم مثل ورق البردى عند قدماء المصريين وقطع الأديم أو الرق أو الجلد عند العرب في العصور الأولى للاسلام، أو الكتابة على قطع الحجر أو الأشكال والتماثيل كما في قطع الآثار المكتشفة.

وكانت ظروف المجتمع في السابق تستدعى ان يقوم المؤلف باملاء ما يريده من مادة علمية على شخص آخر يقوم بالتدوين والكتابة ليحفظه من الضياع ويكون أيضا وسيلة لنشر أفكار المؤلف على الناس.

فالمخطوطات هي موروثنا الحضاري الذي يكشف ما كانت عليه الأمة من تقدم وازدهار في مختلف حقول المعرفة. فهى الوعاء الذي حفظ لنا القيم والمفاهيم والعلوم والمعارف والفنون والآداب، وهى نتاجات العقل العربي الاسلامي في العصور المختلفة.

وأول مخطوط عُرف في التاريخ العربي هو القرآن الكريم.

ومع ازدهار الحضارة العربية الاسلامية ازدهر المخطوط العربي وانتشرت حركة التأليف والترجمة لاتساع النشاط الفكرى والثقافي مما أدى الى نسخ آلاف الكتب (المخطوطات) في مختلف ميادين العلم والفن والمعرفة.

القيمة العلمية للمخطوطات :

تمثل المخطوطات قيمة هامة في مجال العلوم والفنون والآداب لأنها امتداد للحضارة والتقدم التكنولوجي في الوقت الحاضر او هى أساس ذلك التقدم الذي أخذ منها واستطاع تطويرها الى الدرجة التى وصلت بها الينا في العصر الحديث.

وقد وصل الينا الكثير من المخطوطات لأساطين المفكرين والعلماء العرب، واستطاع العالم المتمدين الافادة منها وتطوير أفكارها.

ومن الأمثلة على ذلك مخطوط كتاب «القانون» في الطب لابن سينا، ومخطوط «الحاوى في علم التداوى» لأبي بكر الرازى، ومخطوط ابن النفيس والحسن بن الهيثم وغيرهم من علماء العرب.

ومن الجدير بالذكر ان تسجيل الوقائع التاريخية في مخطوطات قد بدأ منذ بداية القرن الثاني الهجري وتتمثل قيمتها في أنها سجلت لنا الوقائع والأحداث التاريخية من

مصادرها الأصلية، وفي زمن حدوثها وقد أفاد المجتمع الانساني من هذه المخطوطات لأنها لم تكن دراسة تاريخية فقط وانما ألقت الضوء على النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية ومن أمثلة ذلك ما دونه تقى الدين المقريزى المؤرخ الاسلامي في مخطوط عنوانه «اغاثة الأمة بكشف الغمة». **(حققه وشرحه : جمال الدين الشيال - عام ١٩٦٢)** وفيه تصوير وتسجيل لأحوال المجتمع المصري في نهاية العصر الفاطمي وما تعرض له من مجاعة وأحوال اقتصادية سيئة وتفكك سياسي مما أدى الى زوال الدولة الفاطمية.

وفي مجال التاريخ الحديث رأينا من عاصر الأحداث والوقائع التاريخية وسجلها في وقت حدوثها فكانت صورة صادقة للكتابة التاريخية، ومن ذلك ما كتبه عبدالرحمن الجبرتي في مخطوط بعنوان «مظاهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس» ودون فيه أحوال المجتمع المصري في زمن الحملة الفرنسية وسجل الوقائع والأحداث التى شاهدها من نضال أو كفاح وثورات ونظم. وترجع الأهمية العلمية للمخطوطات أيضا الى أنها تحفظ لنا التراث العقائدى والديني، فالبعض من أساطين الفقه والعقيدة دونوا معتقداتهم وتفسيراتهم ومجمل أرائهم في مخطوطات حفظها الأبناء عن الآباء وتوارثها هؤلاء عن السلف.

دور الدولة في الحفاظ على المخطوطات :

تهتم الحكومات بتراثها الحضاري والثقافي، وتعتبر من ركائز هذا التراث، ولهذا فانها تعمل على الحفاظ عليها من التلف أو الضياع ونقلها وطباعتها أو تحقيقها وشرحها والتعليق عليها بواسطة المتخصصين والعلماء.

وقد ظهرت منذ نهاية الحرب العالمية الأولى دور الحفظ للمخطوطات والارشيفات، وتقوم هذه الدور بتنظيم المخطوطات وجدولتها وفهرستها ومعالجتها كيماويا حتى لا تتعرض للتلف أو زوال مادة الكتابة، وقد أصدرت معظم دور الحفظ نشرات ارشادية مطبوعة للتعريف بالمخطوطات وتلخيص المادة العلمية المدونة عليها حتى يمكن للباحثين الاطلاع عليها بسهولة والافادة منها في مجالات البحوث المختلفة.

ومن الجدير بالذكر انه في ميدان الاهتمام بالمخطوطات العربية انشأت جامعة الدول العربية «معهد المخطوطات العربية» وهو يضم معظم التراث العربي والوثائق الرسمية للدول العربية.

كما أفادت الدول في العصر الحاضر من التطور التكنولوجي في مجال حفظ المخطوطات والوثائق، فاستخدمت أجهزة الكمبيوتر لحفظ مادة المخطوطات وما تحتويه من معلومات كما تقوم أجهزة الميكروفيلم بتصغير

وحفظ المعلومات التى تشملها المخطوطات بطريقة منظمة، وبذلك تضمن الدولة عدم تلفها أو زوال المادة المكتوبة عليها بفعل الزمن.

وقد أنشأت معظم الدول أجهزة رسمية للحفاظ على التراث الثقافي والحضاري متمثلا في ادارات الثقافة والتراث بوزارات الاعلام لرعاية كل ما يتعلق بالتراث الثقافي والحضاري **والى جانب المخطوطات فهناك مصادر أصلية أخرى للتاريخ منها :**

١ سير الزعماء والقادة العسكريين، وهؤلاء لهم دورهم في التاريخ، وقد استطاع بعض الباحثين تعقب دورهم في التاريخ ودونوا سيرهم وأعمالهم في مؤلفات خاصة تناولت كل ما يتعلق بهؤلاء الزعماء.. ومن أمثلة ذلك سلسلة العبقريات التى ألفها الأديب عباس محمود العقاد وتناولت حياة قادة المسلمين من الرسول محمد ﷺ الى أبى بكر وعمر وعثمان وعلي رضى الله عنهم جميعا.

كذلك كتابات المؤرخين التى تناولت الشخصيات الوطنية وسيرهم من أمثال المؤرخ عبدالرحمن الرافعي ومؤلفاته عن أعمال وسير الزعماء محمد فريد، ومصطفى كامل وسعد زغلول في التاريخ الوطني المصري.

٢ ـ المذكرات الشخصية لبعض المسئولين، فقد يكتب أحد الزعماء مذكراته فتصبح وثيقة للتاريخ بما تحويه من وقائع وأحداث هامة، ومن امثلة ذلك ما كتبه زعيم النازية «أدولف هتلر» في كتابه «كفاحى» الذي تناول فيه مذكرات شخصية شملت نواحى تاريخية عن فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) والثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥).

٣ ـ كتابات الرحالة الذين سجلوا عادات الشعوب وتقاليدهم وما شاهدوه في رحلاتهم، مثل رحلة ابن بطوطة والادريسى والمسعودى وكتابات مكتشفى منابع النيل في القرن التاسع عشر.. وكلها وثائق للدراسة والمناقشة.

فعالية استخدام مدخل الوثائق في تحصيل التاريخ :

قام الباحث بتجربة تدريس التاريخ باستخدام مدخل الوثائق التاريخية لقياس تحصيل الطلاب المادة التاريخية من العام الدراسي ١٩٩١/٩٠. فعقد لقاءً تربويا مع معلمى المواد الاجتماعية، ووزع عليهم ورقة عمل تحتوى على نصين من الوثائق التاريخية، وشرح لهم الهدف والأسلوب الذي يمكن ان يتبع في تدريس التاريخ باستخدام مدخل الوثائق التاريخية.

الوثيقة الاولى لكاتب لاتينى مجهول الاسم كان مصاحبا للحملة الصليبية الثالثة على الشرق العربي بقيادة ريتشارد (قلب الأسد) ملك انجلترا.

والوثيقة الثانية للكاتب العربي : عماد الدين الأصفهاني - كاتب صلاح الدين الأيوبى في الحروب الصليبية.

وهذا الموضوع «الحروب الصليبية على الشرق العربي» أحد الموضوعات المقررة على طلاب الصف الثاني الاعدادى ويتناوله الكتاب المقرر ص ١٠٧.

تم اختيار فصول تجريبية (٨٠ طالبا) وفصول ضابطة (٨٠ طالبا).

والفصول التجريبية قام فيها المعلمون بتدريس الموضوع باستخدام مدخل الوثائق التاريخية طبقا لورقة العمل واللقاء التربوي، أما الفصول الضابطة فاستخدم المعلمون الطريقة العادية في التدريس.

وبعد نهاية تدريس الوحدة (ثلاث حصص) تم تطبيق اختبار تجريبي على الطلاب لمعرفة تحصيلهم التاريخي للموضوع.

جدول رقم (١)

مجموعة تجريبية		مجموعة ضابطة		الفرق بين المتوسطين	قيمة ت	مستوي الدلالة
متوسط	انحراف معياري	متوسط	انحراف معياري			
٦١,٠٣	٩,٠٧٥	٣٨,٦	١١,٠١٦	٢١,٢٥١	٩,١٨	دال عند مستوي ٠٥ ٪

المتوسط الحسابي والانحراف المعيارى وقيمة (ت) عند طلاب المجموعتين التجريبية والضابطة في الاختبار.

ويتضح من الجدول رقم (١) أن قيمة (ت) دالة احصائيا عند مستوى ٠,٠٥ وهذا يعنى وجود فروق حقيقية بين المجموعتين في الاختبار لصالح المجموعة التجريبية ومن ذلك يمكن الاستنتاج ان الطلاب الذين درسوا باستخدام مدخل الوثائق التاريخية تفوقوا على الطلاب الذين درسوا بالطريقة العادية في اكتساب وتحصيل المعلومات التاريخية والمفاهيم الواردة في موضوع الدرس.

ويمكن تفسير ذلك بأن استخدام

مدخل الوثائق التاريخية أضفى على موضوع الدرس حيوية وجذب انتباه التلاميذ كما كان من العوامل المشجعة التي جعلت التلاميذ يقبلون على دراسة التاريخ، ومن ناحية أخرى فان مدخل الحقائق التاريخية يعتبر أيضا من العوامل المشجعة للتلاميذ في قراءة موضوع الدرس من الكتاب المدرسى المقرر.

ومن نتائج ذلك يمكن القول ان تنظيم محتوى الكتب الدراسية ينبغي ان يحتوى على نصوص ووثائق تاريخية في الموضوعات التى يتناولها ليكون أكثر فعالية في تحصيل الطلاب للمادة التاريخية، ومن ناحية اخرى فان المعلم ينبغى ان يكون لديه الدراية والخبرة في استخدام مدخل الوثائق التاريخية في تدريس التاريخ.

مصادر البحث

١ ـ أحمد محمود صبحي : فلسفة التاريخ . الاسكندرية : دار نشر الثقافة الجامعية ، ١٩٨٠ .

٢ ـ أحمد بهاء الدين : إسرائيليات . القاهرة : المكتبة الحديثة ، ١٩٦٧ .

٣ ـ تقي الدين المقريزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة . تحقيق : مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٣٥٩ هـ .

٤ ـ جمال الدين الشيال : التاريخ والمؤرخون المسلمون . القاهرة ، ١٩٦٦ .

٥ ـ حسن عثمان : منهج البحث التاريخي ، ط ٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٦ .

٦ ـ حسين مؤنس : التاريخ والمؤرخون ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٥ .

٧ ـ عبدالرحمن الجبرتي : مظاهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس ، القاهرة ، دار الشعب ، ١٩٦٨ .

٨ ـ عبدالرحمن بن خلدون : المقدمة ، حـ ١ ، القاهرة : المطبعة الشرقية ، ١٣٢٧ هـ .

٩ ـ عبدالعزيز الدروي : نشأة علم التاريخ عند العرب ، بيروت دار النشر الحديثة ، ١٩٧٦ .

١٠ـ محمد أبو المحاسن عصفور : تاريخ الشرق الأدنى القديم الاسكندرية ، دار نشر الثقافة ، ١٩٦٢ .

١١ـ نجيب ميخائيل ابراهيم : مصر والشرق الأدنى القديم حـ ١ مصر ، جـ ٢ سوريا ، الاسكندرية ، ١٩٦٣ .

١٢ـ لا نجلوا وسينيوبوس : النقد التاريخي ، ترجمة : عبدالرحمن بدوي ، القاهرة : الانجلو المصرية ، ١٩٦٣ .

١٣ـ و .هـ .ولسن : المدخل الى فلسفة التاريخ ،ترجمة : احمد حمدي محمود ـ القاهرة ، ١٩٦٢ .